رواية

ميسلون هادي

جانو أنتِ حكايتي

دار الحكمة
لندن

رواية

ميسلون هادي

جانو أنتِ حكايتي

دار الحكمة
لندن

- جانو أنتِ حكايتي (رواية)
- تأليف: ميسلون هادي
- الطبعة: الأولى ٢٠١٧
- الناشر: دار الحكمة ـ لندن
- لوحة الغلاف: الرسامة نادية الأوسي
- الاخراج الفني: شركة MBG (INT) Ltd ـ لندن

ISBN: 978-1-78481-099-3

© حقوق الطبع محفوظة

DAR ALHIKMA

Publishing and Distribution

88 Chalton Street, London NW1 1HJ Tel: 44 (0) 20 7383 4037 Fax: 44 (0) 20 7383 0116

E-Mail: hikma_uk@yahoo.co.uk Website: www.hikma.co.uk

لست أدري ما إذا كان البحر يصنع الأمواج

أو يحملها!

لست أدري ما إذا كنت أنا المفكر

أم فكرة عارضة!!!

كلاوديو بوتساني

شاعر إيطالي

(١)

المقعد الخلفي

يشتهر الممر إلى باب المستشفى بكثرة الطيور التي تغطيه بحثاً عن بذور التفاح المنتشرة أشجاره على الجانبين ، وثمة رجال ونساء تتراوح أعمارهم ما بين الستين والسبعين عاماً يتنزهون حول النهر عندما يذوب ، ويتزلجون فوقه عندما يتجمد . . أما في الربيع فيهب الهواء النقي ، وتطير بعض الطائرات الورقية ، وتطفو الأوزات فوق الماء النمير . ثابتة تراوح في مكانها ، ولا تجري أو تسبح مع النهر حتى مصبه في المحيط الهادر . .

أنظر إلى النهر من زاوية واحدة لا تتغير . . أحلم بأني وحدي معه في هذه الدنيا . . . أتأمل أبعاده ، وأقرض الشعر أحياناً عندما يتكدس الغيم في السماء ، أو أرى سيارة المطافئ تقف قرب بناية إطفاء الحرائق . . كل يوم ينسخ يومه السابق من خلال ورق شفاف ، ما خلا تلك الأيام التي تشهد إجراء عمليات التجميل لوجهي ، وما يسبقها من فحوصات وتحاليل تحمل أبي على الانتظار مبحلقاً هو في أفواه الكلام الذي لا يفهمه . . . . متسائلاً أنا مع نفسي : كيف يقضي وقته في البيت عندما أكون أنا في المستشفى ، ولكنه يتدبر أموره .

كلما نظر أبي إلى الساعة الجدارية في أي مكان قارنها بساعته اليدوية ، التي لا زالت تعمل وفقاً لتوقيت بغداد . . وكلما أجرى مكالمة هاتفية ابتعد كثيراً عني ، وعن الناس . . وكأنه يهرب بها إلى طريقه الخاص الذي لا يتقاطع مع طريق آخر . . . وحتى إذا كان متمدداً على القنفة ، فإنه ينهض عندما يحادثه أحد ، ويبتعد قليلاً مع هاتفه .

أنظر إليه عندما يعود إلى مكانه على القنفة . . . أجد ، بَعدي وبعده ، شخصاً ثالثاً في المرآة . . هذا الشخص هو ليس أنا . . شكله أصبح مقبولاً وأفضل من قبل ، ولكنه لم

يعد ذاك الفتى الوسيم الذي كنته . . ولا عادت ملامح وجهه تشع بالبهجة وتنطق بالسحر . . أكاد أنا نفسي أن أنسى تلك الملامح بعد أن مرت عدة أعوام على حادثة الحريق ، فكيف سيعرفها أولئك الناس الذين يلتقون ، لأول مرة ، هذا الشخص الآخر الذي أصبحت عليه . . وبه يستعينون لكي يترجم لهم كل ما يستجد من معلومات وبيانات تتعلق بطلبات الهجرة . . . . تارة إلى عواصم الجليد والضباب ، وأخرى إلى عرين الوحش الذي دمر بلادهم ، ومزقها إرباً إرباً . . .

أصبحتُ الترجمان الورّاق الذي يكتب الإيميلات ،ويحجز تذاكر السفر ، أو يملأ بيانات الهجرة لكل عازم على الهروب لمسافة أبعد بكثير من هذا المكان ، وموجودات المكان ، متوقعاً بأنه يستطيع اللحاق بعجاج الخيل ، والابتعاد فعلاً عن هذه الدنيا إلى دنيا ثانية من بلاد الله الواسعة . . سنوات طويلة وأنا أسمع الجملة نفسها :

- ما الذي عاد بك من هناك إلى هنا؟ . . أكو واحد يعوف أمريكا ويجي للعراق؟

تلك الكلمات تُذكّرني بنيران الحريق التي اشتعلت في السيارة ، وحرارة الدم الذي كان يشخب من رأس أمي على

صدري ثم يرشح من بابها . . سيارتنا اقتربت من حاجز تفتيش أمريكي قرب مدينة الفلوجة قبل عشرة أعوام ، ولسوء الحظ فإن السيارة اهتزت فجأة ، ثم أخذ محركها يرتج بعنف حتى توقف تماماً . . وأتذكر أن أبي ترجل من السيارة قبل أن تحترق ، وأمي أصبحت تردد بصوت باكٍ داخلها : يا ملك الموت هدّه* . . زغير جنه وردة . . يا ملك الموت هدّه . . . زغير جنه وردة .

في العادة يخرج أبي في الصباح لجني رزقه من سيارة التكسي التي كنا في ذلك اليوم ندفعها عند خروجنا من البيت . . أمي جالسة في صدر السيارة منكبة على المقود ، ونحن ندفعها بعناء إلى أمام ، منظر غريب جداً شعرت أمي معه بالحرج الشديد أمام الجيران . . وظلت محرجة من هذا المقود الذي تمسكه في حياتها للمرة الأولى ، بل انها ابتسمت بخجل وارتباك إلى أن اشتغلت السيارة ، فتركتْ المقود بسرعة وجلست في المقعد الخلفي ، ثم جلست أنا إلى جوارها ، بسبب حاجة المقعد الأمامي للتصليح .

التفتت أمي ، وقالت لأبي إن عليه الانتباه جيداً لدى الرجوع للخلف .

السيارة تحركت بعد ذلك ، ولم تتوقف أو تتعطل خلال

الطريق إلى دائرة الأحوال المدنية ، ثم عادت للعتعتة مرة أخرى عند حاجز تفتيش تحول فيها العلم العراقي إلى قطعة قماش بيضاء من وهج الشمس الحارقة . . فتح أبي الباب لكي ينزل منها ، فأطلق الأمريكان النار عليه ، ثم سحبوه بعيداً عن السيارة التي أخذت تحترق بسبب خرق الإطلاقات النارية لخزان الوقود . . كان عمري عشرين عاماً حينذاك . وأتذكر أن أمي انحنت عليّ لتحميني في حضنها ، وهي تتمتم رسالتها الباكية لملك الموت ، وبعد قليل تدفق الدم من رأسها ، ثم خرج غزيراً من بين اسنانها ، واستمر الدم الغزير يملأ فمها حتى سكنت أنفاسها .

فقدتُ الوعي وأنا في السيارة داخل ألسنة اللهب ، ثم استيقظت على سرير المستشفى وأنا أتقيأ . . بقربي جهاز صغير على شكل جرس . . قرعته فرأيت أمي في حلم قصير لم يمكث سوى لحظات ، وكانت تنظر لي والنار مشتعلة فيها . . حاولت النهوض للحاق بها ، فمنعني ثلاثة رجال بملابس المارينز يتقدمهم أبي ، سمعتهم يعتذرون لأبي الذي هجم عليهم وضربهم ، فدفعوه إلى الأرض ، وجاء بعض الممرضين وأخذوه من الغرفة .

في اللحظة التي خرج فيها أبي ، دخل خالي عبد الأمير

إلى الغرفة بطوله الفارع ووجهه الوضاء ، وما أن رآني حتى راح يبكي .

كان ذلك في العام ٢٠٠٤ ، عندما تحولت الاضطرابات إلى معارك بين الأمريكان وأهالي الفلوجة ، وقام بعضهم بتعليق ثلاث جثث لجنود من المارينز على جسر في أطراف المدينة يطل على نهر الفرات ، ففرض مشاة البحرية الامريكية الحصار عليها ، ودارت معارك شوارع ضارية عدّة أيام ، ونالت الفلوجة ما نالت من قصف شديد ومركّز . استطاع المراسلون والأطباء اختراق الحصار الأمريكي على مدينتهم قبل الهجوم عليها . . وتوافدوا عليها بطرق مختلفة لمعالجة الجرحى ، ودُفن الشهداء منهم في ملعب المدينة لكرة القدم ، تحوّل فيما بعد إلى مقبرة للشهداء ، لتعذُّر نقل جثامين الرجال الذين سقطوا في القتال إلى مقابر أهليهم وذويهم . . تصادفت حادثة إطلاق النار علينا مع اندلاع تلك المعارك الضارية مع الأمريكان ، وكانت النار نصيباً لكل من يرتابون به عند الاقتراب من حواجزهم . دفع أبي السيارة بدأب عنيد عندما خرجنا من البيت ، وأنا أدفع معه بضعة أمتار ، دون أن يخطر ببالي أن ما نفعله لأجل أن يبدأ المحرك بالدوران ، سيودي بي إلى هذه العاقبة ، وسيجعل أمي تدفع حياتها ثمناً لنجاتي .

لم أعرف بموتها من أبي ، وإنما من خالي عبد الأمير ، الذي جاءنا من النجف بعد أن سمع الخبر ، ثم دخل الغرفة بطوله الفارع ووجهه الوضاء ليسمع صراخي من الألم الشديد بين فترات التخدير المؤقتة . . تسلمني بحضنه ودموعه . . . . وكان أول من يعزيني بأمي ، ويجعلني أشعر باني أصبحت في عالم من التيه . . كلما نظرت إلى الأطباء وأصابعهم البيضاء النحيلة ، وقرأت الوقت في الساعات التي تسحق الشعر في معاصمهم . . وجدت كل الساعات تخبرني بأن الوقت متوقف ، والمرايا تقول بأن حالة حروق وجهي ورأسي تتغير وتزداد سوءاً ، حتى جاء يوم الاقتراب من بعضهم البعض حول سريري ، فقرروا نقلي للعلاج إلى مدينة كامبردج من قاعدة جوية أمريكية تقع قرب مطار بغداد . . .

- الله ربك* .

هذا آخر ما سمعته من أركان كولجي* الساحات الترابية ، ورفيق الدراجات الهوائية ، عندما ودعني قبل الذهاب إلى المطار . . ابتسمتْ بالرغم من الألم ، وعلى وجهي تعبير يشبه الانشداه ، تذكرت ما درسناه في درس الأحياء عن ذَكَر العنكبوت الذي عليه ، قبل الوصول إلى الأنثى ، أن يؤدي بعض الإشارات الغريبة لكي يُعلِمها أنه حقاً عنكبوت وليس

ذبابة أو كسرة خبز ، ولم أكن أعلم في تلك اللحظة ما أنا . . أو لماذا أؤدي هذه الابتسامات والإيماءات المتكررة ، التي اقتنصَتْها ريتا المصورة ، وطلبت مني الحفاظ عليها بعضَ الوقت ريثما تنتهي من التصوير . . . .

منذ لحظة خروجي من مستشفى القاعدة الأمريكية وحتى وصولي المطار ، لاحقَتْني تلك الفتاة الأمريكية التي تحمل على كتفها كاميرة فيديو ، وتضع على ظهرها حقيبة جلدية سوداء اللون ، ولها شراشيب من الجانبين ، وفيها الكثير من الجيوب . تخيلت العربة التي تجرنا واحدة من عربات الكاوبويز المغطاه بخيمة محدودبة ، وبدلاً من رعاة البقر كان يوجد فيها بعض الجنود من المارينز ، وحسبتُ تلك الفتاة في البداية هي أيضاً جندية من المارينز ، لأنها كانت تضع قبعة شبيهة بقبعاتهم على رأسها ، ولكنني علمت فيما بعد أنها ستقوم بتصوير الرحلة من الألف للياء . . اسمها ريتا سمارت ، وساعدتني في ربط حزام الأمان فجعلتني أناملها أشعر باللذة ، بل التهبت النار بداخلي . .

الغريب أن المقعد الذي جلس فيه أبي كان خالياً من حزام الأمان ، وتم نقله الى مقعد آخر فيه حزام لم يحاول أبي ربطه إلا بعد أن التمس منه المضيف ذلك . أبي لم

يكن مستعداً لأي شيء . . وكان متوتراً منذ اللحظة التي وصلنا فيها المطار ، فقد طلبوا منا الوقوف قريباً من سلم الطائرة ، وبسبب الوضع الأمني المتردي كان علينا فرز حقائبنا بأنفسنا وسط عاصفة قوية من الهواء دفعتنا بأكثر من إتجاه أثناء صعودنا إلى باب الطائرة . . . انتابت أبي حالة من الاضطراب ، وظل صامتاً لا يسمع ولا يتكلم . وجدت الحق معه . . ركب الطائرة للمرة الأولى ، فإذا بالمقعد بدون حزام ، والهواء عاصف ، ومن خلفه مصورة الرحلة ريتا سمارت تصور أحراش الأرض المتراجعة بسرعة كبيرة إلى الخلف ، وتقول يطريقتها الاحتفالية بأننا أول من يستعمل هذه الطائرة العسكرية .

ولم أكن متأكداً بأني قد فهمت كلماتها الإنكليزية ، أو سمعتها جيداً ، إذ سيطر علي انشغالي بآخر رسالة على الموبايل وصلتني من صديقي أركان ، وكانت تحتوي وجه شيطان على شكل كاليميرو قال لي إنه يحسده منذ الآن لأنه سيكون ثالثنا أنا وريتا المصورة . . رأيت رسالته وابتسمت مرة أخرى ، وكلما تنقلت ريتا مع قبعتها بين مقاعد الطائرة ، لتتخذ المكان الأفضل لزاوية التصوير ، بدا لي كاليميرو وهو يتنقل معها من مكان لآخر . ريتا المصورة

لا تكف عن الابتسام والحركة ، وأنا أيضاً ابتسمت لها ، وهي تصورني أثناء الصعود إلى باب الطائرة ، ورفعت بكل غباء شارة النصر لها ، من خلف هواء عاصف وشريط محبحب لتضميد الحروق . .

ارتجف قلبي بخوف لذيذ عندما نظرت من النافذة إلى قصور الرضوانية وبساتين أبي غريب ثم عامرية الفلوجة . تصغر شيئاً فشيئاً كلما ارتفعنا إلى أعلى ، واستغربت كيف وافق أبي على السفر معي ، وهو الذي نادراً ما يغير مكانه ، وإذا فعل ذلك شعر بالتعب ، وضاع منه الطريق ، فيظل "رأسه يفتر" ، كما يقول ، بحثاً عن ساعة الحائط أو باب الحمام . بدت لي الرحلة أقصر مما ينبغي ، فقال أبي إنها لم تكن قصيرة ، بل استغرقت عشرين ساعة ، ولكني لم أشعر بها لأني كنت نائماً أغلب الوقت بفعل أقراص المهدئات التي أخذتها بعد تناول الطعام . . كانت السماء تحط بنا من غيمة لأخرى ، ولم أتمكن من رؤية شيء محدد في فترات الصحو من النوم ، وعندما هبطنا من الطائرة بدأت ريتا التصوير وهي تعتذر مني ، وتسألني هل أنا على ما يرام؟

هل هاني على ما يرام؟

أنا لا أستطيع الكلام . ولو كنت أستطيع الكلام بقلب

قوي ، لقلت لها لا داعي للاعتذارات المتوالية التي لا تقدم ولا تؤخر ، وإن أي شيء ليس بخير أو على ما يرام . . تلك الكلمات كنت أقولها لنفسي فقط ، في قلبي فقط ، ولا أستطيع التفوّه بها أمام الآخرين . . وحتى حين سأتعلم الإنكليزية ، وأُتقنها ،لن أكون قادراً على اختراق جدار ألمي ، أو إيجاد الكلمات التي تؤدي الغرض لتعبر عما حدث لي ولعائلتي في الحياة .

(٢)

هاني

يوماً ما سأتكلم عن نفسي ، وقد أكتب قصتي في ثلاث جمل . . أمي ماتت ، ووجهي تشوّه بشكل كبير ، وأبي يريد الزواج من امرأة أخرى . . لا أحتاج في يوم من الأيام أن أقدّم شهادة تثبت ما حدث لي أكثر من هذه الجمل الثلاث . . وحتى لو أردت قول هذه الشهادة المختصرة أمام المصورة ريتا سمارت ، أو الجنرال ديفيد دونالد ، فإنها تحتاج مني أن أبذل جهداً جباراً لكي أتخفف من كم اليأس الهائل الذي يتملكني . . ويجعلني لا أستطيع أن أفعل شيئاً سوى أن

أغمض عيوني التي حاصرتها النار ، فأصبحت تشبه عينَيْ الصقر أو الحمامة . .

لم أعد ذلك الفتى الوسيم الذي كنته ، ولا استمر ذلك الحلم البعيد بُعدَ ألفِ زمن وزمن . عندما كانت وجوه الفتيات تتضرج بالحمرة عندما تراني ، أو تتلفّت إليّ بارتباك إذا صادفنني في طريقي إلى مدرستي الثانوية . . وكلما زادت تلك النظرات من عيون الفتيات ، والفتيان أحياناً ، انتابني مقدار من الزهو ، وتأكدت مما يشع به وجهي من السحر الرباني الذي لم تشهده جانو ، ولا تعرف عنه أي شيء . أكثر من ألف عين انشدهت ، وغبطتني على ذلك السحر ، تارة بالمدح وأخرى الشتائم ، وأولهم أركان صديقي الذي كان يشبه هراً كبير الرأس عالي القوائم ، لا يمل من المشي وراء البنات ، والتودد إلى البنات ، وإذا ما صادفتنا في الطريق قطة تسرع في مشيها ، أو تهرب راكضة من منطقة الخطر ، فمن غيره يكون السبب .

في تلك الأيام البعيدة نظرت جيداً إلى المرآة ، فوجدت فيها كتفين عريضين وبطناً ضامراً ووجهاً حنطياً يتوسطه فم جذاب حاولت الاقتراب منه فوق وسادتي عدة مرات ، وأنا بحاجة للاحتراق بطعم تلك القبلة الأولى التي أخذتني إلى

عالم مدوَّخ ، وأوقعتْ في نفسي الذهول بين سحر الشفتين الممتلئتين ، وبياض التلّتين الصافي الذي يثير العجب . . . . لم يتبخر قط ذلك الأثر السحري لتلك القبلة الالتهامية ، ولا يزال وخيماً يلتمع تحت رماد المشاعر التي تُحرّكها ذكرى بعيدة لسحر انتهى ، وتبخر أثره من الأفواه والعيون ، فلم يعد من الممكن أن يبعث الحمرة والخجل في وجوه الطالبات ، وقارئات الفنجان ، وبائعات الخضرة والقشطة ، وبعض المهندسات الزراعيات اللواتي يحملن البذور الى قبو كبير يسمى بقبو يوم القيامة .

تحياتي طارق . فأنا قد ذهبت إلى بيتك من أجل جلب المنشار ، ولم يكن في البيت أحد سوى امرأة لا أعرفها . . وكنت عندما أشكو لأمي كبر حجم قَدميّ تقول لي أنت حساس جداً يا هاني . . لا شيء من هذا القبيل يعيب قمراً جميلاً مثلك . ولم أكن أعلم أنه سيأتي يوم أعرف فيه امتيازهما الفريد حتى وضعت تلك المرأة البيضاء العجيبة قدميها فوق قدميّ الكبيرتين ، وحاولتْ أن تصل إلى فمي لكي تقبلني . كأنها كانت تنتظرني كصياد يتربص بقطاة ، وبعد أن فتحتْ الباب ، تلتْ علي مسامعي بعض كلمات وأحاجٍ لم أسمع بها من قبل . . تحدثتْ عن زبدة الكاكاو

ومربى التين وأشياء من هذا القبيل . . . سألتني أيضاً إن كنت صعلوكاً مغامراً كخالي عبد السلام النجار الذي أعمل معه بعد الظهر ، أو كنتُ مستقيم الدرب والقلب كأبي عبد اللطيف الشاعر الذي لا يحيد عن طريق السواقي والبساتين . . كانت ترتدي ملابس مكشوفة تشبه ملابس الإنسان البدائي التي نراها في الأفلام . . قطعة من الجلد البني تغطي بطنها وأحد كتفيها ، وتنزل بشكل غير منتظم فوق فخذيها . . ها؟ لم تخبرني . . هل أنت صعلوك مغامر كخالك عبد السلام النجار؟ قلت معاذ الله من دروب الخال الأصغر ، أنا لا أشبهه في شيء مما تقولين . . . . . . ضحكتْ تلك المرأة الألعبان ، وقالت إذن أنت وسيم أنيق كخالك عبد الأمير صياد الصقور . . لذت بالصمت لا أعرف ماذا أقول لها ، فأزلجتْ الباب خلفي لكي تنهي الكلام ، ثم وقفتْ على قدميّ الكبيرتين ، وسحبتني من قميصي على مهل ، وقبلتني قبلة طويلة فوق فمي انتهت بالتهامي من وجهي حتى قدمي .

لم تترك في جسدي مكاناً لم تُقبّله ، وظلت تتلوى فوق شفتيَّ بنهم ، وهي تقف بيني وبين باب الحديقة المغلقة . وقفنا على وجه الأرض دون أن نشعر بها . . أكثر الناس

يمرون في الزقاق ، ولا نرى أحداً أو يرانا أحد . كأنهم يسيرون هناك ، ولا يلتفتون لشيء ، فعند التفات الأعناق قد تنقطع الأرزاق ، ولهذا اختفت تلك الجموع خلف هديرها الذي يصل إلينا ، وما من شيء حولنا سوى الحشرات الصغيرة التي تولد وتموت قرب عناقيد العنب . . مشغولة لا تكاد تبالي بما تحذفه أجسادنا من هوام ذريتها التي تتحرك في غيوم من حولنا . . إذ تنشغل اليرقانة بقرض الجذور ، وتلتهم الدودة الفواكه ، وتمضغ الفراشة أوراق الشجر . . وأحياناً تكون النباتات وحشية فيحدث العكس ، وتتغذى هي على الحشرات ، والعناكب ، والديدان .

هي وأنا فقط خلف باب مغلقة . نأكل بعضنا بعضاً ، ولذة من الوجع أحسها في ظهري المحشور بين الباب وجسمها المنير الذي يشفّ عن بياضه ثوبٌ من الدانتيل الأسود . . . . أين ذهب ثوبها البدائي؟ ومتى استبدلته بهذه القطعة من الدانتيل التي تشع ثقوبها السوداء بشموس مثيرة من جسمها الذي يتلوى وينعجن بين يديّ . . يا له من شعور غريب مستمر من تلك اللحظة وحتى بقية حياتي . . حيث استطاعت تلك المرأة العجيبة ، التي أنستني من أكون ، أن تتحول من طين مندثر إلى رائحة جديدة من روائح الجنة

على الأرض ، وأن تختصر الزمن في نصف ساعة فقط أقمت وعشت فيها حياةً كاملة قبل أن أصحو لأجد أنني ما زلت في مكاني ، ولم يمضِ علي سوى نصف ساعة فقط .

أنا لا زلت هنا . . ولكن من أنا؟ وما هذا المكان؟

لم أعد قادراً على التمييز بين صوت وآخر ، ولم أشعر بأني يجب أن أتباهى بما حدث ، كما لم أعثر لتلك المرأة على أثر بين نسوة المدينة ، فقلت لنفسي لعلها جاءت من خارجها . . . . . أو لعلها لعبت لعبها في خيالي . فبدت بعد ذاك كالحقيقة . خفت أن أسأل أحداً عنها حتى صديقي طارق نفسه ، ومر الوقت طويلاً بعد صباح اليوم الإثنين الذي رأيتها فيه ، وتحججتُ بشتى الحجج للبحث عنها ، وبعد سبعة أيام عثرت عليها فأنكرتني ، وتظاهرت بأنها لا تعرفني .

سائق التكسي أوصلها إلى مجمع التسوق ، وكانت ترتدي خمسة محابس في كل كف . . خرجتْ من المجمع بعد الواحدة ظهراً ، فوجدتْني بانتظارها دون أن تراني في البداية . . كشفت عن أسنان جميلة جداً ، وقالت للبائع ، هل يمكن أن آخذ دبوسين بدلاً من دبوس واحد بنصف دينار . . أكملت ضحكتها التي بدأتها قبل قليل ، وكان البائع مستعداً لبيعها محله كله بنصف دينار .

هاني : ألا تعرفينني؟

المرأة : كلا ، من تكون؟

أنا نفسي استغربت أن لا أكف عن الطواف حول بيتها ، وأن أكون بانتظارها في أكثر من مكان عام ، وكان من الأجدر أن لا أتبعها بعد خروجها من مجمع التسوق . . دخلت دروباً لا أعرفها ، وشعرت بأني أمشي على الجمر ، حتى فتحتْ تلك المرأة باب البيت ودخلت إليه . . بيتها هو آخر بيت في الزقاق ، وعلى واجهته أشكال من الأضواء الخافتة . . لا يوجد أحد في الخارج ، فسحبتني إلى الداخل وهي تصرخ وتقول بأنها تريد الخروج عن القاعدة . . . . . . ويا لروعة ما فعلته تلك المرأة خروجاً على القاعدة ، إنها زهرة وحشية تعيش في أراضٍ جرداء يقل فيها الغذاء ، وتنتظر عشاءها أن يأتي إليها ، لا أن تذهب هي إليه ، فهي عاجزةٌ عن الزحف هنا وهناك بحثاً عن وجبتها المقبلة . ولذا فقد تحوّرت لتصبح لها مجسات بين الأصابع تصطاد بها الكائنات الحية .

هه . . استغربتُ من نفسي كيف تجولتُ وعشت أشياء لا أعرفها بهذه الطريقة المختلفة ، أو كيف تسنى لتلك المرأة المجهولة الظهور لي من خلف عالم مجهول . . ثم مغادرتي إلى عالم مجهول . . جعلتني أحيا لفترة من الوقت بعد ذلك

وأنا أتساءل كيف حل بها الرحال لتصل بيت طارق صديقي الحميم . ليس هي فقط ، ولكن العالم من حولي أحاقت به الغرابة والرحابة ، ورأيت نفسي في ألف حال وحال ، وإذا ما أردت التحدث بما حدث ، وجدت نفسي وديعاً مسالماً كأبي الذي لم يقاتل في الجبهات ، ولم تكن له أية ميول سياسية سوى كتابة الشعر والتغزل بالوطن .

كتبتْ على فمي وجسمي أثراً لن يتكرر . . وأبت شفتاها إلا أن تفعل فعل الترياق . فمن تكون تلك المرأة الموقوتة التي لا تشبه غيرها من النساء ، والتي ، وإن انتهت تجربتي معها في بضعة أيام ، فلا زلت مستغرقاً بها ، لا أرى الشوارع أمامي واضحة المعالم ، ولا الأبواب هي الأبواب .

(٣)

بقايا كلام

اسمي هاني عبد اللطيف الشاعر . . مغرم بخنق نفسي حتى يكاد ينقطع النفس . . أجد في المرآة شخصاً لا أعرفه . . شكله مقبول وأفضل من قبل ، ولكنه ليس أنا . وهذا ما لم يعرفه أحد بعد عودتي من أمريكا لبغداد ، إذ هم لم يروا سوى هذا الوجه الجديد الذي لا أعرفه . . ولم يلتقوني في عالمي الأول قبل أن تنطمس ملامحي الأولى التي فتنت تلك المرأة الخلابة ، واستنطقت فيها كل المظان وفتنة الأبدان . لا أستطيع النوم إلا بعد أن أجول الدنيا كلها .

وحتى عندما أغمض عيني ، فإني أظل أرى الكثير من الناس ، وأخترع بعض النساء على شاكلة تلك المرأة التي التهمتني عندما ذهبت الى بيت طارق . .

طارق صديقي منذ أيام المدرسة الثانوية ، ولم تكن في بيته إمرأة سوى جدته العجوز . فجميع أخوته من الذكور ، وأبوه قد تزوج امرأة أخرى تعيش في بيت آخر . . ولا يمكن أن تكون هي التي فتحت لي الباب عندما ذهبت من أجل المنشار ، وحتى لو كانت قد جاءت إلى البيت في غياب الجميع ، فلماذا قبلتني وفعلت ما فعلت لفتى غر في عمر المراهقة ، لا شيء يستوقفه سوى براءة الفتيات ونظرات الفتيات وارقام هواتف الفتيات؟ . . وكيف كلما مرت ببالي تلك المرأة التي شبّهتني بخالي عبد السلام النجار ، تحدث واحدة من تلك التوافقات الخفية المسماة بالصدف ، ويتصل بنا خالي النجار فعلاً ، وكأن التصادي بين الأفكار والقلوب أصبح كبيراً إلى درجة عجيبة ، كأننا نعيش مع غيرنا في قلب واحد؟ .

رن موبايل أبي في لحظة من لحظات التفكير تلك ، وكان المتصل هو خالي عبد السلام . طلب منا أن ندلّه على كيفية التقديم للهجرة إلى أمريكا ، وهل الوضع النفسي السيّئ الذي

يعيشه هو قصة جيدة يدلي بها لكي تساعده للقدوم إلينا . . أبي مازحه ساخراً ، وقال له إن هناك طريقة أسهل للهجرة يدّعي فيها بأنه لا يحصل على العرق إلا بشق الأنفس ، فتهيِّئ له السفارات سفرة فورية إلى أي بلاد يريدها . .

- ماذا تقول يا عبد اللطيف؟ أنا رجل صالح .

- إذا كنت رجلاً صالحاً ، وأشك في ذلك ، فقد تستطيع الادعاء بأنك مصاب بالاكتئاب الشديد منذ أن قتل الأمريكان أختك . .

- أنا فعلاً رجل صالح يا عبد اللطيف ، وإذا كنت أشرب الخمر ، فذلك لاني مكتئب منذ الحادثة التي وقعت لك ولهاني ولأختي أم هاني .

- وهذا الاكتئاب غير كاف لكي تستطيع الدخول إلى أمريكا . . انتظر حتى تصاب بالعمى والصمم والرعاش .

- أنا جاد يا عبد اللطيف . . ألا يمكنني الحصول على اللجوء لسبب أو لآخر؟

- يمكنك الحصول عليه بعد أن تموت ، إذ لا تجوز الصلاة على من يلعب القمار ويشرب الخمر . وهذه قصة مقنعة لطلب اللجوء .

- لا أمزح يا عبد اللطيف . أنا أريد المجيء لأمريكا .
- وانا أريد العودة للعراق .

في اليوم التالي رأيت أبي من نافذة المستشفى سعيداً يغني للمرة الأولى ، مما جعل رجل الدين يبتسم له ، قبل أن يجتازه ، وكان من أولئك الرهبان الذين يظهرون في الأفلام ، حالقين رؤوسهم على شكل دوائر صلعاء محاطة بشعر مقصوص على نحو مستدير يغطي الآذان والنواصي . . وعندما رد أبي الابتسامة ، استقام بحماس ، ونهض للراهب ، فبدا نحيفاً كعود الخيزران ، خفيفاً مثل تلك الأغصان المتساقطة التي يلمّها من الأرض . . دخل لغرفتي بعد قليل ، وقال لي : ما دامت فترة علاجي قد انتهت ، فلم تعد تعني له شيئاً كل تلك الإغراءات التي قدموها لنا للبقاء في هذي البلاد ، فأمريكا أصبحت بالنسبة له مثل صورة العرس التي يتقاتل الجميع من أجل التقاطها مع العروس ، ولكن إذا ما غاب أو اختفى واحد فقط ممن نحبهم عن تلك الصورة ، فإنها ستكون آخر ما نحب أن نراه ، أو نستذكر لحظاته . .

عرفت أبي عاشقاً للزرع والخضرة ، وفي الأوقات التي لا يكون فيها منشغلاً بأمر من أمور المزرعة ، يقوم بلم الكثير من الأغصان والأوراق من حديقة البيت . . فكيف أصبح هنا

حزيناً عاطلاً عن كل عمل . تهدلت زاويتا فمه إلى أسفل . . وتجعد الجلد حول عينيه ، ولولا تلك الكلمات التي أطربته عن عودتنا إلى العراق . . لما تجول مبتسماً بين النباتات التي تغطي ممرات المستشفى ومقترباتها ، وكأنه لم ينتبه لها إلا بعد أن جعلته فكرة الرجوع قريباً من بر الأمان ، فقال لخالي عبد السلام ، قبل أن ينهي المكالمة ، بأنه في شوق لكل شيء هناك من أذان الظهر وحتى أصوات قرع باعة الوقود على قناني الغاز ، أو فوق آنية الحديد .

لم يظن أبي أن النار التي شبت ، وكادت تلتهمه أيضاً ، ستجعله يسافر إلى الولايات المتحدة حيث يجب أن أتلقى أنا العلاج . ولم يشرح لنا أبي ، الذي اقتربت النار من كتفه وأصابعه ، كيف وجدناه بحالة جيدة من رأسه إلى قدميه . . . . وكيف استطاع انتشالي من لهيب النار دون أن يصاب بجروح بليغة . يبدو أن الألم الذي خمد وتشرذم بفعل الأهوال التي مر بها ، قد استفاق وتيقظ بمجرد أن وصلنا إلى المستشفى التي سأباشر فيها جراحات الوجه وتجميله من الحروق ، إذ شعر لحظتئذٍ ، وللمرة الأولى ، بألم في قدميه ، واكتشف أن تلك الحادثة قد نالت منه أيضاً ، دون أن يشعر وقتها بأي عرض من أعراض الإصابة . ليست الكدمات الخفية فقط

هي التي بدأت بالظهور ، وإنما تبرم مستمر من الثلج والبرد وكل شيء يحيط بنا . لم يعد يعني المكان له شيئاً ، كما لم يكن انبهاري أنا كافياً لمحو الغصة من قلبه ، فيرتجل بيتاً من الشعر يقول فيه :

من الحلاوة فلحمتْ واحترق جبداي

كاتلني العطش وروحي تصيح وين الماي

أبي ليس حزيناً حسب ، ولكنه مصاب بالمغص في هذه البلاد على الدوام . . ولا يحب الدخول إلى المتاجر العملاقة التي تبيع آلاف الأسماء من الشيء الواحد . . هذا غير منطقي كما يقول . . ألف نوع من الزيتون ، ومئة نوع من الصابون ، دوار للبطون وفنون تعمي العيون . هذا ضرب من الجنون لصاحب الميرة المجنون ، والذين يمتارون لأنفسهم من هذا الجنون!!!

يا أبي ، هنا الطعام والألوان والأحلام ، با أبي هنا خشبة المسرح التي يحوم حولها الأنام ، لا يا ابني هذا مكان بارد تتجمد فيه الأطراف ، وقارة لا يستطيع اللحاق فيها بمن يحسبون ركضهم مشياً في أمان الله . . وهم في الحقيقة دائخون في هذا المسرح الذي تتحدث عنه . . لا أحد ينتبه لخطواته ، أو يشعر بلوعته ، لا من أهل القارة الذين يركضون ،

ولا من أبناء جلدته الذين قفزوا لهذه الخشبة البليدة الواهية . . ثم أصرّوا على التمسك بها لظنهم بأنها حياة الروح التي سوف تنقلهم من مكان مجهول وموحش إلى مكان جميل ومضيء . . . ولكنهم لا يعرفون ماذا يريدون ، وعندما يشعرون بالضيق أو الشوق المفاجئ إلى الأرض البعيدة التي تركوها وراءهم ، فإنهم يسمعون الأغاني والأوبريتات القديمة . . ويغنون معها بأصوات قوية ، ثم يتمايلون طرباً على نغماتها الشجية . .

لهم أصوات تغني ، وأقدام تتحرك ، وقلوب تفقه ، ولكن لا يشعرون بما شعر به أبي من ألم كبير ، وهوان أكبر ، ولهذا أشبعوه نقداً ولوماً على قرار عودته إلى العراق مع ابنه الوحيد . وعلى استعداده للعودة بقارب بخاري أو مشياً على الأقدام ، كما يقول . . . . لوعته من الطبيعي أن لا يدركها أولاد يافعون ، أو أطفال عابثون لا يعرفون من الدنيا شيئاً سوى اللهو والتهام الطعام ، غير أنه من الغريب أن يجهل معناه حتى الكبار الذين يغنون كل يوم عمن أضاع الوطن بعد الذهب . وها هو يقول في الموبايل لخالي عبد السلام مرة أخرى بأنه يريد العودة للعراق بأقرب وقت ممكن .

في بانيو الحمام تشتتت أفكاري . . لا أدري هل أوافق

أم أرفض؟ ، وأصبحت كل فكرة في مكان . أرى وأنا داخل الماء مخلوقات بالغة الدقة والصغر . . بعضها أليفة ، وأخرى غريبة . . أشرح لنفسي كل ما أراه ، وأقارن تفاصيل المكان الذي أنا فيه مع مكاني القديم ، ففي رأسي يوجد أكثر من مكان جديد لكي أنظر إليه . . وأحياناً تنظر لي ريتا المصورة من خلف كاميرتها ، وتقول :

- انظرْ لي يا هاني ، هيا انظر لي وحدي ، وتحدث عن نفسك ، هيا تحدث يا هاني ، واشرح لنا كيف وصلت إلى هنا .

لا أتصور كيف وصلت هنا . . وبهجة هذا المكان لا تشابه فرحة زمان بعيد عندما ركبتُ عربة يجرها حصان قوي . . وكانت أختي الصغيرة رقية لا تزال على قيد الحياة ، ومن حولي سرب من الأطفال أضحك معهم وأغني وأرقص بملابس العيد . .

صورتني ريتا وأنا أغني هنا وليس هناك . . . لقد اقتضى دوري في هذا الفلم أن أغني ، وأن تعلق ريتا قائلة إن هاني أمضى ثلاثة اسابيع في تدريب متواصل على أغنية راب عربية ترافق رقصة جارتها الأمريكية . فتنتني الفكرة عندما جاء يوم التنفيذ . . . وأحببت الرقص الذي يجعل الدماء

الحارة تتدفق في عروقي ، والنشوة تجرفني فأنسى همومي . . لقد قالت لي ريتا : إنني أعرف طريقتك يا هاني . . تعيش في صمت وسكون ، بينما قلبك مليء بالكلام . لست تعيساً ولا متشائماً ، ولكنك سعيد بحزنك ، ونادراً ما تتكلم . . ولهذا سأجعلك تغني . .

هه . . وكأنني لم أغنّ في هذه الدنيا قبل هذه اللحظة . ولا رقصت ولهوت مع أقراني في المدرسة . . هذا ما تظنه ريتا التي تريد رسم الابتسامة على وجهي حينما طلبت مني الغناء . . فرحبتُ في قرارة نفسي . . ورحت أغني بأعلى طبقة في حنجرتي . ومدت ريتا يدها لي من خلف كاميرتها ، وكنت أتصور أنها ستطلب مني الكف عن هذا الغناء العالي ، ولكنها رفعت إبهامها مفرداً دليلاً على الإعجاب ، وهنأتني على جمال صوتي . إذن أنا ، رغم كل شيء ، أستطيع الغناء ، بدون نشاز ، ودخلت في دوامة اخرى أفقت منها على صوت ريتا تقول :

- أهنئك يا هاني . . إنك أعجوبة!

(٤)

أين ذهبتَ يا أبي؟

- يا هاني انظر لي . . هيا تحدث عن نفسك .

فأبتسمُ لريتا دون كلام ، وتستمر هي في الانتباه لكل ما يستجد حولي من انشغالات قد تحتاجها لإضفاء لمسات حقيقية على شريطها ، الذي تضمّن تصوير حتى مسار الطائرة المرسوم على شاشة المقعد ، والمتمدد على شكل خط طويل يقصُر تدريجياً كلما ابتعدنا عن بدايته ، واقتربنا من نهايته في مطار بوسطن . علمت فيما بعد أن المصورة ريتا ستشارك بهذا الفلم في مهرجان دولي لنصرة العراق . .

كما تبرعتْ فرقة موسيقية ، ستفتتح المهرجان ، بريع حفلتها لجرحى الحرب من أمثالي . .

بعد أن انتهينا من إجراءات المطار جاء موظف آخر ، وهو مسؤول خدمة المسافرين المرضى ، وقال : سنخرج الآن من المطار لإيصالكم للسكن المؤقت الذي يقع في حي قريب من المستشفى ، وفعلاً خرجنا من المطار ، وإذا بسيارة مجهزة تنتظرنا ، وتفاجئنا بوجود أمتعتنا فيها . . كل إجراءاتنا في المطار مع تأشيرة الدخول لم تأخذ أكثر من ساعة واحدة . . سارت بنا السيارة من المطار في أجواء الطبيعة الخلابة والجمال الرباني الذي وهبه الله لهذه الأرض ، فوصلنا لمكان السكن المؤقت ، ومن شدة التعب نمنا على الفور . . وفي الصباح استيقظنا على صوت طير ينقر نافذتنا ، لنجد أنفسنا في نزل جميل يشبه الفندق تقريباً حيث سنقيم فيه مدة يومين فقط ، يتمكنون خلالها من تجهيز شقة خاصة بنا أنا وأبي للانتقال لها . .

في الصباح نزلنا من أجل الفطور ، فاستقبلتْنا روائح الشاي والخبز المحمص مع الزبدة والجبنة والبيض المخفوق فور خروجنا من المصعد . . روائح منعشة أنستني ما أنا فيه من ألم . . بل جعلت وجع رأسي تخف شدته ، وصببت لنفسي

ولأبي أكثر من قدح شاي ، ومع كل رشفة ارتشفها بعد قضمة من الفطائر المحشوة بالجبن ، أطيل النظر إلى وجوه الفتيات الجميلات اللواتي يعملن في المطعم ، ويبتسمن لي ولأبي بمنتهى اللطف . . . لم يكن أبي يرفع بصره إليهن ، واحتل الشاي كل اهتمامه في تلك اللحظة . . للشاي قدرة عجيبة على تحسين المزاج ، وتموين الجسم بالبهجة . فكيف إذا قدمَتْه مع الحليب الطازج أناملُ رقيقة تشعرك بأنك أهم شخص من بين الموجودين على باقي الموائد؟ . لقد جعلت تلك القدرة للشاي الساخن أبي يتثاءب ، ويطلق آهة مصحوبة بكلمة الله ، وهذه الإيماءة ، التي بدرت منه ، تدل على إنه في حالة سعادة واسترخاء .

المطعم فيه كافة الخدمات ، مع بوفِيهْ مفتوح للوجبات الثلاث ، نـأخذ منه ما نشاء ونخدم فيه أنفسنا بأنفسنا ، ما عدا وجبة الفطور التي تتميز بوجود بعض النادلات . وعند كل وجبة طعام نجتمع مع بعض المهاجرين الذين مُنحوا سكناً في هذه الشقق الفندقية ، وكل واحد منهم يشعر بالامتنان لوصوله سالماً إلى بلاد الأحلام ، لأن غيره من العراقيين قد قضى أشهراً يسير من دولة إلى دولة أخرى في أراضٍ وعرة ومتشعبة ، ومنهم من فقد حياته أو حياة

أحد أبنائه على قارعة الطريق بسبب أهوال السفر، وعدم قدرة الأطفال خصوصاً على تحمل هذه الصعاب.. عشنا يومين كاملين في هذا السكن المؤقت، حتى تم استدعاؤنا من قبل إدارة هذا النزل، وأخبرونا بأنهم قد جهزوا لنا شقة مستقلة في مجمع سكني تابع للكنيسة في مدينة كامبردج.

المجمع تحيط به الحدائق التي نصلت ألوانها بسبب الخريف.. وفي جانبه الغربي توجد كنيسة كبيرة علمت فيها بعد أن هذا المجمع الملحق بها هو عقار استثماري تقوم الكنيسة باستئجاره للراغبين في ذلك. وبسبب البرد الشديد خرجنا أنا وأبي لشراء جاكيتات من مول قريب اسمه الغاليريا، وبعد تجوالنا في محل واحد أو محلين داخ أبي، وجلس في قاعة المطاعم ينتظرني ريثما انتهي من اختيار جاكيتين من قماش سميك لي وله. تركته ساهماً يجيل نظره داخل جدران القاعة الضاجة بالوجوه والأجساد.. يداه ممدودتان فوق المنضدة الفارغة منجذباً الى ألوان بعض اللوحات وأشكالها.. ولكن الموسيقى الصاخبة تعذبه، وأنا تأخرت عليه في بحثي عن سترة مناسبة له تكون سوداء أو نيلية اللون. كنت أتجول بين عشرات الجاكيتات المعلقة على المشاجب.. وضعتُ بين الواجهات الزجاجية التي

كنت أتحاشى النظر إلى انعكاس صورتي عليها . . قائلاً مع نفسي : لماذا لم يكن وجودي هنا ممكناً لولا حدوث هذه المصيبة لي؟ . . وهل من فائدة أجنيها مما حصل ، سوى أنه لم يعد أحد في العالم يكرهني؟ . . حتى النساء اللواتي يخرجن ويدخلن إلى الكنيسة يوم الأحد ، كنّ يسلمن علي بابتسامات عريضة ، وأحياناً يُلوّحن لي بأيدٍ عاريةِ السواعد والكتفين . . أما القس فيحييني بانحناءة خفيفة من رأسه تجعل الصليب الكبير يتدلى من صدره إلى الهواء . . .

نظرتُ إلى ساعتي بعد أن انتهيت من التسوق وعدت للمطعم ، فوجدتها قد تجاوزت الثانية ظهراً . . دخولي إلى المطعم اعترضَتْه حشود البشر الداخلين والخارجين الذين لا يلتفتون إلى شيء . جميعهم يسرعون عند الدخول ، ويتباطؤون عند الخروج . . يكادون يحذفون كل شيء من الوجود ، وليس من السهل إيقاف اندفاعهم من أجل السماح لي بالمرور ، والتوجه إلى الجدار الذي علَّمتُه بإعلان فتى معصوب العينين يهتدي إلى صديقته عن طريق رائحة مسحوق غسيل . . . . . أين أبي . . أين هو . . عندما وصلت ذلك الجدار ، لم أجد أبي في مكانه . . بحثت عنه في المطعم الكبير المزدحم ، ولم أجده . . السؤال عنه بلغة غير

لغتي قد لا يبدو سوى أخرق . . لا أملك سوى سؤال نفسي أين ذهب؟ وليس أمامي سوى الانتظار على المنضدة نفسها التي تجاور جدار إعلان مسحوق الغسيل . بعد قليل جاء وهو مبلل اليدين . . هدأت قليلاً ، ونظرت إلى نعليه ، أسأله :

- أين ذهبت يا أبي؟

قال سمعت صوت الأذان فذهبت أتوضأ . . استغربت كلامه ، ونظراتي مصوبة إلى قطرات الماء التي كانت تنقط من أنفه ، ولاحظ هو علامات الاستغراب والقلق بادية عليّ ، فقال لي :

- لا تقلق عليّ واقلق على نفسك؟
- مم أقلق؟
- من نسيان الله في هذي البلاد .
- كيف سمعتَ صوت الأذان؟

لا يجيب . . فقط أشار إلى الموبايل الذي نسيت أمره ، بينما أحد الجالسين قربي في المطعم يتمخط بصوت عال ، وإذا شاء يمكنه أن يفعل ذلك في المكتبة أيضاً ، هذا ما علمته من ريتا فيما بعد . . وجدت أبي يخرج جواربه من جيبه . . ينظر إليها ، ثم يرتديها . . جلس على الكرسي

يصلي وسط الحشود . وفي العاشرة من صباح اليوم التالي أخذوني مع أبي من المجمّع السكني إلى المسرح الذي أقيم فيه المهرجان .

في المسرح ستائر من القطيفة الحمراء ، وأرضية من الخشب اللامع النظيف مشى عليها أبي بطول فارع ، وقدمين مختلّتين كمن ارتدى فردتَيْن من حذاءين مختلفين . ذلك بسبب الألم الذي كان خامداً فاستفاق هنا . . طلبوا منا أن نجلس في الصف الأمامي ، فشعرت بوجع في رأسي مرة أخرى . وبسبب الإضاءة الساطعة على المسرح غطيت وجهي بكفي مغبة أن يراني أحد .

- ما بك يا بني؟

- لا شيء يا أبي . الضوء الساطع يتعبني . . سأضع النظارات الشمسية على وجهي . .

خنقتني العبرة مع كلمات أبي . . . . قال لي لا داعي لأن تضع النظارات على وجهك يا حبيبي ، أنت ستبقى أجمل ابن في الدنيا . وسيعود وجهك كما كان ، وأفضل بإذن الله . أكمل يا أبي وأخبرني كيف سيعود وجهي أفضل مما كان؟ . . ومتى سيحدث هذا . . ها؟ متى سيحدث وكيف؟ هل سيحدث إذا ما جاءت ريتا واحتضنتني . . أم إذا صعدت

إلى المنصة ، وصفق الجميع لهذا المسكين الذاهب إلى سرير المستشفى . . . . بعد قليل بدأت تلقي كلمتها ، ثم ابتسمت لي بفمها الجميل الذي يجمع بين البراءة والمكر ، وعندما ذكرت اسمي ، اضطرتني للوقوف والرد على تحيتها ، وكف أبي ممدودة إلى كفي . مهموماً يبذل ما في وسعه لكي لا أشعر بالألم .

أطلقتْ دموعي شهقة من الأنفاس ، تلاها تصفيق حاد من الحاضرين . . دخت من كل شيء . . من التصفيق ومن الروائح ومن همهمات النساء المسنات اللواتي لا يعلمن شيئاً عن أحد أسباب البكاء ، وأنا أيضاً لم أكن أعلم بأن التهاب مجرى الدمع في عيوني ، هو الذي حول دمعة تقف على طرف العين إلى نهر من الدموع . أبي احتضن كفي بقوة ، وطلب لي قدحاً من الماء في تلك اللحظة ، وجاءت عجوز اعتذرت ، وسألتني هل أنت على ما يرام؟ ولم أجد حلاً للهروب من كل هذه الجلبة سوى إغماض عينيّ عدةَ دقائق . . . . . بهذه الطريقة فقط أدخل جيب الظلام كما يفعل صغير الكنغر . وفي الظلام الدامس فقط أستطيع أن أُعطّل حواسي كلها فلا أسمع اعتذاراتهم ، أو أرى مسرحهم ، أو أشم رائحة السجاد الشبيهة برائحة المترو والقطار والطائرة . . . . . . فقط لفتَ

انتباهي ، وأنا مغمض العينين ، الكثير من الكائنات الصغيرة البيضاء التي تلتمع في الظلام ، تكبر أو تصغر أو تتحول إلى نقاط حمراء مع بعض كلمات ريتا التي أطفأت نيران قلبي وسورة غضب أبي . .

ريتا : أقول لكم أيها الحضور . . في بعض الأحيان هناك حياة كاملة من هذا العالم لا نعرف عنها شيئاً . . وانا أُسمّي هذه اللا مبالاة بالعنجهية ، وإن ارتدتْ الوجه الإنساني ، وهي ماثلة في الأذهان أمامنا من خلال معاناة هذا الشاب الذكي الأنيق . . وما مر به من تحديات صعبة بسببنا ، وسيظل الأمريكي فاقداً للوعي إذا لم ينتفض غاضباً على ما فعلناه في هذا العالم ، ويتوقف محتجاً مثلي ، ومثل والد هاني الذي رفض القدوم إلى هنا لولا حاجة ابنه الملحة إلى العلاج في مستشفياتنا .

حاولت وصف المستشفى ، مع نفسي ، في كلمات ومشاعر ، فلم تسعفني ذاكرتي إلا بصورة قديمة لسحلية تُخرج لسانها وتصطاد الحشرات ، وبعد أن ينفضَّ الجميع عن المكان ، أظل وحدي بلا كيان تقريباً . . . . . . والقاعة صماء منذ أن يغلقوا الباب . . . . لا أستطيع أن أنصرف مثلهم ، ولا أن أسمع صوت الطيور . . وإنما أستمع فقط ، بين

الحين والآخر ، إلى قطرات ماء متباعدة تسقط في حوض ماء قريب . أو على بالوعة مفتوحة تخرج منها الصراصر والسلابيح . لست على ما يرام . . ولا شيء ينتظرني . . وأنا في مكان غريب . . أنفي لا يزال في مكانه ، وكذلك عيوني وأطرافي الأربعة ، ولكن أذني فقط هي التي تعمل . . ورأسي قريب من رأس طبيب التخدير الذي أسمع صوت قناع أوكسجينه عند سحبه إلى وجهي . . والجميع بانتظار أن أنام .

لنفترض أنه نام . . وفي النوم رأى حلماً يبعث على الابتسام ، وهو أنه رأى نفسه هانئاً كما كان . . جميل الخلقة والخلق والهندام . . فهل نتركه يتجول في هذا الحلم بدلاً من كل هذه التجارب والآلام؟ . . هذا الحديث سمعته في حلم قصير حلمته أثناء فترة التخدير ، ثم استيقظت على شيء أفضل من لا شيء . . على بعض أدلّة على أنني كنت شاباً وسيماً جميل الوجه ، وليس فروة رأس يتفرج عليها أشهر أطباء التجميل ، أحدهم مختص بالخلايا الجذعية ، والآخر بنوع جديد من الكبسولات توضع تحت الجلد للمرضى المصابين بالحروق ، فتنتفخ من تلقاء نفسها ، ثم تتمدد وتضغط على الطبقة السفلى من الجلد ، مما يؤدي إلى توليد

الخلايا الجديدة ، لتصبح نسبة الجلد السليم أكثر من الجلد التالف والمحروق .

طالت فترة بقائي في المستشفى فسمحوا لي بالخروج منها كلما أردت ذلك ، ودلتني ريتا على مواقف الباص الذي يمشي في شوارع طويلة تمتلئ بالفتيات الجميلات . . . . كل شيء يمر أمامي وكأني أراه أول وآخر مرة . . أحياه وأتأمله على مهل بين عمليات كبرى وصغرى يسمونها تجميلاً ، وهي لم تستطع إعادة وجهي الجميل كما كان من قبل ، ولكنها خفّفت آثار التشوه عنه بشكل كبير . وفي الحالين لا أحد يرمقني بنظرات شفقة في هذا المكان ، سوى أولئك المهاجرين الذين يزحفون اليه كالجراد ، ممن لا يفهم أبي تزايدهم المستمر ، ويقول عنهم حانقاً : لماذا حرروا بلادهم من بلاد الانكليز والأمريكان إذا كانوا يطربون للعيش في هذه البلاد؟ وكيف يظنون أنه سيفعل مثل مايفعلون ، فتكون البطاقة الخضراء ثمناً لقتل زوجته ، وتشويه شاب جميل مثل هاني ابنه الوحيد الذي تبقّى له؟ . لا يمكن لهذه البطاقة الخضراء أن تجعل قلبه الحزين أخضر اللون ، حتى وإن كانت إلهاً منزّلاً من السماء .

في يوم الثانكس كفنغ Thanksgiving ، وهو يوم الشكر

الأمريكي ، دعتنا ريتا المصورة إلى بيتها . . دخلتْ وأحسست بأني موجود في عرض مشوق للأعمال الفنية . . داهمتني رائحة الخشب الرطبة ، وتملكتني الدهشة من لطف أثاثها المبطن بأقمشة جميلة ، ومكتباتها الخشبية المليئة بالأفلام والكتب . . أطباق الحلوى مصفوفة على منضدة القهوة . . وأمامنا أشجار عملاقة مع بضعة سناجب تصعد وتهبط على جذوعها . . ووحدها ضربات المنقار كانت مسموعة لأبي الذي كان منتبهاً إليه طوال الوقت . إنه الطائر الذي ايقظنا من النوم في أول يوم لنا في هذه البلاد . .

قالت لنا ريتا إن اسمه نقار الخشب ، وهو ، وإن كان جميل الشكل ، يسبب الكثير من الأذى لإطارات النوافذ التي يشبعها نقراً . . الإضاءة الصفراء الخافتة خنقت أبي ، وكانت توجد داخل الديك الرومي المشوي بطة داخلها دجاجة . . تلك نزعة في الطعام سادت أمريكا في ذلك العيد ، وانتشرت كالنار في هشيم القارة طولاً وعرضاً ، وما اسم هذه المجزرة؟ سألتُ ريتا باسماً ، فقالت :

- Turducken

شرحت لأبي ماذا يوجد داخل الديك الرومي على مائدة الطعام ، ضحك للمرة الأولى مذ قدمنا إلى أمريكا ، وقال

مزحةً ضحك لها الجميع ، بعد أن قمت بترجمتها للحاضرين على مائدة العشاء :

- هذا الثوردكن مثل العراق بالضبط . . لو يشتعل جد جدّه بعد ما يكدر يطير .

أبي الزعلان ، كعادته دائماً ، انفرجت أساريره ، واستساغ طعم ذلك الطبق المخيف ، إلى درجة كبيرة جعلتني استغرب ثناءه على طعام بارد ، لعله لم يتمنع عن الطعام لأنه تذكر ما حصل معنا عندما قدّمت لنا ريتا بعض الحلوى قبل أيام ، وعندما قال أبي لا أريد ، لم تلح عليه ريتا في السؤال . . فقط قالت له شور؟ ، ثم تركته ، وقدمت الحلوى لشخص آخر . حالات جديدة ، وعبارات مختلفة يستعملها الناس أمام أبي ، وأجد من الطريف أنه قد تعلمها ، وطبق ما تعلمه منها في وليمة ريتا بيوم الثانكس كفنغ ، أما أنا فلم أقرب طبق العشاء ، ولم أشرب سوى عصير توت الكرانبري ، مع قطعة خبز صغيرة وسلطة مكونة من ثمرات الأفوكادو والخيار والطماطم .

تلك الليلة أعادت لذهني ذكرى أكبر صينية وضعتْها أمي ليلو على الأرض ، ثم جلسنا أنا وأولاد أعمامي حولها في دائرة كبيرة بحيث تصطدم أيدينا ببعضها البعض ، وأحياناً

تتشابك أثناء الأكل ، فيعلن أبي عن حاجتنا لرجل مرور ينظّم هذا التقاطع في الايدي . . كانت أمنا تُشبّهنا بالقنافذ ، التي لا يخلو الواحد منها من أشواك تُحيط به ، ولكنه لا يحصل على الدفء والسعادة ، ما لم يقترب من أخيه . . وبالتأكيد فإن الجميع كانوا يحتملون وخزات الشوك ، لكي يهجم كلٌّ منهم على حصته من الطعام قبل أن يبرد ، لا لكي يحصل على الدفء من أخيه . . .

أين هم؟ أنا أبحث عنهم ، وعن طعام يتصاعد منه البخار . . يعلو ويهبط من فرط السخونة وكأنه يتنفس معنا . . وحرارته التي تنبعث من الصحون ، كما تقول أمي ، هي التي تجعل الإنسان يشعر بالبهجة ، فيذهب الحزن بعيداً عنه حتى وهو في أسوأ حال . . أمي كانت تجعل رائحة الخبز الطالع من التنور تملأ البيت في كل الأوقات . . رائحة طيبة تجعلنا نتلاقفه من يدها قبل أن يبرد ، وعندما يتحول إلى ثريد منقوع بماء اللحم المسلوق ، فإن أبي لا يأكله بالملعقة ، وإنما يبادله الحُب بالأصابع العشرة .

بعد عيد الشكر الأمريكي ، وما دار فيه من كلام ، عاد وجه أمي ليلو ينزف على كتفي ، وظلت كلمات أبي عن التوردكن عالقة في بالي ، فترجمتُها إلى شعر ، وكتبت أول

قصيدة في حياتي ، كان عنوانها "طاووس" :

لن يمكنك الطيران

وهذا الذيل لك

انشره وتبختر

وتظاهر باحتقار الأجواء العالية

(٥)

رامي وأوفيليا وبينولوب

أسوأ أنواع الزعل هو أن يزعل الانسان مع نفسه ، ولولا الشعر الذي أقرضه لَتفاقم زعلي ، وتوقفت مشاعري الطيبة تجاه نفسي مثل زمني الذي توقف على ظهر هذا السرير . . لم أكن متأكداً من شيء . . . لا يمكن وصف عالمي . . . المسافة إلى الأماكن تطويها المواصلات ، أما المسافة بين البشر فلا تقربها سوى الكلمات ، فما أصعب النطق بالكلمات على مخلوق مثلي ، نصفه يائس ، ونصفه فنان يحفر في زاوية من رأسي ، ويقتحم ذلك الجانب الآخر من

اليأس . . .

أوفيليا . . أوفيليا . . أوفيليا .

سمعتني الممرضة أصرخ في نومي . فجاءت وقالت ما الأمر؟ فقلت لها حضرتِ في موعدك بغاية الدقة ، إن الحزن قارس ، وقلبي متعب عليل .قالت هل ساد الهدوء أثناء الليل؟ قلت . لم تتحرك فأرة واحدة . قالت إذن طاب مساؤك . أراك صباحاً .

- من هي أوفيليا؟ كنتَ تصرخ باسمها طوال الليل .

الممرضة سألتني في الصباح ، بعد أن فتحتْ باب غرفتي ، وقالت لي أجلس هنا لكي أرتب لك الفراش . . . أوفيليا تقف في مقدّمة السرير ، وتحتلّ معظم الصورة بينما يدها تستريح على حافة السرير لكي توازن نفسها قبل أن تسقط في الماء . وهناك شخصان يظهران في الخلف . إنهما ينظران من زجاج نافذة الغرفة ، ولا يبدو أنهما يدركان أن المرأة ذات الرداء الأزرق ماضية إلى مصيرها .

تداخلت الأفكار في رأسي ، مثل كومة الأوراق والصحف والكتب التي تكدست على منضدة الطعام . . كلما دخل عليّ أحد وجدني آكل منها . . وأقلب أفكارها في رأسي . . بل وأرى أوفيليا هي نفسها الممرضة التي رتبت لي السرير ،

ثم أعطتني الصحيفة التي شتمهم فيها أبي شتيمة يسمعها كثيراً هنا . . في الحوار أسئلة كثيرة وجواب واحد . . . أبي متاكد من شيء واحد . . إنهم لا يبالون بنا ، ولا يحترموننا ، وكل ما عدا ذلك هو تمثيل وأكاذيب . . وفي جواب من تلك الأجوبة شتمهم باللغتين العربية والإنكليزية ، وقال للصحيفة الأمريكية الشهيرة التي روَت قصة بلادهم التي حررت بلادي :

«كافي عاد تحرير وكذب . مو دمرتوا حياتي وعائلتي كلها بيوم واحد . نزلتُ من السيارة لأنها تعطلت على غفلة . . أرتدي قبوطاً أسود اللون ، وعندي لحية سوداء . . . ولهذا السبب ضربوني وحرقوا سيارتي ، وكَالولي العفو اشتبهنا بيك وتصورناك إرهابي . . والله من دا أنعل ابوكم يابو اللي جابكم علينا . . فك يو» .

خطية أبي . . يريد نسيان ذلك اليوم الأسود ، ولكنهم يعيدونه إلى ذاكرته وذاكرتي في كل يوم ،من خلال ندوة عامة ، أو حوار صحفي ، أو احتفال موسيقي لجمع التبرعات . . هههههه . . لقد خلقتُ جواً ثقافياً حيوياً هناك ، حتى بين الدبلوماسيين الذين يهتمون فقط بالكتب السياسية ، ها هم يقترحون عليّ قراءة بعض الروايات الرومانسية لتحسين

لغتي الإنكليزية ، والتخفيف من أوقات الانتظار الطويلة في المستشفيات . . والحمد لله أنني سمحت لهم بذلك ، وإليهم جميعاً أرفع شكري وتقديري ، فقد أصبحت أقرأ الكثير من الروايات والمسرحيات الإنكليزية ، وبعد أن كنت لا أعترف بأس التملك أو أس الجمع أو أس الشخص الثالث ، أصبحتْ لغتي الإنكليزية متقنة ، وعليّ أن أتحقق وأتكيف مع عالمي الجديد . . إنه جميل ومحير . . . وتلك الكتب جعلتني مثل طفل صغير يتتبع عازفاً متجولاً منكوش الشعر . يذهب من بيت لبيت ، ومن شارع لشارع ، طالباً النقود نظير فنه وألحانه . .

حرصت على سماع تلك الألحان في الكتب التي عرّفتني بأنه لا فرق كبير هناك بين ما أراه بعيني أو بخيالي ، وكأنني أدخل دار السينما بدون أن أبارح مكاني ، وأعيش مع شخصيات مرهفة موجودة على الورق ، وعندما أمرّ في عوالم كُتّابها الذين وضعوا لها أسماء مثلنا وصفات مثلنا ، فإنها تترك في نفسي لمسات ساحرة . . غير مفتعلة . . لا تتغير على مر الزمان . . أشعر بأن كل شخصية ليست صورة أجنبية تماماً عني ، بل أتخيل بيتها هو بيتي ، والشارع الذي تسكنه هو شارعي ، ومكانها هو مكاني ، وحتى عندما

تصعد إلى الباص ، فإنني لا أتخيل سوى باص الطلاب ، أو حافلة المنشأة التي تقلنا من الفلوجة في بغداد . . أشعر بأن الصور كلها تُمثلني وتعبّر عني ، وأن الحدود بين صورة وأخرى تتلاشى عند القراءة . . . ولا يوجد حد فاصل بين أن تكون هذه الصورة حقيقية ، أو وهمية تجعلني أتنقل بين مكاني ومكانها الافتراضي المديد الذي لا أول له ولا آخر ، فرامي مثلاً فصلوه من العمل قبل قليل ، لأنه لم يكنس الشارع جيداً ، وترك الأوساخ مكومة على قارعة الطريق . . مسكين رامي . . فعلاً مسكين . ماذا يفعل؟ قال للمراقب بأن نظره ضعيف ، ويحتاج إلى نظارات طبية ، ولكن المراقب لم يصدقه ، وفصله من العمل . أمر مؤلم حقاً .

مع الاسف لم أتمكن من حضور حفل موسيقي ، حضره الضابط الكبير ديفيد دونالد الذي زارني في المستشفى مرتين ، وأردت أن أشكره على وقته الذي بذله في القيام بذلك ، وجلب العديد من الكتب عن رامي وأوفيليا وبينلوب . . وبعض كتب الخيال العلمي أيضاً عن الأخ الأصغر ، والأرض المسطحة ، وآلة الزمن ، وحرب العوالم ، وجزيرة الدكتور مورو . . التقينا ضابطاً أمريكياً آخر رفيع المستوى في حفل استقبال آخر أقيم لنا في جامعة هارفرد ،

وكان معي أبي الشاعر عبد اللطيف . قال له ذلك الضابط ، بعد الاعتذار طبعاً ، مع الأسف يا سيد عبدول أن يترك بغداد الكثير من النخبة بسبب ظروف الحرب ، فأنا قد تعلقت بها ، وأعتز جداً بهذا الرباط الإنساني الذي يدل على أنني قد نفذت الى روح هذه المدينة القديمة ، وتناجيت مع تاريخها العريق وشخصيتها الرومانسية التي تجمع بين الفلسفة والخيال . . تمام . . قال أبي بلسان حاله . . هه . . تمام وربي تمام . . أنتم تحبون بغداد بدليل إنكم أحرقتموها . . لو كنتم تكرهونها ماذا كنتم قد فعلتم . . أرسل أبي نظراته إلى زاوية جانبية من عينيه ، بينما الجنرال يواصل :

- لقد استشهدتُ بابنك اليافع هاني أمام ابنتي سوزي التي تدرس اللغة العربية في صف جامعي لغير الناطقين بها في أمريكا ، وتعاني من صعوبات جمة في تعلُّمها ، وقلت لها إن تعلّم العربية في مرحلة الجامعة ليس صعباً كما تظنين ، ولكنه يتطلب الحب للعربية كما في حالتي ، وحالة السيد هاني الذي بدأ يكتب الشعر ، وهو في أوائل العشرين من عمره .

كان الضابط حاداً في كل شيء . . في بياضه ودقة أنفه وطريقة كلامه . . وعندما يتحدث فإن تفاحة آدم ، وهي

تتحرك ، تكاد تثقب جلدة عنقه بطرفها الحاد المدبب . . طلب مني أبي ، بعد أن انتهى الضابط من خطبته الترحيبية تلك ، أن اترجم له قصة ستكون طويلة نوعاً ما . . أنا متأكد أنها طويلة . . . أعرف قصص أبي جيداً . . والتوقيت غير مناسب للقصص ، وليست لي رغبة في الكلام ، وبدون الحاجة للتوقع ، فهذا ما حدث فعلاً عندما قال أبي للضابط الذي نسيت اسمه : إن العربان كانوا يغطون في نوم عميق ،أو منشغلين بتناول الثريد والكبسة ، عندما تسلل سرب من طائرات الـ(أف ١٦) يقودها طيارو النخبة في سلاح الجو الإسرائيلي مخترقين أجواء ثلاث دول عربية دون أن تكتشفهم الرادرات العربية الغبية ليصلوا الى قلب بغداد ، ويلقوا قنابلهم الذكية على مفاعل تموز النووي العراقي ويحوّلوه الى ركام ، ثم تعود طياراتهم أدراجها إلى إسرائيل دون أن تعترضها طائرة أو تُطلَق عليها رصاصة واحدة .

ابتسم الضابط الأمريكي ، وهز رأسه موافقاً ، فقال أبي الذي ازدادت حماسته :

- «بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد»

أعرف أبي جيداً . . إذا انتقد أحدٌ ما صوت ثلاجته العراقية ، اعتبر ذلك إهانة شخصية له ، فكيف إذا كان الأمر

يتعلق بالعدوان على العراق ، ثم احتلال العراق ، وتدمير مصانع العراق ، ولم أجد طريقة أفضل لتغيير أقاصيص القنابل والصواريخ والتصنيع العسكري ، سوى الحديث عن التوردكن الذي أكله أبي في يوم عيد الشكر الأمريكي على مائدة عشاء ريتا المصورة . . يبدو أن عقلي أراد أن يلقي قنبلة أخرى بهذا الانتقال المفاجئ الذي أوحى للضابط بمعنى مجازي معين ، فما كان من الجنرال إلا أن رفع كأسه وضحك بشدة ، وأضاف تطبيقاً مجازياً آخر :

- There is another masacre called Pigcowturducken which means chicken in a duck in a turkey in a pig in a cow , ha ha ha. What do you think of this?

(٦)

التحفة والبستان

أما وقد أصبحتُ كالتحفة هناك ، يتفرج عليها الناس في المزادات الخيرية ، أو في قاعات المسارح الموسيقية ، فقد جعلني ذلك أشمئز من تلك الحفلات بدلاً من حب التواجد فيها . . رائحتها دائماً تذكرني بأنني موجود في المترو أو القطار أو الطائرة . . أي في المكان الخطأ . . أو في رمال متحركة تبتلعني . . وبالتأكيد أن جميعهم يعتذرون ويشعرون بالحرج من بلادهم التي تسببت بنيران الحريق التي تركت آثارها على رأسي وجبهتي وأطرافي .

يقول أبي . . ليش صافن؟ فأَنتبه إلى أنني شارد الذهن فعلاً . . وأنني قد رحلت عن العالم فترة من الوقت لا أدري أين أصبحت فيها . . أين أنا يا أبي؟ كم الساعة الآن؟ هل هو الفجر أم العصر؟ تاه علي الوقت بسبب مكوثي الطويل في المستشفى ، وتهت أنا عن أي شيء محدد كنت أحبه في الحياة ، فأصبحت كشخص مفقود لم يعد له وجود في عالم زاه وقديم هو الطريق الى المدرسة ، لا المدرسة نفسها . . أنادى فيه الجميع بأسمائهم ، وهم كذلك ينادونني باسمي ، وعندما أنتبه من سرحاني أسمعهم يعتذرون . . الأطباء والضباط الكبار وعامة الناس ، ومع ذلك ظل أبي رافضاً لفكرة البقاء هناك ، قائلاً إن العدل إذا لم يأخذ طريقه عبر القانون ، سيرون كيف يتحقق عبر التمرد والمقاومة . وقد يكون معه حق في الكثير مما يقول ، فالتهذيب يمنعهم من قول ما يفكرون به أحياناً ، وفكرتهم أو نظرتهم عنا قد تندرج فيما يسمونه هم أنفسهم بالستيريو تايب ، أي صورة الإرهاب النمطية عن العرب والمسلمين . . صورة مهما تغربلت ، فلا بد أن تبقى بعض الشوائب عالقة فيها .

في طفولتي أعتدت أن أرى أمي قد جعلت من بيتنا جنة لا نأكل فيها شيئاً من خارجها ، فكل شيء موجود عندنا ،

في بستان صغير ملحق بمنزلنا ، وتُسمّيه أمي بالبَقجة ، من الكراث والنعناع والحبق وحتى الباذنجان والبطيخ والخيار التعروزي واللوبياء والفلفل الأخضر ، نأكلها هشة نيئة وأحياناً بدون غسلها بالماء ، أما البيض فنلتقطه بضاً رقيق القشرة من أقنان الدجاج ، وننقله مباشرة إلى المقلاة وقت الفطور ، وقد نشرب معه الحليب الذي يأتي ساخناً من ضرع البقرة أول أن تحلبه أمي في دلو الحليب . . الثمار الغضة تسقط من الأشجار الكثيرة التي تنبت حولنا في كل مكان ، فنمتص من الكمثرى عصيره الرقراق بأفواهنا ، وتطبخ أمي في قدرها أنواعاً مختلفة من الخضروات التي تولد وتكبر وتنضج أمام أعيننا . كنت أيضاً أرى أبي يذبح الدجاج أمام عيني في باحة الدار التي كنا نسميها بالحوش . . تلك الباحة التي تتقدم كراج البيت ، تحتلها الطيور والكتاكيت وأنواع مختلفة من الدجاجات ، وعندما أرى الدماء تجري فوق صبّتها ، ثم تختلط مع الماء في مسيل واحد ، تشمئز نفسي من هذا المنظر المخيف ، وأهرب من رائحته الحادة التي تشبه الصدأ إلى مكان بعيد عن الحوش والمطبخ ، حيث لا أرى قدر الماء فوق الصوبة ، وهو يغلي وبداخله الدجاجات المذبوحة ، أعلم بأن أمي ستنزع ريشها من الجلد المهترئ ، وتنظفها لتصبح جاهزة للطبخ ، أما الريش فلن يرمى إلى الزبالة ، بل سيُغسل

ويجفف في الشمس بما فيه الكفاية ليكون صالحاً للحشو داخل أكياس من الخام تستعمل كوسائد للنوم .

في يوم من الأيام حدث ما لم أتوقعه أبداً ، ولم يغب رعبُه عن بالي على الإطلاق . . كان لدينا ديك لطيف حسن الصوت والشكل ، وله خيلاء أيضاً ، ومشية منتظمة الخطوات كمشية العسكر ، وفي وقت من الليل يصفق بجنحيه ، ويهتف بصوته العالي ليجعل الليل يشرق عن فجر جديد ، وهذه الصفات جعلته مميزاً في نظري ، بل صاحب شخصية قوية شأنه شأن مدير مدرسة . في البداية مسكه أبي من جنحيه ليمنعه من الرفرفة ، فظننته يحاول نقله إلى مكان آخر ، وعندما سدحه مكتوف الجنحين تحت قدمه وجر رقبته إلى الطابوقة التي شحذ عليها سكينه ، بقيت لا أتوقع أن أبي سيقوم بذبحه ، فكيف يجرؤ أحد ما على ذبح مدير مدرسة؟؟

الديك المعد للذبح كان يرفس ويتحرك للحفاظ على حياته ، وحتى بعد أن ذبحه أبي ظل يتحرك ، ويركض في حلاوة الروح عدة لحظات . . اصطدم بعدة حواجز وأغراض متروكة في الحوش . . الديك يركض بدون رأس . . وأنا يكاد أن يُغمى عليّ . . أدركت في تلك اللحظة فقط أن

اللحم والدم والعظام هي طعام البشر . . وإنتهى هذا المشهد المرعب بأمر أغرب حدث على مائدة الطعام . . فبعد الذبح والسلخ والدماء التي سالت ، رأى أبي شعرة من رأس أمي في طبق الديك المسلوق ، فأرعد وأزبد وعافت نفسه طبق الديك الذي ذبحه بيديه قبل ساعات . تلك الشعرة جعلت أبي يعيد ويحكي ما جرى على مائدة الطعام عدة مرات . . وينسى حكاية الديك الذي فرفحت روحه من الألم . . ذلك كله تذكرته عندما سألوني في المستشفى عن الطعام الذي أريده لليوم التالي ، وهل أحب أن يكون من الدجاج أو اللحم الحلال؟ ، أخبرتهم بأني نباتي ، ولا أتذوق أي نوع من اللحوم . . وكانت النظرات التي واجهوني بها غريبة بعض الشيء ، وكأنهم استغربوا ، بدون أي صوت أو كلام ، كيف يكون المسلم مرهفاً إلى هذا الحد؟

مضى أسبوعان أو أكثر لم أفتح فيهما البريد الإلكتروني . والبارحة بالذات فتحت إيميلي لتدقيق أمور الفواتير والمواعيد . . وبالصدفة رأيت إيميلاً في الإيميلات لم أحذفه بالرغم من كونه قد ذهب إلى السبام . العنوان ضوء في الحديقة . التاريخ ٢١ آذار ٢٠١٠ :

«أنا بخير والحمد لله ، وكما تعلم من يعيش في العراق

يغرق بانشغالات كل يوم من نواقص البيت وبعض احتياجاته . . ثلاجتنا تعطلت وتبهدلنا ثلاثة أيامٍ بين المصلحين ، وبعدين بدّلناها . . يا سبحان الله دائماً عَطَلات البيت تتجمع في وقت واحد . . مرة الكهربائي . . ومرة السبّاك . . ومرة سمكري السيارة . . وهذا اليوم جاء الفلاح منذ الصباح الباكر ، ولم يكمل عمله إلاّ بالحادية عشرة . . وعندما أخرجت له الفطور كان منهمكاً بالعمل فأكلتْ القطط فطوره ، واضطُررت لعمل الفطور مرة أخرى مع إضافة بعض قطع الطماطة لتعويض النقص في فطائر اللحم التي أكلَتْها القطط . هذه التفاصيل تجعلني لا أفضّل سكن الشقّة على سكن البيت ، لأن البيت يوفر لي كل المزاج الذي أحتاجه لشرب كوب الشاي والنظر من النافذة وتأمُّل روعة الحياة خارجها ، والأهم من ذلك كله الاستماع الى زقزقات العصافير في الحديقة» .

لم أعرف من كتب لي هذا الإيميل الجميل . . . . ولم يكن من المفروض أن أفتحه ، لأنه كان في خانة السبام . .

(٧)

ليس الحزن عذراً لأي شيء

عندما قررنا العودة من أمريكا إلى العراق في نهاية العام ٢٠١٠ ، طلبت من أبي الإقامة في بغداد ، وعدم العودة إلى الفلوجة مرة أخرى ، فوافق ، ولا أدري بالضبط ما هو الشيء الذي جعله يوافق بدون تأخير ، لربما كان أذان الظهر القريب ، أو أصوات قرع باعة الوقود على قناني الغاز أو فوق آنية الحديد . أو لربما لكي يبتسم لي الحظ فأصبح قريباً من جانو . .

ذكّرني أبي بأنه سيتركني في أقرب وقت ويذهب للفلوجة ،

وبأن هناك أمراً علينا القيام به عند أول زيارة لي للفلوجة . . سألته ما هو هذا الأمر؟ فقال سأخبرك به عندما يحين الوقت . أبي كان يريد أن يرسم على وجهي الابتسامة ، وأن يعوضني ببغداد عن كامبردج . . ولهذا لم يلح على عودتي للفلوجة ، بل ذهب وترك سجادته مستلقية فوق ظهر الكرسي ، لتذكرني بأدعية يرددها ، بعد كل صلاة ، على الكافر الظالم ، الذي دمر حياته وسلب منه سعادته وسعادة ابنه في يوم واحد . الغريب ولسبب لا أفهمه ، كنت كلما أردت الذهاب للفلوجة ، تتأجل الزيارة أو تتعثر . . وكأن القدر كان يستجيب لرغبتي بعدم المرور مرة أخرى من حاجز الدم والنيران .

عثر لي بشق الأنفس على بيت يقع قرب المقبرة الملكية . والبيت هو المكان الذي يخلد فيه الإنسان إلى الراحة والحنان ورائحة الطعام الزكي . . ولكنّ هذا البيت المرتجل لم يكن يعني لي أكثر من مكان للنوم في ساعات الليل . . طابق علوي يربطه بالشارع درج حديدي يصعد إلى سطح تم تقطيعه إلى غرفتين ومطبخ وحمام بطريقة عشوائية وبشعة . . في مغسلة الحمام توجد فوهة دائرية تحت حنفية الماء وظيفتها امتصاص الماء في حالة امتلاء المغسلة ، ولكنها كانت سوداء اللون . . وتختصر الحالة الرثة التي كان عليها ذلك البيت .

بدون أمي معنا ، يجب أن أقوم بنفسي بتحويل البيت إلى مكان قريب الشبه ببيتنا النظيف في الفلوجة . شمّرت عن أكمامي ، وغسلت سطح الشقة وسُلّمَها ، ثم غسلت بلاط الشقة وزجاج النوافذ بالماء والصابون ، وبعد ذلك اكتشفت أن ترتيب الأعمال لم يكن صحيحاً ، إذ كان عليّ أن أغسل النوافذ أولاً ، ثم أغسل بعدها السلم والأرضية والجدران . المهم أن هذه الصحراء قد امتلأت برائحة الماء ، وتلاطمت فيها أمواج المياه ، دون أن أقصد بالطبع إيذاء مشاعر صاحب البيت ،هههههه وعندما طلبت منه تغيير الحمام بالكامل ، لم يوافق على أن نقوم بإجراء أي تحسينات على المشتمل ، أو طلاء الغرف بلون جديد يخفي علامات الوسخ والرطوبة ، إلا بعد أن تأكد من عدم استقطاعنا لكلفة التصليحات من إيجار البيت . .

- أكليت؟
- رجعيت؟
- نجحيت؟

بتلك الكلمات كانت تحادثني أمي ليلو حتى بعد أن أصبحت في سن المراهقة . . وأبي كان يريدها الكف عن تدليلي بهذه الطريقة الأنثوية التي جعلتها تمتنع عن قص

ظفائري حتى سن متأخر من طفولتي . لم يكن لها ولد غيري ، وقد جعلها هذا تنادي زوجها باسم واحد ، وابنها باسمين . الأول اختاره أبي ، وهو هاني ، والثاني اخترعته هي لي بعد أن سمعت من أحد ما قوله بأن مناداة شخص باسم جديد يساعد على إصلاحه ، وفعلاً عندما نادتني أمي بذلك الاسم الجديد للمرة الأولى وقف على رأسي الطير ، وأصبحت شخصاً آخر غير ذلك الطفل المشاكس الذي يتحرك كالزئبق . . ويضرب بالمقلاع الزجاجات والوجوه والأطباق . كل كلمات النصح والتهذيب لم تفلح معي ، فلما نادتني أمي باسم آخر نجح الأمر . .

آدم هو الاسم الجديد الذي نادتني به ، ومن حيرتي كنت أبقى واجماً خائفاً لا أعرف ماذا سيحدث لي ، ولماذا تناديني أمي بأسم مختلف ، ولما عادت بعد فترة قصيرة تناديني باسمي الحقيقي هاني ، كنت قد تحولت إلى فتى هادئ الطباع ، لا يعرف الهمّ أو الغمّ ، إلى أن أقبلت أختي رقية إلى الدنيا ، وبلغتْ من العمر سبعة أعوام ، فضاع كف دميتها ، ولم تعثر عليها أمي في أي مكان يمكن العثور عليه داخل البيت . . ولا استطاع حضنها الحنون منحها الحياة ، كما منحني الحياة حتى داخل سيارة محترقة .

لم يمكث أبي في بغداد طويلاً ، وعاد إلى بيتنا في الفلوجة

قائلاً لي إن الحرب التي تنتهي بترقيعات عشوائية ستعود في أية لحظة ، وإنا أريد العودة للبيت لأرى ماذا سيحدث وأحيط علماً بكل شيء . أما أنت فابق هنا في أمان إلى أن يحين الأوان . افتتحت محلي الأنيق الذي صار ، داخل المنطقة وخارجها ، فرجةً للعالمين . . فديكوراته بيضاء اللون ، وفيه أكثر من جهاز استنساخ متطور ، وأهم من هذا وذاك صاحب المحل الذي يلفت أنظار الناس إليه أكثر من نظرهم إلى الأوراق التي بين يديّه . . الأسباب كانت كثيرة ، فما خلا وجهي الغريب ولساني العربي الذي يرطن بلغة أجنبية ، ليس من المألوف أبداً أن يأكل واحدٌ منهم طعامه بالشوكة والسكين ، أو أن يكرر كلمات الشكر والاعتذار لهم بعد كل عمل يقومون به . . . . أهل الزقاق يواصلون فرجتهم على هذه الأنتيكة العجيبة وتصرفاتها الغريبة ، إلى أن اعتادوا على ذلك الاختلاف ، واعتدت أنا أيضاً عليه ، بل أصبح هذا الاختلاف هو من أعز الأشياء إلى قلبي .

علمتني العثرة ، التي أسقطتني ، النهوض ثانية والاستقواء على الطريق . الصفر صار بقربه رقم واحد ، ولم يكن ممكناً لليأس أن يتحول إلى حالة من الانبهار بنفسي ، إلا بعد أن وجدت الآخرين ينبهرون بها . المفروض أن يقلب هذا اليأس

حياتي رأساً على عقب ، ويجعلني لا أجد من حولي شيئاً يستحق الحياة ، وكاد هذا أن يحدث فعلاً في البداية ، لولا مساعدة الأطباء والممرضات في المستشفى الأمريكي . . إذ كانوا ينقلون لي ، بالعدوى ، تفاؤلهم الذي يشع من وجوههم وقلوبهم ، فكان من غير الممكن أن أدع اليأس يسيطر عليّ وأنا داخل هذه الهالة المشعة من الأمل . . قاومته ونفضته من رأسي . . وكم كان من الصعب على فتى في العشرينيات من عمره أن يستعيض بالجوهر عن المظهر . . كما كان صعباً تحويل ذلك اليأس إلى قوة إيجابية ، لولا الكثير من الأسباب ، ومنها الجملة التي كان يرددها أركان مع كل اتصال هاتفي لي في أمربكا :

- الله ربك* .

في بانيو الحمام . . أو في سريري . . أو في حديقة المستشفى تتشتّت أفكاري ، وتصبح كل واحدة منها في مكان . أرى في الهواء من حولي مخلوقات بالغة الدقة والصغر . . بعضها أليفة وأخرى غريبة . . جميلة أو بشعة . . وهذه المخلوقات أشعر بها جزءاً مهماً من تفاصيل المكان الذي أنا فيه ، أعرف أنها تخوض معركة صعبة ولا تنتهي من أجل الحياة ، وأنا أيضاً لا أملك خياراً آخر إلا أن أخوض

هذه المعركة ، أن يكون لي دور فيها حيث لا يمكنني التوافق مع مظهري ، ولا التصالح مع الكثير من المزايا التي وجدتها من حولي ، إلا من خلال طريق ما ، غير اليأس أو الموت . . وكان هذا الطريق هو تقليب الكثير من أوراق الكتب التي كان صديقي الضابط ديفيد دونالد يبعثها لي .

كنت أسجل في دفتر صغير كل كلمة جديدة أقرؤها أو أسمعها . . ومع مرور الوقت أستغرب تسجيلي لكلمات صعبة في البداية ، وأصبحت الآن تنطلق فواحة من فمي كعلكة بين فكَّيْ طفل . . الأزمان أصبحت تجري تلقائياً على لساني بعد أن كنت أعاني من التفريق بين الماضي البسيط والماضي التام ، أو بين الحاضر البسيط والحاضر المستمر . . . والعجيب أن هذه اللغة جعلتني في علاقة قوية مع بنات أمريكيات في مثل عمري ، لم تتحول أيٌّ منها إلى علاقة حب ، ولكنّ أجزاءهن المثيرة كانت تمنحني ارتعاشات لذيذة تعوضني عن الحب قبل المنام . . يعقبها إحساس طاغ بالعدم . . يستدعي الغطس في بانيو الحمام . . أو الوقوف تحت رشاش الماء ، لمواجهة نفسي ، وأن أرى ، وأنا داخل الماء ، تلك البقايا من تفاصيل ما حدث .

يتدفق الزمن بكل طاقته ، ويحرك الروح فينا بكل طاقتها ،

ولكن هذه الحركة الهائلة سرعان ما تركد منها تفالة الأسى . وبالشعر فقط كنت استطيع قطف المعنى من هذا الأسى ، وإدراك غربتي عن ذاتي من خلال وجهين لمطلب واحد . . أنْ أكون أو لا أكون . .

- الله ربك .

- الله ربنا كلنا .

طبعا أركان لم يكن يقصد من كلامه سوى أن يغبطني على كثرة النساء . . وقد بعث لي برسالته الأخيرة عبر الماسنجر وقال لي : يجب عليك ، بصفتك صديقي في الخارج ، أن تجلب لي هدية نجاحي في الدور الثاني . . عيب عليك اذا لم تجلبها . . أُريدها إما عطراً أو موبايلاً غالي الثمن . أما بصفتك رجلاً يعيش في الخارج ، فيجب أن ترسل لي صورك مع أكبر عدد ممكن من النساء ، وإذا رجعت للعراق ، ولم تجلب لي الهدية أو الصور ، فلا تخابرني . . .

- ألا زلت طالباً يا أركان؟ ، دبلوم معهد التكنلوجيا مدته سنتان ، وأنت صار لك أربعة أعوام . . مو صارت قصة عنتر؟

- عنتر هذا لا يريد أن يكون مسّاحاً للأراضي وإنما لأشياء أخرى .

ـ   يا معود دفضها واتخرج .

ـ   وكيف أترك كل هذه الأجساد التي تهتز مع كل خطوة إلى أمام . . . تكاد الأزرار تتفتق والسروال يتمزق ، وأنا أجيل النظر في المساحات التي أقيسها ، واسترق نظرات للخط الفاصل بين الجنتين خلال احتضان ميزان المستوى الأفقي فوق الحامل الثلاثي . .

أجهل تماماً ما يفكر فيه الناس ما عدا أركان . . فهو نقي السريرة ، طيب القلب إلى حد كبير ، كل ما في الأمر أنه استطاع الباءة في وقت مبكر جداً ، وأخذ يحدثنا عن مغامراته تحت اللحاف وفي الهواء الطلق ، حيث كان بإمكانه بلوغ النشوة بالفرجة فقط ، وكان ، من أجل ذلك ، ينجذب إلى أي مكان فيه بنات . . وبمرور الوقت اكتشفت أن أكثر الناس يحبون الجلوس في المكان نفسه سواء في غرف الطعام أو في غرف الجلوس . هناك المنطوي في الطرف البعيد ، وهناك الحباب في الطرف المحشور أو الضائع ، وهناك عقيد القوم في صدر المجلس ، وهناك أركان الذي يجلس على الحافة متأهباً للنهوض في أية لحظة ، إنه كالطفل الباهش ، يرفع تحفة ثم يضعها في مكانها ، يخفض ثم يعلّي صوت التلفزيون ، أو يظل في رواح ومجيء بين المطبخ والهول ، وهو

الذي يختض ويهب واقفاً لفتح الباب ، إذا ما قُرع الجرس ، عسى أن يكون القادم آنسة أو سيدة . .

أركان صديقي لا يفكر إلاّ بالنساء ، وأنا لا صديقة لي في أمريكا سوى المصورة ريتا التي لا يوجد مثلها في العالم ، وتعرف أيضاً بعض الكلمات العربية التي تلفظها بشكل جميل . . وبتلك الكلمات تحثني على الاحتفال بكل شيء ، وبعد كل عملية تُجرى لي كانت تأتي لي بالورد أو الحلوى ، وعندما تتحسن صحتي كنا نتواعد في الكافيهات القريبة من المستشفى ، أو بجوار الشقة التابعة للكنيسة ، كما ودلتني على مكان في المجمّع نضع فيه النفايات في حاويات خاصة لإعادة تدويرها مرة أخرى ، القناني في مكان ، والورق في مكان ، وبقايا الطعام في مكان . علمتني أيضاً الطرق المختصرة بين البيت والمطاعم ، وكانت تلك الطرق تمر عبر فناء الكنيسة التي يتجول فيها رجل داكن السمرة يحييني بابتسامة على الدوام ، وعدا تلك الابتسامة لا يظهر على وجهه أي تعبير . .

قبل الكرسمس بأيام رأيته يحمل رزمة من الأوراق أعطاني واحدة منها . . وهو يبتسم عن أسنان بيضاء مصفوفة بشكل جميل :

- صباح الخير . قد تكون مهتماً بهذه المسابقة .
- أية مسابقة؟
- مسابقة تقيمها الكنيسة عن أعمال لم يسبقك إليها أحد؟

الوقت مبكر ، ولم أتناول فطوري حسب تعليمات الطبيبة التي أرادت إجراء فحص دم روتيني لي ،ومثل هذه الفحوصات كنت أجريها حتى بعد الخروج من المستشفى . . ولم أستطع الإبقاء على تلك الورقة في يدي بسبب المطر ،ومشيت طوال الطريق وأنا أفكر ما هي الأعمال التي لم يسبقني إليها أحد؟ سرقت الحلوى من حانوت المدرسة؟ أكلت ورق عنب نيء بسبب الجوع وقت الحصار ، دخنت السكائر مع أصدقائي في المدرسة ، تلصصت على بنات الجيران النائمات فوق السطوح ، كلها أعمال لا تحشرني مع السباقين المغامرين . . حدث ذلك في ثالث عام على قدومنا إلى أمريكا ، وكان يسمح لي الأطباء بالخروج من المستشفى عندما تكون هناك فترة نقاهة بين عملية تجميل وأخرى .

في طريق العودة من مختبر الدم إلى البيت رآني الرجل الداكن مرة أخرى ، ها ، قال لي ، ألا تنوي الاشتراك في مسابقة الكنيسة ، هناك أعمال لا ترضي الرب يا بني ، مثل

تشرنوبل وهيروشيما والحرب التي أشعلناها في بلادكم، ونحن نريد أن نشعل شمعة في هذا الظلام.. فقد كاد الأشرار أن يطفِئوا شموع الرب.. هل تظنها عقيمة هي هذه المسابقة؟.. قلت لنفسي: لو قلت له بأني قرأت الإنجيل في المستشفى، هل سيكون ذلك من الأعمال التي لم يسبقني إليها أحد، أو مما يساعد على إشعال شمعة في الظلام؟.. كان الكتاب موجوداً في جيب جانبي من الكوميدي المجاور للسرير، فتحته فوجدت أوراقه رقيقة جداً، وتشبة تلك الأوراق الشفافة التي تُلف بها القمصان الجديدة داخل باكيتاتها.. بدأت بقراءة الكتاب الذي تتكرر فيه كلمة لورد كثيراً، وعندما جاءت ريتا وسألتها ما معنى كلمة لورد قالت إنه الرب، وبايبل الذي بين يديك هو الإنجيل المقدس بحسب متّي.. وهناك إنجيل بحسب مرقس، وبحسب لوقا، وبحسب يوحنا، هل ترى كيف هو الوضع يا هاني؟.. نعم أرى، بدليل أنكِ لم تصوريني، وأنا أحمل الإنجيل، كما توقعت.. وعندي سؤال آخر يا ريتا.. أبي دخل في تلك اللحظة فتوقفت عن الحديث...

على مائدة عشاء الكرسمس طرحت على ريتا سؤالي، قلت لها بأي واحد من الأناجيل تؤمنين، قالت لي كومن

هاني . . آي دونت بيليف إن أني وان . . آي دونت إيفن كو تو ذي جرج . . لم أجد ما أرد به عليها سوى الصمت مرة أخرى ، وما لم أملك كلاماً ذكياً أقوله ، فمن الأفضل أن لا أبدو في غاية البلاهة ، وأن أسلك انعطافة جيدة لمسار آخر أخبرها فيه بأي شيء يخطر في بالي ، حتى وإن كان لقائي برجل الكنيسة الذي حدثني عن مسابقة (العمل الذي لم يسبقك إليه أحد) . قالت ريتا إنها تعرف ذلك الرجل . . إنه يتيم من الصومال تربى في الكنيسة .

- ما به يا هاني؟

- طلب مني المشاركة بمسابقة العمل الذي لم يسبقني إليه أحد .

صرخت ريتا :

- هل سمعت يا هاني بقصة الملك الأثيني الذي حاصر مدينة لوكونوس؟

- لا لم أسمع؟

- لقد أرسل لأهل المدينة رسالة يقول فيها :لو احتللنا لوكونوس ، سنقتل رجالكم ، ونستعبد نساءكم وأولادكم ، نسلب ونحرق المدينة . . فماذا كان جواب المدافعين عن المدينة؟

- لا أتوقع سوى أن يكون الرد قوياً .

- فما رأيك أنهم قد بعثوا له الجواب بكلمة واحدة فقط . وقالوا : (لو)!!

- لو؟

- هههههه ، نعم . . قالوا له (لو) . .

- ما أبلغَ هذا الجواب . .

- ولا تعرف أبداً ماذا كان ينتظرني هناك في المدينة المحاصرة تحت سريري ، والتي لم أمد يدي إليه منذ سنوات ، ولو لم أضع جزدان نقودي ، لما رأيتها قط؟ فهل تتخيل ماذا رأيت فيها عندما دخلت إليها بعد زمن طويل؟ وجدت عشرات الكائنات الضبابية المحاطة بأنسجة شفافة من التراب المحمي بالتراب ، وهذه الكائنات تنتشر داخل إسطبل من أرامل ويتامى الحشرات ، وأجنحة الصراصر المجففة ، وبعض فردات الأحذية والجواريبات المتيبسة . . هناك أيضاً كرة ذهبية ، لم تعد ذهبية بالطبع ، يبدو أنها قد تدحرجت من شجرة كرسمس قديمة جداً . . وماذا أيضاً؟

صمتت قليلاً تحاول التذكر ، ثم قالت :

- ها تذكرت . . وجدت كف دمية مقطوعة قد ضاعت

مني منذ عشرين عاماً . وهي الأخرى قد أحاط بها غشاء كثيف من الغبار .

. . . .

- ماذا تظن يا هاني؟ هههههه أليس هذا عمل لم يسبقني إليه أحد؟ ألا ترى بماذا يمكن أن يتعثر المرء (لو) فتش في رأسه . . سيتعثر بكل هذه الأحافير التي وجدتها تحت سريري .

ضحكت ثم قالت تشدد مرة أخرى على الكلمة :

- لو؟

يا للغرابة ، ها نحن نصبح في قلب واحد وطوق واحد مرة أخرى . . فأختي رقية قد فقدت أيضاً كف دميتها ، وأمي مدت ذراعها لكل ركن مظلم ولم تعثر عليها ، وأنا الذي عثرت عليها بعد فوات الأوان داخل مهدها المتروك فوق سطح المنزل . . مددت يدي إلى المهد الفارغ ، ولم تكن فيه سوى تلك الكف . واستطاعت ريتا أن تذكرني بها . . وان تستخرج بكلمتها (لو) شيئاً من الظلام . .

الجلوس على مائدة العشاء يعني رائحة البطاطا المهروسة بالزبدة ، مع بعض الصلصات التي تسميها ريتا بالديبس ، وهي الغموس المكون من اللبن الرائب والراشي وبعض

المطيبات . . وبعد العشاء استمعنا للموسيقى الراقية التي عزفتها ريتا على البيانو الموجود في هذا المنزل . . يداها طويلتان . كل واحدة في مكان على أصابع البيانو . . وأخوتها مجتمعون في لمة جميلة سحرتني . . تبادلنا الهدايا ولعبنا جميعاً لعبة تعتمد على المعلومات من خلال الإجابة على الإسئلة . . . . كما قدمت لي قدحاً من الشمبانيا ، قائلة إنه لا يُسكر . . لِذتُ بالصمت وقلت شكراً . . قالت ريتا شكراً نعم أم شكراً لا؟ شعرت باضطراب كبير . العالم يتحرك وأنا ساكن . . العالم يغني وأنا صامت . . والصمت داخل الغناء ليس كالصمت داخل الصمت . . فالثاني جميل ، والأول محرج . . لم يعد الحزن عذراً لأي شيء . والكلمات التي أفكر فيها يجب أن أنطق بها ، وأخرج بها من العدم إلى الوجود ، فمددت يدي وأخذت القدح الذهبي .

- هاني ابتسم أخيراً ويجب أن نعرف السبب .

كانت ريتا تصورني من الهولوين وحتى الكرسمس ، والمفروض أن أفتح فمي ، واتحدث اليها عن سبب أي شيء أفعله ، ولكني كنت أسكت أكثر مما أتحدث ، وأحاول تحاشي النظر إلى كاميرتها منذ التقينا في المستشفى ببغداد ، وحتى تجاوز الوقت الثانية بعد منتصف الليل في ليلة

الكرسمس ، والآن ابتسمتُ ، لنفسي تقريباً ، وسألتني ريتا عن سبب ابتسامتي ، فقلت لها أنا سعيد بسبب المقطوعة الموسيقية التي عزفتِها ، ما اسمها؟ قالت إنها من أوبرا عايدة للموسيقار الإيطالي فيردي . ريتا تخلت عن كاميرتها ، ثم جلست على أريكة جميلة اسمها السوفا . . كل يد من يديها على طرف بعيد . . وهي في المنتصف . . ليس هناك ألوان فاقعة ، ولا ورود هائلة الحجم أو أغصان عملاقة . . فقط زهرات صغيرة منثورة على فستانها الأبيض ، والذي يمكن ، في حالة خلعه ، جمعه في قبضة اليد .

كانت جالسة والباقي وقوف . . اقترب مني أحدهم وسألني :

- وأنت من أين؟
- من العراق .

وطبعاً اعتذر الجميع ما أن سمعوا باسم العراق ، وهذه المرة شعرت بشيء من القوة ، لأني كنت مستعداً للحديث بعد أن أجبت وقلت إني من العراق . . قابلت نفسي بنفسي ، وتدفقت الكلمات في بالي كالسهم المنطلق من مكان مجهول . . هل هو مفعول الشراب ، أم أن ريتا تفعل الأعاجيب عند استخدامها كلمات عربية من بلدان مختلفة . . إنها

ستجعلني أشعر بـــ (الانبساط) كما تقول بلكنة جميلة . . ريتا عندها الانبساط فعلاً . . وعملتْ المستحيل في تلك الليلة من أجل أن تجعلني أشعر به . سألني ضيف آخر في مرة أخرى :

- لكن ماذا يعني اسم هاني؟
- يعني أنه سعيد (لو) أراد .

ضحكت ريتا بقوة لأنها الوحيدة التي فهمت قصدي ، أووووه طبعاً . . لو . . . ثم ضحك متواصل . . وكان الثلج يسقط بغزارة ، والألسن ثقلت بعد أن كانت تلهج بالطرائف والمماحكات ، فعل الويسكي مفعوله بشكل عات ، والشمبانيا بعتوّ أقل ، بدأت ريتا تضع يديها حول عنقي ، وتطالبني بالرقص معها ، فارتج بها الخمر لتُعطي أكثر مما توقعت . وأصبحت تعليقاتها جريئة عليّ أو على أي صديق مشارك في حلقة الرقص . وبارتداء الجميع معاطفهم السميكة ، وقفتُ أنتظر ريتا كما طلبت مني . . وبعد أن خرجوا عادت تترنح في مشيتها ، ثم مالت علي وقبلتني عند الباب ، تلوّت شفتها لينة داخل فمي مثل قطعة مارشميلو ، فالتهمتُها ، وذهني يستعيد باباً آخر انحشرت بينه وبين امرأة أخرى أربكت أحوالي ، وجعلتني أحترق دون أن أتحول إلى

رماد . . وهذه المرة ريتا الثملة تغني وتقبلني بفمها العبق برائحة الشمبانيا والبيرة . . هي تهجم ، وأنا أحترق مرة أخرى وأشتعل ، دون أن أفهم كيف أعيد كل شيء إلى نصابه . . شعرت بجسمها يكويني من الحرارة التي كانت تتسرب من وجهها وبطنها وصدرها . . سحبتني إلى غرفة نومها ، ورمت بنفسها على الفراش . . تعانقنا وتشابكت أيدينا ، حتى أصبحت عارية من فستانها الأبيض الذي انزلق بلمسة واحدة ، ولكن جرس موبايلها انطلق ، فنقلني من الالتحام إلى ورق الجدران ، وأغطية الفراش الموردة التي كانت تعبر عن ذوق رفيع . . . الجرس جعلها تستفيق ، وجعلني أعود إلى ما كنت عليه قبل تلك اللحظة . لقد طلبوها في المستشفى لأمر طارئ يتعلق بوالدها المريض .

(٨)

هاني يضحك

ريتا تعتذر على الدوام ، وهذه المرة اعتذرت بسبب القبلة ، التي أثارها السكر ، والعناق الذي أشعله رجل أسمر موجود في غرفة مبعثرة مليئة بالقوارير الخضراء والأجساد اللبنية . . كانت حمرة الخجل تلون وجهها ، وهي تعتذر عن تلك القبلة الساخنة التي كوتني بها قبل العناق ، فقلت لنفسي ، وأنا لا أعرف كيف أردّ عليها ، لم يحدث شيء يستدعي الاعتذار يا ريتا ، بل يوجد ما يستدعيني شكرك على ما غمرتني به من إحساس جارف بالمتعة . .

خيرتني بين الذهاب الى عرض موسيقي عنوانه لايف ستوري في البرودواي ، وهو ميوزكال عن بعض الأصدقاء الذين افترقنا عنهم ، أو عرض لأوبرا ريغوليتو الشهيرة ، وهي من الماستر بيسس للإيطالي فيردي ، صاحب أوبرا (عايدة) ، التي عزفت ريتا مقاطع منها ليلة الكرسمس . .

تواعدنا في صالة قريبة من المسرح تقدم المشروبات الساخنة والباردة . .

أرشدتني ريتا لكيفية الوصول الى مكان اللقاء عبر خريطة المترو . . وأول ما خرجت وجدتها واقفة عند أعلى السلم تصورني ، "هاي هاني . . لا تمانع طبعاً أن أفعل ذلك" ، وظلت تصورني حتى بعد أن جلسنا الى منضدة الكافيه ، بانتظار الذهاب لحفل أوبرا (ريغوليتو) :

- واو . . اُنظر إلى نفسك . أنت تبدو في غاية الأناقة .
- شكراً لك .
- هل تعلم بأني اردت الاتصال بك لإلغاء الموعد؟
- لماذا؟
- بسبب العارض الصحي الذي ألمّ بأبي .
- يمكنك أن تعودي الآن . المهم . . .

- لا تكمل يا صديقي العظيم . .لن ألغي الموعد . . . . . هو الآن على ما يرام . فهيا إلى القهوة .

- ماكنة القهوة معطلة . .

- إنها ليست معطلة يا هاني . . هل أضع لك كيس الشاي؟

- لا ليس الشاي .

- سو وج وان .

. . . .

- هيا تحدث يا هاني . كوفي لاتيه؟

- لا .

- كوفي أسبرسو؟

- لا .

- كابتشينو؟

- يس . . ثانكيو .

- هل نتناول وجبة خفيفة أيضاً؟

- هل لدينا وقت؟

القهوة في يدها ، والموبايل في اليد الأخرى ، قالت :

- أوه كود . . أنسر ذس دام فون .

- بمن تتصلين؟

- اوه يا إلهي! إنه لا يرد؟

- بمن تتصلين؟

- وهذه السلسلة اللعينة قد تلوثت بالقهوة؟

- هلا أجبتِني يا ريتا ماذا جرى؟ من هو هذا الذي لا يرد؟

- إنه أبي . . أردت الاطمئنان عليه . . قد يحتاج الى شيء معين ، ولكنه لا يرد .

- أقول لك شيئاً . لماذا لا نلغي هذا الموعد؟

- بئساً لك من هارب هكذا على الدوام . . اشتريت التذاكر بشق الأنفس . . ها هو يرد . شكراً للرب .

- الرب بعث لنا مطراً غزيراً . وقد ينزل الثلج .

- هل يضايقك هذا؟

- قليلاً .

- نحن على ساحل الأطلسي ، وإذا وجدتَ المطر عائقاً ، فلن تخرج من البيت لثلاثة أرباع العام .

ـ وهذا ما أحبه . أن أظل في البيت ، وأرى المطر من نافذة علوية .

ـ معك حق ، فلولا الخوف الذي يبعثه فينا المطر حزناً على أهل العراء ، لقلت إن رائحة المطر يجب أن نشمها متى ما نريد ، وصوته يجب أن يُدرج ضمن المخدرات الرقمية التي تستعمل في مشافي الطب النفسي .

ريتا بعد انتهاء العرض قالت لي : إن أوبرا (ريغوليتو) مُعدّة عن مسرحية للكاتب الفرنسي فيكتور هيجو عنوانها الملك يلهو . . وقد أستغرق تأليفها أربعين يوماً فقط في فورة من فورات الطاقة والعبقرية للموسيقار الإيطالي فيردي . . كان قد أصر على احترام كل العناصر الرئيسية في مسرحية هوغو مع عمل بعض التعديلات الطفيفة التى تضمنت تغيير شخصية ملك فرنسا إلى دوق مجهول لمقاطعة فى شمال إيطاليا . كما أصر على الاحتفاظ بشخصية المهرج الغريبة مما أثار دهشة المؤلفين الذين لم يعتادوا على رؤية شخصيات غير تقليدية فى أدوار رئيسية أو محورية . صحيح أنها مسرحية ميلودراما ورومانسيات عن العشق والتضحية والغدر والخيانة في بلاط الدوق المستهتر ، ولكن أن يكون محورها هو المهرج ريغولتو كان أمراً مقصوداً لانتقاد المجتمع المخملي في ذلك الوقت .

قلت لها : لم أهتم بمتابعة أي شيء من الأحداث . . إنما انشغلت بعبقرية الغناء الأوبرالي ، وانسيابية الأصوات والألحان . . . فكنت أتنقل بين مشاهد القصر والحانات مأخوذاً بعظمة هذه الأصوات العجيبة التي لا تتعب ، والموسيقى التي تثير الرغبة في السمو المطلق . كيف يا ترى استطاع هذا المؤلف الانتقال بموسيقاه بين شخصية وأخرى ، وكيف حوّل المواقف والمشاعر إلى موسيقى وأصوات شجية . إنه عظيم بالفعل .

بعد خروجنا افترقنا أنا وريتا عند أرصفة المترو . . انطلقَ صوتها مع التفاتتي ، وقالت تصورني :

«لوّحَ هاني للكاميرا وهو ينزل السلم إلى باطن الإرض» . .

تركتْ ريتا فجأة كاميرتها ، وزاغت نظراتها إلى مكان آخر . .

- إلى ماذا تنظرين يا ريتا . ما لذي تراقبينه؟
- أنظر إلى الوادي .
- أي وادي؟
- وادي مدينة المترو .

التفتُّ إلى حيث تنظر ، فلم أجد أحداً سوى رجل مقعد

ينتظر في نهاية السلم الذي يقود إلى طابق سفلي آخر يمكن الهبوط إليه بواسطة المصعد الكهربائي .

- ما به وادي المترو؟
- مليء بالشعاب والظلام .
- هههههه . أتمنى أن لا أضيع في هذا الظلام
- لن تضيع أنا متأكدة . . لديك خريطة جيدة .
- باي ريتا .
- باي .

المشاعر نفسها في المترو قبل أن يأتي القطار . . أنا الآن أنتظر المصعد . . تأخر المصعد . . . . فهل هو معطل مثل ماكنة القهوة؟ إنها غير معطلة يا هاني ، والمصعد أيضاً غير معطل . . وساعدتُ الرجل الذي يجلس على الكرسي المتحرك في الدخول إليه . . كان المصعد بلا أرقام . . وله باب لا ينفتح . . وقفت انتظر انفتاحه ولم ينفتح ، حتى بعد وقوفه في طابق الرصيف الذي أريده . مد الرجل المُقعد يده ، ونبهني إلى أن للمصعد بابين ينفتحان على الجهتين ، وعليّ الاستدارة إلى الجانب الآخر لأرى الباب الآخر الذي انفتح من الجهة المقابلة . .

عندما اصبحت مطمئناً بأني في المكان الصحيح بدأت

الانتباه الى التفاصيل ، لا أستطيع أن أفعل ذلك ، وأنا متوتر أو خائف أو ضائع . . وكلما قلت لريتا بأني اشعر بالضياع ، ضحكت قالت هل أعطيك المزيد من الخرائط؟ إنها محطتي في إيليا إذن . . ولا يوجد أمامي سوى الانتظار . . ويمكنني خلال ذلك الانتباه لملابس الرجل المقعد الذي كان يملك شعراً كثيفاً نظيفاً ويضع سماعة في أُذنيه . . نعم هذا ما أريده دائماً . . أن أكون في مكان أكيد ، أنتظر شيئاً أكيداً ، وخلال ذلك الانتظار فقط يمكنني الاستمتاع بباقي التفاصيل . ليس فيما يدور من حولي فقط ، ولكن حتى ما سبق منها ، فعندما كنت أجلس مع ريتا في المسرح . اكتشفت بأني لم انتبه إلى أحداث المسرحية ، ولا إلى فستانها ، ولا إلى شكل شعرها ولا إلى ملامح وجهها ، مما يعني أنني كنت قلقاً طوال الوقت بانتظار أن أخرج من المكان . . أخرجتُ بطاقة المترو من جيب السترة ، فخرجتْ معها صورة قديمة لي مع أمي . . لم تكن لدي سوى هذه الصورة عن وجهي القديم ، قضيت مراهقتي في فترة الحصار بين تسعينيات القرن الماضي وبدايات هذا القرن ، وقلة من الناس كانوا يمتلكون النقود لشراء الكاميرات ، أو التقاط الصور . . . . . حتى إذا أمطرت الدنيا بغزارة في الشتاء ، لم يكن يقدر أحد على أن يرفع مظلة في طريقه للبيت أو للعمل ، وبعضهم كان

ينشر تفالة الشاي المستعمل على السطح من أجل تجفيفه واستعماله مرة أخرى ، فكيف يكون لديه النقود لشراء الكاميرا أو التقاط الصور؟ . فقط أصبح بإمكانهم الذهاب للجامع وسماع صراخ الشيخ عن العورات . . . . . هذا ما فعله الحصار بالناس ، ثم جاءت الحرب وزادت الطين بلة .

أعدت صورتي مع أمي إلى جيبي ، وهي الصورة التي طلبها مني الأطباء في البداية للمساعدة في إعادة وجهي الى ما كان عليه . . ولا أدري لماذا وضعتها في جيب بدلة جديدة ارتديها للمرة الأولى . . . . الجميع صعدوا للخروج وأنا نزلت . . وهناك كان المكان مظلماً للغاية . . وشديد البرودة . . وعندما اشتدت حلكة الليل في الخارج ، كنت أشعر بذلك الظلام بالرغم من كون المحطة مضاءة بمصابيح صفراء . اكتشفت أن الوقت متأخر إذ تجاوز الثانية بعد منتصف الليل . . أصبحت وحدي على الرصيف مثلماً كنت وحيداً داخل المول والمستشفى . . اختفى الرجل المقعد أثناء انشغالي بالصورة التي عثرت عليها في جيبي . . شعرت بأني قد وصلت إلى المكان الخطأ ، وبدأت أتوتر . . أبحث هنا وهناك عن شخص يكون داخل المحطة ، أو يأتي من خارجها ، اختفت جميع التفاصيل من حولي بسبب القلق . .

حتى سمعت صوت امرأة تصرخ . الصوت كان مخنوقاً ولم يتكرر . . وأنا يجب أن لا أتدخل حسب ارشادات الكثيرين وأولهم ريتا . .

- ساعدوني رجاءً .

عاد الصوت مرة واحدة ثم انكتم مرة أخرى . . تلفتُّ إلى مصدره ، فكان يأتي من الصوب الآخر لأخدود القطار الذي أسمته ريتا بالوادي . . مشيت باتجاه الوادي لكي أعبره . . ورأيت زاوية تقع خلف سلم حديدي من سلالم الحريق . . هناك سمعت صوتاً لرجل يحاول إسكات المرأة . . نبهني أركان ذات يوم الى أن عضلاتي تشبه عضلات المجذّفين في السفن الفينيقية التي نراها في الأفلام ، وهذا تأتّى من عملي الطويل في كبس الاخشاب مع خالي النجار . . خطواتي لم تكن مسموعة بسبب زمجرة قطار يقترب من المحطة أو يدخل إليها . وبعد أن مر القطار عبرت الأخدود العميق ، ولم أحسب حساباً أن يأتي قطار آخر وأنا في هذا القاع السحيق . . تورطت بحماقتي وشعرت بالرهاب . . هل يمكنني أن أجثو وأتمدد إذا ما جاء القطار؟ . . جعلني هذا الإحساس اهتاج واتسلق الرصيف المقابل بسرعة مثل غريق يصعد نحو اليابسة . . وبدون أن أفقد زخمي هجمت على

الرجل الجاثم على أنفاس المرأة . . دفعته بعيداً . . ولكمته عدة مرات في رأسه . . ظهر جهازه التناسلي من سرواله المفتوح . . فرفسته هناك رفسة قوية جعلته يركض لا يلوي على شيء . المرأة التي نهضت في الظلام كانت ضخمة ، ولها بطن تشبه الهضبة ، . قلت لها :

- هل أنتِ على مايرام؟

لم أكن أعرف كيف تعرضت هذه المرأة ذات العضلات القوية إلى هذا الموقف الغريب . . ولكنها أكدت لي بشكل قاطع بأنني قد خلصتها من خطر داهم ، وغلطتي الوحيدة فيما حدث هنا ، كما فكرت ، هو أن موقفاً كهذا كان يجب أن لا يمرّ هكذا . . بل بانفعالات أقل وبدون تهور . أما أنا فأعطيته ما يحتاج من الاهتمام ، مع بعض تفصيلات أرويها لريتا ، واستغراب شديد أن لا تكون هناك مقاومة من الرجل لي ، بحيث تمكنت منه بكل سهولة ، وهنا طرأ على بالي سؤال آخر جعل الهواء يتحشرج في صدري . . ويجب أن أوجهه لطرف يعنيه أمري . .

- هل هذا تدبير منك يا ريتا؟ .

- لا يا هاني . طبعا لا . . كيف أُعرّضك لمثل هذا الخطر ، ولماذا؟

- لا أدري . قد تكونين فكرت بهذه التجربة لإصلاح شيء ما .

- لا يا هاني . أنت مخطيء . . أؤكد لك ذلك .

بذلت ما في وسعي لكي أصدقها . وفعلاً استطاعت اقناعي ، وذهب عن نفسي كل إحساس بالسوء في يوم اوبرا فيردي ، وفي يوم الذهاب إلى نيويورك كنت سعيداً . . ريتا ما أروعها . . ظننتها في البداية مصورة مزعجة . . تسللت من خلفي إلى كل مكان ، وهي الآن تجعلني أشاهد كل شيء . . من التايم سكوير وحتى السنترال بارك . . وبين منطقتي مانهاتن وبروكلين قطعنا المسافة بقطار مترو يمتد في أعماق مياه الإيست ريفر الذي يصب في المحيط الأطلسي ، صعدنا إلى المركب وشاهدنا من بعيد تمثال الحرية الذي كان مغلقاً من أجل الصيانة . . فوق المركب التقانا شاب من صفحة على الفيس بوك اسمها هيومنز أوف نيويورك ، كان طويلاً جداً ، كالعقعق ، وظل يتقفاني على المركب . . وسألني إن كان بإمكاني أن أروي له قصة تستحق أن تروى . . فصفحته مهتمة بالقصص الحقيقية التي يرويها الناس في شوارع نيويورك . . هذا أمر عظيم يا هاني . . يا لها من صدفة جميلة ، قالت ريتا . . هذا الموقع يروي قصص

الناس في المدينة ، وقليل من الناس يعرف قصتك ، فهيا تحدث واخبره بقصة وصولك إلى هنا . . عطر الصابون تضوع من وجهها عندما عدلت لي ياقة قميصي بيد ، وكاميرتها في اليد الأخرى .

هاني رفض الحديث .

فكرتُ في النهاية بأني يجب أن أقنع ريتا بأن تكف عن حمل كاميرتها ، وان تكتفي بالجزء الذي صورته في الطائرة ، وعرضته يوم المهرجان ، وأن لا تواصل تصوير فلمها ، أو نشره . ضربتني على كتفي ، وقالت لي . . لماذا تقلب حياتك إلى دراما من طراز رفيع يا هاني؟ . لماذا لا تنظر إلى الجانب الإيجابي وتتفاءل بالحياة ، أوَ تظن أنني بدون مشاكل أو مآس ، لقد عذبَتْني زوجة أبي وأنا صغيرة ، وكانت تستعرض جسمي بطريقة غريبة لم أكن أفهمها ، ولم أستطع إخبار أبي ، لأنها كوَت كتفي بحديدة ساخنة ، وقالت هذا ما ستفعله إذا ما قررتُ إخبار أبي ، وحتى عندما رآى أبي مكان النار على كتفي ، لم يبلغ الشرطة ، أو يطلقها ، فقط أعادني إلى بيت جدي ، وأصبح يزورني كل نهاية اسبوع . بلا إشفاق مفرط على النفس يا هاني . . ألا ترى بماذا يمكن أن يتعثر المرء (لو) فتش في رأسه . . سيتعثر ويتخبط بمثل

هذه الأحافير التي وجدتها تحت سريري .

كانت قد شددت على كلمة (لو) أثناء حديثها . . صمتت ثم قالت :

- أنا أخص أبي هذا بالتمريض والعناية ، ولا أبكي على الماضي كما تفعل أنت . أنا فقط عندما أدخل بيته ، أسمع أزيز باب بيتنا المزعج عندما ينفتح ، فأتذكر كيف كان يبعث الراحة في نفسي ، لعلمي بأن أبي قد دخل البيت ، وسيتوقف هذا الشيء الغريب الذي يحدث لي . . .

- السلام عليكم .

- عليكم السلام .

- أين أنت يا هاني؟

- مع ريتا؟

- هل وصلت إلى نيويورك؟

- نعم وصلت يا أبي ، ونتناول الغداء .

- سأتحدث إليك لاحقاً . . أريدك أن تستعجل الحجز على موعد لرحلة عودتنا . هل ستتأخر؟

- نعم سأتأخر .

- ادفع ثمن الغداء وكل شيء يا هاني . صير خواردة* مثل أبوك .

لا لا لا . . ليس دفع الحساب هو الذي جعلني أشعر برجولتي ، ولكنها أوراق نقدية تركتها فوق الحساب ، وتلك الأوراق انقسمت نصفين ، نصف جعلني سعيداً لأني فعلت شيئاً من تلقاء نفسي ، ونصف نفش ريشي ، وجعلني أشعر بالتحسن فيما يتعلق بنقصي ، ولم يكتمل هذا الشعور ضد نقصي ، إلا عندما استأجرنا سيارة نختم بها جولتنا في نزهة تحت ضوء الشمس الغاربة ، أنا الذي اقترحت النزهة . . وريتا هي التي دَعتني لقيادة السيارة في ضاحية من ضواحي منهاتن اختفى منها رجال الشرطة . .

قد يبدو الأمر غريباً أني وجدت نفسي في استرخاء وراحة نفسية ، بحيث أُجري تعديلات على قرار أبي ، ولا أتبع تعليماته بحذافيرها . مع هذا لم يفارقني الإحساس بأني مراقب من عيون ريتا ، وبأني يجب أن أبدو أمامها أفضل سائق سيارة تتذكره في حياتها ، وهذا الإحساس أتعبني كثيراً ، وحرمني من تحري الجمال في مناظر الطريق كما ينبغي ، السيارة تسير ، وأنا أواصل أفكاري ، وأحاول أن أبدو طبيعياً ، ولا أستطيع سوى أن أشعر بأني طالب مدرسة لا يرفع يده ، ويتوقع في أية لحظة أن يصطاده المدرس . أصبحت أمام امتحان جديد بعد الامتحان الأول ساعةَ خروجنا من

المطعم اللبناني ، عندما تدافعتُ معها بالمناكب من أجل دفع النقود حتى فطست ريتا من الضحك . . تعلمت أن أضحك معها على نفسي ، بدلاً من أبقى صامتاً داخل الصمت . . ولكن هذا الصمت الذي زجتني فيه قيادة السيارة مختلف عن الصمت داخل الغناء ، والصمت داخل الصمت ، إنه أكثر إزعاجاً ، ولم أتخلص من وطأته إلا عندما وصلنا مكتب التأجير بعد نهاية النزهة ، حينذاك فقط انتهت أزمتي وانفرجت أساريري . .

ذهبت ريتا للحمام ، وتأخرت هناك ، دخلتْ ووضعت حقيبتها معي . . ومضت عشر دقائق ، فأثار تأخرها في نفسي ذكرى حادثة جسّدتها ريتا باتقان ، كل يوم تشكرني على ما فعلتُه مع تلك المرأة في محطّة المترو ، وتُقسم لي بأن الحادثة ليست مفبركة ، فعلت ما بوسعي لكي أصدقها ، ودافعت عنها مرة أخرى أمام أبي عندما رن الهاتف وهي في الحمام . . فقد اتصل بي يستفسر عن وقت عودتي للبيت ، وظل يحذرني من ريتا وينبهني إلى أنها قد تعمل في المخابرات . . لأول مرة حسمت أمري ، ولم أشعر بأني يجب أن أرجع قبل الغد خوفاً من امرأة يظنها أبي عميلة للسي آي أي . . كل أمر أنوي القيام به هو يجعلني أخاف

منه ، ومثلما نجحت في قيادة السيارة ، سأنجح في تسفيه أوهام أبي عن عملاء المخابرات الذين يسرحون ويمرحون في كل مكان . .

- لا تتأخر يا هاني؟

- سأتاخر يا أبي . وغداً سأتفرغ للحجز .

على كَراسي الكافيه الوثيرة سألتني ريتا ، وهي تستعد لكي تصورني ، هل صحيح أن اسم هاني يعني الرجل السعيد؟ ظننته اسماً مختصراً لهاني بال القائد العظيم مثلاً؟ هانيبال الذي أوقع الهزائم المنكرة بالجيش الروماني؟

- نعم يا ريتا . . هاني هو اسم من أسماء الشخص السعيد (لو) أراد .

- هههههههه أعجبني قولك هذا في ليلة الكرسمس . . هذا عظيم يا هاني . . أكمل القصة عندما نخرج . . تحدث أرجوك .

- لا يعجبني الحديث عن ذلك . . تحدثي أنت بالنيابة عني . . ليس لي دور في هذا الفلم .

- ولكنك أنت من كنت في المستشفى ، ولست أنا يا هاني .

هذا دور مفروض عليّ . . ولست أنا الذي اخترته .

- لا أحد يختار دوره ، كل منا يظن واهماً انه يختار أين يذهب .

- وأنا أجلس أمامك الآن بسبب هوية أحوال مدنية ، كنت خارجاً مع أمي لأجل إنجاز معاملة رسمية . . فوصلت هنا دون أن أفهم لماذا حدث هذا من بدايته وحتى نهايته .

- هذا لا يمنع أن نغير أقدارنا عندما نستطيع ذلك .

- اليوم حدث هذا التغيير بالنسبة لي .

- كيف؟

- إني دعوتك للغذاء في المطعم بدلاً من شراء ميدالية على شكل هيكل عظمي أو سحلية . . الجمجمة ستكون هدية لطيفة أيضاً . . ولكن النزهة كانت أجمل .

- هذا عظيم . . تعجبني طريقة التفكير الجديدة هذه . . أريد شيئاً آخر منك .

- ما هو؟

- أن نختم جولتنا بالذهاب إلى صالة الرياضة ، ونلعب الإيروبكس . إنه مفيد للصحة .

سلمنا الموبايلات الى فتاة تجلس قرب أدراج من

الرفوف . هناك رأت ريتا جسمي في المرآة بأجمل صورة ، وأنا أيضاً رأيت جسم ريتا المثير . .ّوتلوى أمامي الوشم الذي كانت نهاياته تبدو من تحت شورتها المشدود حول مؤخرة جميلة لدرجة كاد معها أن يفضحني سروال الرياضة الضيق ، فابتعدت عنها إلى جهاز المشي . .

أحرجتني ريتا بجمال جسمها مرة أخرى ، بقيت أنظر اليها والنشوة تتملكني . . النشوة نفسها التي شعرت بها مع تلك المرأة التي تبدت لي تلالها البيضاء من تحت دانتيل أسود . . يا لملابس النساء ماذا تفعل بالرجال . . سواء كانت قمصاناً أنثوية تشف عما تحتها ، أو ملابس رياضية ضيقة تحقق الغاية نفسها؟! . . . . وبعد انتهاء التمرينات الراقصة ، تركتني ريتا خلفها ، وأسرعتْ تضع عجيزتها على جهاز التجديف . . أما أنا ، فانتبهت إلى نفسي في المرآة ، وانا غارق كالأبله في الأثقال بدل رفع الأثقال ، طوال فترات سابقة من حياتي كنت كلما ضحكتُ في المرآة أحاول إعادة تصميم شكل ضحكتي لتبدو أكثر جمالاً ، أما في تلك اللحظة فقد كنت منتشيا بطريقة لم أتوقع حدوثها ولا في الخيال . . كان يومي سعيداً مع ريتا التي نهضت من جهاز التجديف . . ثم نشفت عرقها بمنشفة بيضاء . قطعت

عليّ حديثي لنفسي وقالت :

- ما رأيك يا هاني بأن تتحدث قليلاً ، وأنت تتدرب على جهاز المشي؟

لم أروِ قصتي إلا لنفسي ، القلب والعقل يستمعان ، أما أن أرويها لريتا أو غيرها ، فلساني لا يطاوعني ، وهنا أنزلت ريتا كاميرتها وقالت لي :

- اسمع هذه القصة جيداً يا هاني ، أنا اشتغلت في الإعلانات فترة طويلة جداً ، وكانت صوري تظهر كل يوم في الجرائد اليومية ، وعلى الصفحات المتخصصة بالعقارات والسيارت ومكاتب السياحة والسفر . . وما أذهلني حينذاك هو أن الناس تنسى الوجوه بسرعة لدرجة أن جيراني الذين يسكنون العمارة نفسها ، لم ينتبهوا إلى أن تلك المرأة التي تظهر في الإعلانات هي نفسها أنا . . وكم كان يزعجني ذلك . . وجهي يمر ثم يمحى من الذكرة ، فلماذا أقاتل إذن من أجل الظهور أمامهم وتحقيق ذاتي من خلالهم؟ . هكذا كنت أنا ، فهل أنت أيضاً تقاتل مغبة إرضاء غيرك .

بكلامها هذا أطلقتْ ريتا سهمها إلى جرحي دون أن تقصد . . فكل الوجوه تمر وتمحوها الذاكرة ، إلا وجه مختلف عن باقي الوجوه . . مشكلة بدأت كبيرة ثم راحت

تصغر ، بسبب العلاجات والعمليات الجراحية ، ولكنها تركت أثرها في نفسي بحيث جعلتني أبحث عن جواب لسؤال ريتا المهم : هل أنا لن أرضى عن نفسي وصورتي حتى يرضى عنها الناس؟ وهل صورتي هذه في عيني امرأة واحدة تحبني ستكفيني ، وتكون كفاف يومي وكل أيامي؟ . . . . البارحة عندما فتحتُ إيميلي لتدقيق أمور آخر موعد طبي احتاجه قبل العودة ، تكرر ذلك الإيميل الغريب في بوكس ايميلاتي . . فتحته مرة أخرى ، ولم أحذفه بالرغم من كونه قد ذهب إلى خانة السبام :

«أنا بخير والحمد لله ، وكما تعلم من يعيش في العراق يغرق بانشغالات كل يوم من نواقص البيت وبعض احتياجاته . . ثلاجتنا تعطلت وتبهدلنا ثلاثة أيام بين المصلحين ، وبعدين بدّلناها . . يا سبحان الله دائماً عَطَلات البيت تتجمع في وقت واحد . . مرة الكهربائي . . ومرة السبّاك . . ومرة سمكري السيارة . . وهذا اليوم جاء الفلاح منذ الصباح الباكر ، ولم يكمل عمله إلاّ بالحادية عشرة . . وعندما أخرجت له الفطور كان منهمكاً بالعمل فأكلتْ القطط فطوره ، واضطُررت لعمل الفطور مرة أخرى مع إضافة بعض قطع الطماطة لتعويض النقص في فطائر اللحم التي

أكلَتْها القطط . هذه التفاصيل تجعلني لا أفضّل سكن الشقّة على سكن البيت ، لأن البيت يوفر لي كل المزاج الذي أحتاجه لشرب كوب الشاي والنظر من النافذة وتأمُّل روعة الحياة خارجها ، والأهم من ذلك كله الاستماع الى زقزقات العصافير في الحديقة» .

لم أعرف من كتب لي الإيميل الجميل . . . . ولم أكتفِ بفتحه ، بالرغم من ذهابه إلى خانة السبام . . بل وجدتُ نفسي ، بدلاً من حذفه ، أردّ عليه . . «آه يا صديقتي العزيزة أو صديقي العزيز . . أنت تتكلمين أو تتكلم عني . . هل أفرح؟ هل يحق لي ذلك؟ أرى ذلك صعباً رغم أن كلماتك تذكرني بحديقة جميلة اتمنى لو أعود إليها فوراً . . لا زالت صفة الجمال جزءاً من حياتنا ، وأتمنى لو أستطيع رؤية هذا المشهد معك . خسرنا أشياء كثيرة بسبب الجوع والحصار ، حتى أنني عثرت على صورة لي بشق الأنفس من تلك الأيام حين أرادها الأطباء مني ، لكن الخوف كل الخوف أن نخسر أنفسنا . هذي هي القضية التي يجب أن تشغل كل واحد منا ، وتحتاج إلى أن يعرفها كل الناس» .

يجب أن لا أخسر نفسي ، هذا صحيح ، لكن قلبي وعيوني في مكان ثان . . يقول أبي . . ليش صافن؟ فأنتبه إلى أنني

شارد الذهن فعلاً . . وأنني قد رحلت عن العالم فترةً من الوقت لا أدري أين أصبحتُ فيها . . كأنني شخص مفقود لم يعد له وجود في عالم زاه وقديم هو الطريق الى المدرسة ، لا المدرسة نفسها . . . أنادى فيه الجميع بأسمائهم ، والجميع يناديني باسمي . يشاركونني كل فرصة من المفروض أن تعاش ، وكل كلمة من المفروض أن تقال ، وكل ضحكة من المفروض أن تنفجر ، وكل هذه الأشياء الجميلة عندما تمر بي أثناء الشرود ، فلكي استرجع قطعة حلوة من حياتي لن تعود ثانية .

- هل كنت تتحدث الى نفسك؟

- كلا .

- إذن لماذا تبتسم؟ دام يو هاني .

ضبطتني ريتا متلبساً بالابتسام . فبدأت تضحك ، وأنا أضحك معها ، ثم جلسنا على جهاز المشي بعد إيقافه ونحن نضحك ، وبقي الضحك يلازمنا حتى بعد أن غيرنا ملابسنا وخرجنا من قاعة الجم . . قالت ريتا تستعيد ما حدث :

- هل تعلم أن الأذكياء يجرون محادثات وهمية في الخيال أكثر مما يجرونه في الحقيقة؟ . .

- وهل أنا من الأذكياء؟

ـ طبعاً يا هاني . . لو درست الفن لكنت فناناً عبقرياً .

ـ ولو عدنا إلى الجم يكون أفضل .

ـ لماذا؟

ـ لأننا نسينا هواتفنا هناك .

غرقنا في الضحك مرة أخرى ، ونحن نعود إلى فتاة الاستعلامات ، وبقينا طوال طريق العودة إلى بوستن نضحك ، وكانت تلك النزهة أفضل ما حدث لي في أمريكا .

(٩)

جانو صرعتِ قلبي

تفاحة خضراء وأخرى حمراء كيف تجعلهما بنفس اللون . . أن تقشرهما طبعاً . . وأنا كنت أحاول تقشير نفسي لتصبح مشابهة لما يمتلكه غيري . . أقصد أني كنت استعيدها لأجعلها غير بعيدة عن هذا العالم الذي أعيشه . . أشعر بأن حياتي مسودة فظة يجري تصحيحها . . وكأنّ ثمة عطراً يجب أن أتبعه حتى تنرسم الصورة بدقة ، وتنكتب بطريقة أخرى غير هذه المسودة القاسية . . سألتني ريتا في المطار عن أمنيتي ، فقلت لها أمنيتي أخاف أن أتمناها

بعد . . فاح عطر النعناع من فمها .

- لماذا؟

- لأنها لن تتحقق .

أمنيتي هي أن أحب . . أحب من؟ . . لا أدري . . لا أستطيع أن أخبر أحداً ، لأني أساساً لا أتخيل أن مثل هذه الأمنية يمكن أن تتحقق . الكلمات تتدفق في بالي دون حساب . دون أن أنطقها ، ومع ذلك عرفت ريتا ما أفكر به ، فودعتني بتلك الكلمات التي قلتُها في حالة انتشاء ليلة الكرسمس . . وقالت لي :

- أنت سعيد ياهاني (لو) أردت . . فلا تدع القلق يسيطر عليك في أن لا يحبك شخص ما ، وافرح بالشخص الآخر الذي يحبك ،

ثم قبلتني ريتا فوق تقطيبة جرح لا زالت ظاهرة فوق جبيني . الدمع يتغرغر في عينيها ، وتهرب منه إلى الضحك والكلام ، حتى أزف الوقت فاحتضنتني وهي تحاول أن لا تبكي . . انفجرت أنا قبلها بالبكاء في النهاية ، ونزلت الدموع بغزارة فوق وجهها ووجهي . قبلتني مرة أخرى فوق خدي ، فاختلط دمعها بدمعي مع عناق أخير منحني كل الراحة والطمأنينة ، ولكنها تعمل في المخابرات ، كما يعتقد

أبي ، وعليه أن يكشف لها بأنه يعرف ذلك ، فقال أبي وهو يصافحها :

- أمنية هاني أن يرجع لبلاد أبيه ، ويشتري التُفْكة .
- وما هي التفكة يا هاني؟
- إنها الاسم القديم للبندقية يا ريتا .
- البندقية ـ قال أبي ـ التي ندافع بها عن أنفسنا ، ولا تجتاز ذخيرتها القارات من أجل تدمير بلدان بأكملها .

أكانت تلك حاجته للعودة حقاً؟ ، أم أنه مصاب فقط بالاكتئاب الذي تبخر ، فور وصولنا مطار بغداد؟ . انفرجت أسارير أبي وأصبح مرحاً يمازح ضباط الجوازات وموظفي الخدمة وحتى العتالين الآسيويين الذي لا يفهمون كلامه ، وعندما تثاءب بصوت مسموع قائلاً كلمة يا الله أثناء التثاؤب ، علمت بأنه سعيد يطبطب على نفسه بنفسه ، وبعد دقيقة واحدة بدأ بفرقعة أصابعه . . شعرت بالاستغراب من خفة في التصرفات طرأت عليه ، فأصبح مرحاً يتنقل من حال إلى حال ، ولم أتمكن من أن أشارك أبي فرحته لرؤية همر أمريكية منقلبة على طريق المطار . . .مردداً مثله الأثير (دفعة مردي وعصا كردي) . . كانت السيارة تحترق ، وتتصاعد منها النيران . . وأنا مشتت مرتبك لا أشعر بأي شيء . . لا الحزن

ولا الفرح . . استيقظ الفنان ، وحفر في جانب من رأسي ، فقال في سري اقتباساً أحفظه :

أسوأ شيء بالنسبة للعجز سكونه
يُعبِّئُك بأكياس من شيء تعجز عن التعبير عنه
إنه حيوان ضخم ، فقط نصف إنسان

بقينا نبتعد عن طريق المطار ، حتى اتخذت السيارة مسارها على شارع الربيع المؤدي لساحة عدن ثم جسر الأعظمية ، ظننت أني سأظل أتوسل لإقناع أبي طوال الطريق إلى بيت قريبنا في الأعظمية بالبقاء في بغداد ، ولكنه كان فرحاً إلى درجة أنه وافق على الفور . . فقط رفع حاجبيه إلى أعلى ، كما يفعل عندما لا يريد أن يأخذ وقتاً طويلاً في التفكير . . ثم أذعن لطلبي قائلاً لك ما تريد . . نفذّت لأبي رغبته بالعودة إلى العراق ، فأصبح ينفذ لي ما أريد ، ووافق أيضاً على فكرة شراء جهاز الاستنساخ بدلاً من السلاح . . وفي مفتاح المحل وضعتُ تنيناً صغيراً أهدته لي ريتا ، مع تذكارات أخرى وضعتُها في الجرار . .

كان أبي في ذهاب وإيّاب من وإلى الفلوجة من أجل أن يطمئن عليّ . . وكان هذا الوضع مثالياً لكلينا . حُكي لنا في المدرسة قصة سلحفاة بطيئة جداً دخلت سباقاً مع أرنب

سريع جداً ، وفازت السلحفاة بالسباق ، لأنها لم تتوقف لحظة ، ولم تنظر خلفها ، أما الأرنب فقطع نصف الطريق ، ثم شغلته الأحداث والمتفرجون ، فظل يتلفت في كل الجهات ، مما جعله يتأخر في الوصول . . . حتى الكتب السماوية تحذر من الالتفات للخلف . . وفي ساعة الصفر تناولتُ هذه الكبسولة ، كبسولة النظر إلى أمام . . وفعلُها مختلف عن الكبسولات التي وُضعت لي تحت الجلد لامتصاص السوائل منه وتحفيزه على التمدد ، درجة التحسن وصلت إلى خمسين بالمائة بعد زراعة هذه الكبسولات وبعض الخلايا الجذعية . ولكن كبسولة السلحفاة التي نظرت إلى أمام كانت هي الدواء الشافي بنسبة أكبر بكثير .

في البدء حذف الحرق كل كياني ، وفي النهاية بدأت أرى نفَساً جديدة عندما سقطتُ من السرير ، ولم يساعدني أحد بكلمات من تلك التي تستعملها النساء للأطفال والبالغين . . الله واسم الله ومحصن بالله . . الأمر مختلف هذه المرة . . فأنا غريب الوجه ، ولكني استطيع النهوض ، وهذا ما تعلمته من أعداء أبي الذين لم يعاملوني في يوم من الأيام كمعوق ، أو إنسان غير طبيعي . وأنا أيضاً من العار أن أستجدي العطف أو الشفقة ، وعليّ أن أعيش حياة طبيعية

أعتمد فيها على نفسي ومقدراتي . متذكراً كلماتي التي كررتها لي ريتا في المطار في أن أكون سعيداً (لو) أردت . . أشعر طوال الوقت بأن هناك من يساعدني ، ويجمعني شتاتي من العدم ، أو يجعلني هاني الشاعر وليس هاني الأمريكي ، أو الغريب . . . اسمي ليس ملكي . . ولا شيء كان ملكي ذات يوم إلى أن ظهرت جانو في حياتي ، وقامت بتغيير كل شيء دون أن أشعر . . .

جانو تقيم في الزقاق الذي أقمنا فيه أنا وأبي قرب المقبرة الملكية في الأعظمية بعد عودتنا من أمريكا عام ٢٠١١ . . عرفت أن المنطقة الغريبة تصبح أليفة بعد أيام قليلة ، وهذا ما حصل لي في ماساتشوستس عندما دوختني ، وظننت أني لن أحفظ اسمها ، أو خارطتها قط ، ولكن ما هي إلا أيام حتى عرفت كل شيء عنها ، وكيف الوصول إلى كل شبر فيها . . والأمر نفسه حدث هناك مع الكتب التي قرأتها ، واقتبست منها ، وهنا مع الاستمارات التي ملأتها ، والأوراق التي ترجمتها ، فكم هو دقيق ، كالشعرة ، الفرق بين الأشياء قبل وبعد أن نألفها .

في بغداد لم يكن أمر الألفة هذا سهلاً . . إذ بقيت عدة شهور لا أخرج من البيت كثيراً ، فلم يحدث أي تغيير مهم في

حياتي حتى جاءتني مسرّة ، وهي عاملة في مجال الإغاثة ، عن طريق السفارة الأمريكية ، وساعدتني على تجهيز محل الاستنساخ والترجمة بأجهزة حديثة . . طبعاً كان هناك الكثير من الشروط والتعويضات والأمور التي جعلت أبي ينزعج من عدم فك ارتباطي معهم ، أو جعلي تابعاً لهم . . لم أكن أشعر بالأسف الكبير لذلك . . ولا أستطيع تحديد مشاعري تجاه أي شيء من حولي ، ولم أجد ضيراً من التعاون مع امرأة جميلة كمسرّة اللطيفة ذات الوجه البشوش والروح المتفائلة الطافحة بالحياة . ومع مرور الأيام تعرفت شيئاً فشيئاً على سكان الزقاق ، وجعلني ذلك المكتب أعرف الكثير من أخبارهم وحكاياتهم المتشابهة سواء بعد الحرب أو قبلها ، وبطرفة عين جاء العام الرابع الذي سمعت فيه بقصة جانو أو جنان مع خطيبها علي الطيار الذي استُشهد في جبال كردستان . .

رأيتها من غرفتي التي تقع في طابق البيت العلوي ، وشممت رائحة بعيدة لتراب مرويّ بماء المطر في حديقة بيتها القريب من الجسر . الحديقة صغيرة وتحيطها المصابيح من كل جانب . . ولأنها مشتعلة وقت الصباح ، فقد جعلتْ الجو الغائم يتسم بشيء من التأسي والكآبة . أصبحتُ أنتظر

أن أراها خارجة كل صباح من البيت إلى سيارة الخط . . أسمع هورن الكيّا العالي قرب الساعة الثامنة صباحاً . . وفي طريق العودة أيضاً أرنو إليها من بعيد ، وهي تهبط منها . . أظل واقفاً قرب باب المحل إلى ان تختفي هي داخل البيت ، وتختفي السيارة عن النظر . .

لا تبتئس

بعدُ ، يا قلبي

الفجر للنعسان ليل

وللسهران زقزقة وضوء

جاءتني جانو تريد السفر . . ولم تنظر إلى وجهي بإمعان . . لم يظهر أي رد فعل عليها . . وأنا للمرة الأولى لم أشعر بالحياد تجاه شخص غريب . . بل أحسست وكأنني أسير داخل حقل معلق بين الواقع والخيال . مثل دمعة واقفة على رمش من رموش العين . أخاف أن يرتعش الرمش وتسقط الدمعة . . أقل الصمت كان في تلك اللحظة أجمل من كل الكلام ، ولماذا الكلام ، والمشاعر وحدها هي التي لا تعرف الكذب . . وهي الأصدق من كل شيء ، حتى أن المرء يستطيع أن يدرك وجود شخص ينظر إليه حتى لو كان يقف خلفه . . وأحياناً يمكنه أن يشعر بمن يفكر فيه ،

بدون حتى أن يكون واقفاً خلفه ، أو قريباً منه . . كأن أرواحنا موجودة داخل روح واحدة بلا بداية ولا نهاية . . وجانو ، أو جنان ، انتقلت اليّ بهذه الطريقة المرهفة . . . . حاسة السمع هي التي تعمل في حضرتها . . وثمة هم ثقيل ، كما يبدو ، يشغلها عن النظر جيداً إلى الناس . . ورائحتها أيضاً كانت تشبه رائحة الأرض بعد المطر ، وليس رائحة الطين المحفور تواً ، والذي صنع منه أركان امرأة الطين في البستان . .

لم تكن لديها قصة معينة كقصص الكثيرين ممن يريدون السفر . . ولكن قصتها هي القصة الأصدق من بين مئات القصص التي سمعتها في أعوام . قصص عجيبة جداً في أوقات عصيبة جداً . لا أدري ماذا حدث بالدنيا . . . الكل يريد الفرار من البلاد . . . الكل يريد ترك جحيم بغداد التي كانت جنة يحلم بها كل قادم إليها من محافظة أخرى . . . . وهذه الجنة تراءت لي في طفولتي على شكل سينمات تعرض أفلام العيد ، وباركات تمتلئ بالمتنزهين من الرجال المتأنقين والنساء السافرات ، وأسواق تعج بالفتيات الجميلات اللواتي يرتدين الملابس القصيرة ، ولا يخشين شيئاً مما يحدث الآن من اختطافات ومعارك لا تنتهي .

أخوة جانو ثلاثة . . وهي آخر من جاءت لي من أجل

السفر . . ليست قصتها هي المختلفة حسب ، بل وجهها الجميل هو أيضاً مختلف عن كل الوجوه التي رأيتها في حياتي . لم يصدمها منظري الغريب ، ولا تطلعتْ الى رأسي باندهاش ، إنما نظرت لي بحياد ، وكأني رجل كباقي الرجال . . وكنت قد عوضت عن غرابة وجهي بمظهر جديد لا أجعله يكسر شوكتي . . عوضتُ عن الإحباط بشعر طويل وملابس أنيقة . . قد يجعلني هذا أفضل وضعاً من رجل جميل لكنه سيِّئ الهندام ، واذا ارتديت نظارة طبية يمكنني لفت انتباه جانو ذات الروح المترامية التي تفيض عبر عينين سارحتين هما المنفذان الوحيدان اللذان يجعلان براءتها تنطلق . . . . إنها تريد الذهاب في بعثة دراسية إلى بربطانيا ، وليس لديها فكرة للهجرة .

قصتها هي القصة المعروفة للجميع . . وقد سمعتها من جيراننا الجدد الذين تعرفت عليهم جميعا . . فهي وعلي كانا في عداد المخطوبَيْن منذ أن كانت في الجامعة . . بيته يقع على مسافة شارعين من شارعنا . . سقطت طائرته في جبال كردستان عند حدوث التمرد الكردي بعد حرب تحرير الكويت ، وانسحاب الجيش العراقي من هناك . . طريق الموت لم يكن على الحدود بين البصرة والكويت فقط ،

ولكن على كل الحدود العراقية من جميع الجهات . . وهناك غابت أخبار علي حتى جاء رجل كردي طيب إلى أبيه بسترته وهويته . . وقال له إنها سترة الطيار الذي مات ودفن في كلار . . أما مساعده فلا زال أسيراً لدى البشمركة . . ذهب الأب ، وجاء بالجثمان ثم دفنه في مقبرة الكرخ ، وكان ذلك اليوم الأسود علامة فارقة من علامات الحي . . هكذا قال لي أهل الحي الذي يذكرون هذا الشهيد بكل خير .

لم يتوقع أحد أن يخط الخطاط لافتة سوداء على ذلك البيت الآمن ، وأن يكون اسم علي بالذات مخطوطاً عليها . . ذلك الفتى الوسيم ذو الخُلق الرفيع والبشاشة الدائمة أصبح من الشهداء . . . . كم مدحه أبناء الشارع وترحموا عليه . . قالوا إن الحياة استمرت في هذا الشارع ، ولكنها فقدت حلاوتها منذ ذلك الحين . . كل واحد منهم يمتلك أثراً من علي . . كل واحد منهم رآه في يوم مختلف . . هناك من رآه يُطعم القطط . . وهناك من رآه يسقط من دراجته . . وهناك من رآه في يوم تخرُّجه من كلية الطيران . . وهناك من رآه يبحث بين المفاتيح عن مفتاح البيت الذي نسي أين وضعه ، وهناك من رآه مع خطيبته جنان ، وهناك من رآه مسجى على مدخل البيت وأبوه يبكيه كما تبكي النساء .

أنا أيضاً تمنيت أن أراه . . . ورحت أبحث عنه في كل مكان من الشارع ، وأنا أفكر كيف أنقله من الموت إلى الحياة . . أردت أن أسمع كل يوم جزءاً من قصة ذلك الشاب الذي أحبته جانو . . ردّدتُ اسمه مع نفسي طويلاً ، واستدرجت الكثير من الجيران للحديث عنه وعن مآثره . . بل فرحت فرحاً لا يوصف عندما عثرت على أكثر من صورة له عند مدرساته في الابتدائية . . تقريباً جميع مدرساته أصبحن من العجائز اللواتي يحفظن له الكثير من المواقف المرحة ، ما عدا فتاة جميلة في منتصف العمر كانت ترفع شعرها دائماً على شكل ذيل حصان ، واسمها تمام ، وهي التي سمعت قبلي تلك القصص من مدرساته في الابتدائية ، بالإضافة إلى مدرسّيه في باقي المراحل ، وحفِظَتْها .

كل واحد من أولئك المدرسين وجد نفسه في حزب معين بحكم الوراثة من أهله البعثيين أو الشيوعيين أو الملكيين . . ولكن الجميع تحول إلى التدين في النهاية . . وهي النهاية التي لم يشهدها علي الطيار ابن العائلة المستقلة والبعيدة عن كل التيارات . عاش طفولته في السبعينيات ، واستشهد في بداية التسعينيات . . أي أنه لم يجد نفسه يتتناقص متراجعاً مع ورقات التقويم الذي انتهى معه الجميع . . كان

من جيل المتمردين التواقين للأجواء العالية والمغامرات الجديدة . . مثقفاً واسع العقل ورومانسياً بالفطرة . . لا ينام القيلولة لأن في النوم مضيعة للوقت . . وعندما قُبل في كلية الهندسة ، سرعان ما تركها ، وقدّم إلى صنف الطيران لأنه يعشق الانطلاق وتجريب كل شيء جديد . .

تمام ، التي ترفع شعرها على شكل ذيل الحصان ، هي التي لديها كل هذه التفاصيل وإن كانت بطريقة مختلفة . . جميعهم يرون في الصورة عليّاً فقط ، وهي ترى الأشجار والبيوت والأزقة وتحفظ أسماءها كلها ، ولا تتفادى أي أذى في الطريق ، يمكن لها أن ترفعه ، أو تجعله في حال أقل سوءاً . عندما التقيتها أول مرة ، كانت تشير إليّ بسباتها ، وكأنها تتهمني بشيء ما ، فزعتُ ونظرت حولي ، فضحكت ، وقالت :

- آسفة جداً أخي العزيز . . أنا أعتذر ، ولكن هناك فوق سترتك الكثير من غبار الطباشير؟

- أنا قد خرجت تواً من محلي الذي لم تنتهِ فيه أعمال الديكور ، وهذا غبار الجبس يغطيني ، وليس غبار الطباشير؟

ضحكت وجرى تعارفنا لأول مرة قرب رفرف سيارة نيسان قديمة . . ولم يسبق لي أن نبذت الخجل والتردد مع

فتاة أتعرف عليها للمرة الأولى ، إلا مع تلك الفتاة المرحة الأريحية التي كانت تنفخ ، عن شعري وملابسي ، بدون حرج ، غبار الجبصين . قالت إن اسمها تمام ، وكانت اسماً على مسمى ، بحيث لا تكتمل قصة الكثير من أهالي المنطقة تمام الاكتمال إلا معها . . ولا يخفى عليها شيء من الأشياء المحتجبة في التفاصيل الصغيرة ، حتى إن كانت غير مرئية للآخرين . . . عندما عرفتْ بأني أكتب الشعر قالت إن الشاعر أو الفنان أو الموسيقي يحس جمال الكون ، ونحن نحس ذا الجمال من خلاله اكثر من أي شخص آخر قد لا نحس معه شيئاً ، أو قد تصلنا الأشياء من خلاله بقشورها ، وليس بحضورها .

قبل ربع قرن من الزمان كانت تمام موجودة عندما كان علي طفلاً ، وكانت موجودة أيضاً في أكثر من محنة عاشها علي ، واستطعت الوصول عن طريقها إلى الكثير من التفاصيل الصغيرة التي منحت قصته مع جانو الحزن أو السعادة . . وهذه القصة لم تكتمل تمام الاكتمال إلا عندما جاءت جانو لتملأ بيانات الفيزة لرحلتها الدراسية التي ستبدأ بعد شهور . . . . فشعرت بأني قد رأيت عليّاً من خلالها . . وبأنها على قدر كبير من اللطافة والجمال ، لأنها أحبت مثل هذا الفتى .

الأفواه ، حسب خبرتي الطويلة بالناس ، هي خير ما يعبر عن البشر . . عن أعمارهم وأخلاقهم ودرجات ثقافاتهم . . ومن نظرة واحدة إلى أفواه المارة استطيع تمييز الطيب من اللئيم . . والمتواضع من المتكبر ، والغني من الفقير ، بل حتى المرأة الرخيصة يمكن تمييزها من المرأة الطيبة عن طريق الفم . . ولجانو فم بريء كبراءة أفواه الأطفال . . أسنانها الأمامية متقدمة للأمام قليلاً ، وعندما تضحك تكبح ضحكتها قبل أن تكتمل . . إنها تريد الابتعاد بتلك الضحكة عمن يحاول الاقتراب منها . . كأنها تقول بأن بالي مشغول ، فإياك أن تقترب مني أكثر مما يجب . . . أنا متأكد أن هذا الابتعاد هو من أجل علي . . أنا متأكد أن ضحكتها التي لا تكتمل هي ضحكة وفاء لعلي التي تمنيت طويلاً أن أراه . . وعادة عندما نتعرف على أشخاص جدد تطغى الفروقات فيما بيننا على التشابهات ، وفقط أولئك الذين سيكون لهم في حياتنا أعظم الأثر ، سنشعر معهم منذ اللحظة الأولى بالتشابه ، وبأنهم توائم أرواحنا . وهذا ما حدث في ذلك اليوم الذي رأيتها فيه أول مرة وشعرت بأنها قد صرعت قلبي فخاطبتُه أقول له :

كيف لا تصرعه لمسة بَرَد ،

قلبك هّذا الأرق من قشرة إجاص

والأنصع من كوفية بيضاء لم تمسسها الأصابع؟

(١٠)

الروح والراعي

جانو هو اسمها الذي أطلقتُه عليها عندما رأيتها في الباص . . وليس عندما جاءتني لمساعدتها في إجراءات التقديم على امتحان الآيلتس والحصول على الفيزا . . الغريب أنني لم أكن أبالي بجعل الناس يسافرون ، ولا أشعر بالأسف حول أي شيء ، إلى ان جاءت هي تريد السفر ، فتغير كل شيء . . علمت من البداية أن اسمها جنان . . وأن عمرها يتجاوز الثلاثين قليلاً . . وعلمت من تمام ، التي ترفع شعرها على شكل ذيل حصان ، أنها كانت خطيبة علي ،

وهذا يعني ، كما قالت ، نقطة قبل انتهاء السطر . .

لم أكن مستعداً لتقبل كلام تمام هذا . . أشعر بأني اريد التمرد عليه ، حتى وإن لم يُفضِ الى نتيجة . . أردت أن أرفع النقطة من نهاية السطر ، حتى وإن اصبحتْ على بعد ألف ميل . . كم أردت ان أجعلها لا تسافر . . كيف يمكنني ذلك ، وهي نفسها لا تريد السفر؟ . . مضطرة إليه لأن الجميع قد سافروا ولم يتبق لديها أحد؟ . . كل القصص كنت أشعر معها بالطبيعي من العطف ، ما عدا تلك القصة التي جعلت قلبي يتقطع وينزف دماً . . كان المفروض أنها الآن تعيش في كنف زوجها علي . . تُحقّق كل أحلامها القديمة معه ، ولكنه تحت الأرض ، وهي بين السماء والأرض تبحث عن مدينة تعيش فيها . . أيامها يتداولها الانتظار ، كل يوم تنتظر اليوم التالي ، واليوم المقبل هو اليوم الوحيد من حياتها . كيف يحدث هذا لملاك مثل جانو؟ . . كيف تكون في بغداد ، وتبحث بين المدن عن بيت آخر يحتويها؟ . . لا أملك سوى أن أقول لنفسي :

العنقود الذي لا تصله

تفرّجْ عليه

قبل حادثة الحريق كنت قد التقيت بتلك المرأة

الألعبان التي ليس لها اسم ، والتي كتبت على فمي أثراً لن يتكرر . . وإذا كنت قد حلمت بها ، كما يحلم أي رجل بامرأة يلامسها عبر تلّين أبيضين ، يشف عنهما دانتيل أسود ، فإن الأمر مع جانو مختلف . . حلمت بها امرأتي التي أحبها دون الانتقال معها إلى وصال حميم فوق السرير ، أن أراقصها وأحتضنها وأكتفي منها بقبلة طويلة فقط ، أن أُجلسها على ركبتيّ ، وأُطعمها بيدي ، ثم أغمض عيني وأدس وجهي في شعرها . . . أن أضع نظاراتي في حقيبتها ، عندما يكون قميصي بلا جيب . . أن تضع رأسها على كتفي حين تكون قد غرقت في دموع البكاء . لم يطاوعني قلبي أن أجعلها تسافر ، ولم يطاوعني أن أغش فيما أكتب ، لكي لا أجعلها تسافر . وعندما رأيتها في الباص في الطابق الثاني ، بقيت انظر اليها طوال الطريق ، وهي لا تعلم .

اسميتها جانو منذ ذلك اليوم . .

أستطيع أن أخمن بماذا تفكر . . رقيقة مثل شمعة يمكن للصوت أن يطفئها وليس الهواء . . رأسها معوج باتجاه النافذة التي لم تكن نظيفة . . وهي ليست سعيدة او تعيسة . فقط رأسها مائل ، وأكاد أرى من خلاله الأفكار تمر به من الزمان

القديم . . من زمان علي . . وزمان الشارع الذي لم يكن يعرف لافتة سوداء . . أنا متأكد أن الحلم موجود هناك ، وهو لن ينجو ما لم تضمه جيداً عن عيون الآخرين . . وإلا ما الذي جعلها غير مبالية بصعود هذا الباص الذي أصبح كسيارة النفرات يصنع محطاته الصاعدون والنازلون دون أي احترام للزمان أو المكان؟ . أنا متأكد أنها لا ترى ذلك كله . . وأنها تعيش في حالة من الارتداد للماضي الأجمل ، ونكران أي شوائب علقت به بعد الحرب . .

كانت مغتربة تماماً عن المكان ، بملابسها البسيطة ، وطريقة جلوسها ، وشعرها القصير المسترسل بدون حجاب . ولم تكن تنتبه لنظرات الفضوليين من الركاب وهي تبحلق فيها . . كانت في عالم آخر غير عالمنا ، فهي روح لا ترى سوى الأرواح ، والدليل أنها لم تستغرب قيد أنملة عندما رأت وجهي أول مرة . . طوت الحافلة الطريق وانا أنظر اليها . . كانت تجلس قريبة مني والحافلة تسير لا ادري إلى أين . . . هل وصلتُ المكان الذي يجب ان أنزل فيه؟ لا أدري! . . هل وصلنا أي مكان؟ لا أدري! . . هل تسير أصلاً أم لا تسير؟ لا أدري! . . فعلاً لا أدري . أقصى ما تمنيته في تلك اللحظة هو أن لا يصل الباص مكانه المقصود . . وأن تختفي كل

الأمكنة من الوجود ، فلا تبقى للحافلة حجة تتذرع بها من أجل الوقوف أو إنهاء الرحلة . . وفعلاً ، ويا للغرابة ، استجابت الحافلة لرغبتي هذه ، وأصبحت تسير ببطء ، لتبحث عن مسار جديد لها وسط ازدحام شديد تسببت به انفجارات عديدة حدثت في وقت واحد ، بحيث أُغلقت الكثير من الشوارع في جانبي الكرخ والرصافة . كنت مأخوذاً إلى حد الجنون بأن لا أصل ، وبأن تظل الحافلة تسير وهي جالسة قريباً مني . أكاد أعرف ما يجول بخاطرها ، ولا تعرف هي ماذا يعتمل في صدري ، لأنها لا تعرف بوجودي أصلاً ، لأنها لا تدري .

كيف اتفق جلوسنا في مكان واحد سويّاً؟

من النافذة نظرتُ إلى النازلين والصاعدين من الحافلة . . . مشى صبي ملثم يكنس الشارع تحت شمس حارقة . . وعاصفةُ الغبار تصل إلى نوافذ الباص المغلقة حفاظاً على هواء التبريد . انحنى وحمل كسرة خبز من الأرض . . قبلها ثم وضعها على حافة الحاوية بعيداً عن باقي النفايات . . كنت أنظر إليه طوال توقف الحافلة ، وعندما تحركتْ ثانية ، واستدرت ، وجدتها تجلس في الصف الموازي . متأكد أنها هي . . ولا أدري كيف صعدت دون أن انتبه إليها . . بالعادة

عندما أراها تمر أمام المحل لا أعود أسمع كلام أحد ، أو أفهم منه شيئاً . أقف منذهلاً أمامها كلما مرت . . . لحظة كيف لي أن أصفها؟ أحس خلالها كما لو أن العالم من حولي قد اختفى تاركاً إيانا نحن الاثنين ، أحدنا للآخر . . . ولم أجرؤ على أن استرق نظرة ثابتة وطويلة لها ، وكأني خفت إنْ أمعنت النظر اليها جيداً ، أنْ تضيع كتلاشي الحلم عند الاستيقاظ .

جاءت في بالي كل أسماء الآلهة القديمة من أبولو إله الفنون ، وأتينا إلهة الحكمة . . وحتى أفروديت إلهة الحب والجمال ، وواسيتُ نفسي بالقول إن عشتار في الأساطير العراقية قد عرفت الكثير من العشاق ، ولكنها تزوجت في النهاية من الراعي . . خفق قلبها لحبِّه خفقاناً أنساها كلّ عشاقها السابقين . التقتْ به ذات ليلة عندما كانت ترقص وحدها متألقة في حلبة الرقص لامعة مثل كوكب الزهرة في سماء ربيعية ، وضع يده بيدها واحتضنها ، فحاولت الإفلات منه راجية إياه أن يُخلي سبيلها لترجع إلى أمها ، فقد تأخرت عن موعد عودتها إلى البيت . ولكن دموزي الراعي أشار عليها أن تبقى معه وتخبر أمها بأنها كانت تستمتع بالموسيقى والرقص والغناء مع صديقة لها

في ساحة المدينة ، وفي غمرة الفرح نسيت الوقت وموعد الرجوع إلى المنزل .

عاشت عشتار حباً جديداً ومختلفاً مع الراعي دموزي لم تعرفه من قبل . . تقدم لخطبتها وعاشت معه سعيدة ، فتجددت الحياة بزواج إلهة الخصب بإله الرعي ، فهل عشتار إذن كهذه الروح التي أمامي ، والتي أسرني جمالها ، وفتنتني رهافتها؟ ، ما تجرأت على أن أتزوّجها حتى في الحلم ، أنا أعلم أنها تفكر بعليّ الآن . . أنا أعلم أنها تحبه إلى الأبد . أعلم أنه الأسد وأنه الصقر وطائر السماء . . ولكني أيضاً راعي القطيع الذي يكتب الشعر :

لأجلك أخترعُ كلاماً آخر

إذا قلبك أجمل من هذا الكلام!

وكل اختراعات الأسامي تلاشت أمام اسم واحد ، ليس هناك أجمل منه ، هو جانو ، فجان تعني الروح وتعني الخفاء ، وهي الصفة لمن يجني الثمار ، واسم جمع للجن ، وبعض أسماء الجنون . . وحتى عندما تكون ضَرْباً من الحيَّات ، فهي كحيلة العينين ولا تؤذي أحداً من البشر . . جنان مع تشديد في النون تكون أيضاً مثنى كلمة الجن . جن يشقيني وجن يشفيني . كل ذلك تداولته مع نفسي ، وانا

أفكر بها جالساً على مبعدة متر واحد منها دون أن تدري .
أقول لنفسي :

المكان بدونك زوايا

رباه

كيف يصبح معك فضاء

(١١)

منتصف النهار في لندن

الآن حان دوري بعد انتظار طويل في صف طويل . . تأخرتُ قليلاً في الخطو خارج الخط المرسوم على الأرض ، فقال لي موظف الجوازت هيا تقدمي ، ثم طلب عنوان مسكن عمتي الذي سأقيم فيه ، مع استمارة الدخول التي ملأتها في الطائرة . حضر من في الأرض جميعهم ، ولم يحضر أحد . . . . أطفال يلعبون وكبار يملؤون أوراق الدخول ، ويركضون في كل الاتجاهات ، وأنا أجلس على مصطبة لا يراها أحد ، ولا أرى أحداً . . حتى الحقيبة كدت أنساها على

كاونتر الجوازات . . لولا أن ناداني الموظف لكي أعود إليها ، فوجد دموعي تنهمر . كنت قد أفرغتُها قبل قليل بحثاً عن عنوان عمتي . . تداعى لي في تلك اللحظة ماذا أفعل بهذا العنوان؟ ، ولماذا أنا هنا؟ . . لماذا لم يبق من طريق أمامي سوى القدوم إلى هنا؟ ، ولماذا حملت هذه الجنطة التي كان عليٌّ يحبها ، وتُمعن الآن في تذكيري بألف لحظة ولحظة؟ . . ليست الجنطة وحدها ، ولكن منذ أن صعدت الطائرة وحتى الآن ، وأنا لا أستطيع التوقف عن البكاء ، سألتني المضيفة هل أنا على ما يرام؟ فمنعتني العبرات حتى من قول كلمة لا أو نعم ، وماذا أقول لها؟ أنا نفسي لا أعرف لماذا هجمت عليّ الدموع بهذا الشكل المفاجئ . . سبق لي أن سافرت في رحلة تدريب إلى نيويورك بعد غياب علي ، ولم يكن الأمر بهذا السوء بالرغم من أن تلك الفترة الزمنية كانت أكثر قرباً من ذلك الحادث الأليم الذي دمّر حياتي . . أما الآن فالدموع لا تدعني ، ولا أدعها ، ولماذا أدعها ، وكانت لندن هي وجهتنا المقترحة لشهر العسل بعد الزواج؟ ، وكان علي قد زارها عدة مرات من قبل ، وجلب لي منها الكثير من التذكارات والكارتات التي تحتوي على عبارات حب مضحكة ، أو غريبة من نوعها . . وضعتها كلها داخل حقيبتي اليدوية ، وبعد قليل أدركت أنها بقيت مفتوحة بعد

أن أعدت إليها جواز السفر ، ولم يكن ثمة داع لغلقها بعد أن وصلتُ البوابة وأخرجت محفظة النقود من أجل شراء تذكرة الباص . لم أبحلق في الناس كما كنت أفعل في الماضي . . وحتى عندما كنت أعلم بأن علي في طيارته الآن ، وليس في إجازة ، فإني أبحث عنه بين الوجوه في كل مكان أذهب إليه في بغداد . . . وأردد مع نفسي لغزاً على شكل بيت شعر قديم . .

اسم الذي أعشقه أوله في ناظره

إن فاتني أوله ، فإن لي في آخره

نظرت حولي ، ولم أرَ أحداً سواي . الازدحام انتهى ، والطابور الطويل اختفى خلف قلق ممض لازمني طوال الرحلة . . كنت خائفة جداً ، وكأني أقيم وحدي في العدم . . كل شيء من حولي عدم . . والخوف يشتد عندما يكون المرء وحيداً ، فيا ترى ما الذي ينبغي أن يخافه المرء عندما لا يكون هناك أحد غيره في المكان؟ . . كنت موجودة داخل حشد كبير من الناس لا أشعر بوجودهم ، ولا يعنون لي شيئاً . . فقط يزيدون على وحشتي وحشة ، ويجعلون خوفي يشتد . . لأول مرة أشعر بأني قد غادرت الناس والدنيا عندما غادرت عليّاً . . لأول مرة أجرب هذا النوع من الخوف . .

عندما لا يوجد شيء يمكن أن أخافه بعد الآن.. وفي الوقت نفسه لا أجد الراحة ولا الأمان في شيء.

اعتقدتُ أن نهاية حبنا ستكون حتمية، وخطرت على بالي كل النهايات السعيدة الممكنة، وكل الرحلات البعيدة، وكل الملابس والإكسسوارات المشتراة من أسواق العالم، وكل الصور الفوتوغرافية التي سنلتقطها في الشوارع وبين المارة. فكرت أن أشتري لنفسي قبعة قش كبيرة، وأن أشتري لعلي بعض السراويل الكتان ذات اللون البيج، وقمصاناً ألوانها زرقاء فاتحة تشبه ملابس الأمراء والممثلين الإنكليز، وأن أُغلّف شقتنا بورق الجدران المورّد الذي أراه في الأفلام الأجنبية، وأن أرتبها كما يفعل البريطانيون، بوضع عشرات الصور على الجدران وفوق المناضد.... كنت أعد الأيام من أجل أن أستكمل كل هذه الترتيبات في بيتي مع علي، وأي ترتيب آخر لم يكن يخطر لي على بالي....... كل الترتيبات الأخرى كانت غائبة عني، وقد يفصّلها قدر آخر لشخص آخر.. أما أنا فقدري واحد لا يختلف عليه اثنان، هو كل هذه البهجة التي كنت سأعيشها مع زوج انتظره وينتظرني هو علي..

في يوم من تلك الأيام التي كنت أرتب فيها كل تلك

الأحلام داخل رأسي . . كان علي خفراً في وحدته ، والإجازات متوقفة ، فاستُدعي من القيادة لطلعة جوية مفاجئة . . اتصل بي قبل أكثر من ساعة من تكليفه بذلك الواجب ، كان يمسك المنظار . ويقف خلفه . . مازحني ، وقال إنه يراني من مكانه في المعسكر . . وكيف تراني يا نور عيني؟ قال إني أراك ، ومعك الآن حقيبة يدوية لونها بني ، وأنا الذي اشتريتها لك من المعرض السنوي للصناعات اليدوية ، حتى أتذكر أن صاحب المعرض كان شاباً أصبح بدون أهل ، وقد سلمه الله من موت محقق معهم ، لأنه كان خفراً ، مثلي الآن في الوحدة ، والإجازات متوقفة ، فجعله ذلك ينجو من قصف طائرة أمريكية استهدفت مقراً للمخابرات مجاوراً لبيتهم . . أما الحقيبة فإنها تحتوي كل أدوات المكياج وجزدان الفلوس ، وهناك رسالة لي أيضاً .

كل ما قاله علي كان صحيحاً . . والغريب أنه تذكر هذا الشاب الذي اشترينا منه الحقيبة من معرض بغداد ، وقال إن خفارته قد أنقذته من موت محقق ، بينما العكس تماماً هو الذي حدث مع علي . . والأكثر غرابة مِن تذكرِه ذلك الشاب ، وتخمينه لما هو موجود داخل الحقيبة ، هو أنه طلب مني أن أقرأ له الرسالة التي كتبتها له ، امتنعت وقلت له لن

أقرأها ، ستقرأها أنت عندما تنزل في الإجازة القادمة ، ولكنه أصر على أن أقرأها له كمن حدس قلبه بالمهمة الخطرة التي سيقوم بها بعد ساعات ، فأراد أن يسمع الرسالة ، ويُسمعني آخر ضحكة سمعتها منه في حياتي .

أرجوك علاوي . . كافي عاد تصير كلش حلو . . ترة أغار عليك كلش هواية . . وكل بنية تظل تتلفت عليك وانت لابس اليوني فورم مال الطيارين إن شاء الله تعمى عيونها وتنكسر رجليها وتنشلّ إيديها .

الماضي هو الحاضر ، والحاضر هو الماضي . . ولا يوجد مستقبل إلا زمان واحد هو الماضي . . اخترت أن أرى بعض الأمكنة قبل أن أودع بغداد . . الزمان واحد ، ولكن الأماكن مختلفة ، وتجرني إلى عوالم لم أعد ، بعد علي ، أثق بثباتها واستمرارها وصدقها .

(١٢)

الطريق إلى المدرسة

ذلك البيت الذي دخلنا اليه أنا وضَي هرباً من القصف ارتبط عندي بأفواه الرجال المسنين التي تبتلع الطعام في غمضة عين . . . كنت في الصف السادس الابتدائي ، ولا أفهم أبعد من ملابس المدرسة وفروض المدرسة . . ولبثت ساكنة في مكاني اتظاهر بالموت بينما القذائف تنهال ، وتقترب منا . . يجب أن أبتعد ولا أعرف كيف . . يجب أن تنتهي هذه الفوضى التي تقترب . . دخلت ضي الى الحديقة الخلفية للبيت . وقالت لي :

- هيا نختبئ تحت النخلة . . إنها عالية وستحمينا .

استغرق الأمر عدة سنوات قبل أن أستفيق من هذا الكابوس المرعب . . كابوس ضي التي ماتت أمام عيني . ولم تعد موجودة معنا عندما أصبح الشباب يطاردوننا بعد خروجنا من المدرسة . وكان لكل بنت شاب تُسمّيه باسم مستعار ويكون خاصتها . . . . ورغماً عني كان قلبي يهفو إلى نظرة من نظرات أولئك الشباب الذين يصعدون الى الباص الذي نصعد إليه ، ولكن جسمي لم يكن يطاوعني على الالتفات إلى أحد . . فكنت أمكث في الطابق الأول مع العجائز والمسنين بينما يهرب الآخرون الى الطابق الثاني حيث لا يوجد سوى الجنون والصراخ والقهقهات .

علي صعد ذات يوم وجلس قربي . . جاءت عجوز فنهض لها وأصبح واقفاً قبالتي . . رفعت عيني من باب الفضول فالتقت نظراتنا للحظة واحدة . . لحظة قد تكون أصغر من ثانية جعلتني أصطبغ بالحمرة ، أحاول أن أبدو غير مهتمة بالحدث ، ولكن من الواضح أني قد أفلست حتى من العقل في تلك اللحظة . . وأن الخجل قد جعل الحمرة تصبغ حتى أطراف أصابع قدمي الظاهرة من تحت الحذاء المفتوح . . تدفق الدم أنهاراً ذلك اليوم . . مشت الدورة الدموية من

منبعها حتى المصب وهي تلغمط في طريقها أنفي وأذني وجفون عيني . . غرقت في لون أحمر فضحني ولا أعرف كيف أتخلص منه . . أردت أن أفعل أي شيء لمنع هذا الفيضان الأحمر . . ولكن الدم كان يتدفق فيحجب الرؤية عن عيني . . لم أعد أتمكن من رؤية الطريق . . هربت إلى النافذة أنظر منها إلى غواش وفراغ . . وهواء الربيع العليل الذي لا يكف عن الهبوب من النافذة ، لم يستطع تخفيض سخونة وجهي درجة واحدة .

قبل أن أنزل من الباص سقطتْ كتبي كلها على الأرض . . فجمعها لي علي ، ثم ناولني إياها وهو يضحك . .

(١٣)

قارب وهواء عذب

قبل أن أسافر إلى لندن وقفت قريباً من ذلك البيت الذي اختبأنا فيه أنا وضي ، ومن هناك استعملت بعض الفروع الضيقة للوصول إلى نهر دجلة . . القارب يطفو على الماء ، والصياد فيه مهتم بعمله . . أراه ولا يراني . . رجل وزروق . . يظلان هكذا . . رجل وزورق . . ثيابه مبللة ويده ممدوة من أجل تلك اللحظة . . يريدها أن تنتهي ، والسمكة قد فارقت الحياة وأصبحت في القارب . .

شعرت بأن أفكاره تنتقل لي عبر هواء دجلة العذب الذي

يتموج ويتغلغل بين طيات قميصي وخصلات شعري . . أظن أن هذا ممكن الحدوث عبر التوحد مع النسيم . . أظن أن الأفكار يمكن انتقالها بين الناس عند حلول الصمت الذي لا يتبدد ، فأنا كنت أسمع قطار البصرة وقت الفجر بالرغم من كونه يمر من منطقة علي الصالح التي تقع في الكرخ ، وهو الذي لا أسمع صوته أبداً أوقات الضجيج . . جلس الصياد مرة أخرى يدخن . . ويبدو أنه شعر بامتزاج لذيذ مع صيده ومع أغنية لأم كلثوم كانت ملء السمع في الآفاق . .

كنت باشتاقلك وانا وانت هنا

بيني وبينك خطوتين

شوف بقينا ازاي ، أنا فين

يا حبيبي ، وأنت فين

أنت فين

والعمل ، إيه العمل؟

ما تقولي أعمل إيه

والأمل

انت الأمل

تحرمني منك ليه؟

تأخر الوقت ، وأنا لا أزال أبحث عن علي هناك دون فائدة . أقف في المكان نفسه بالضبط . . علّمناه بنقش فوق الصخرة المغطاة بلون ابيض . . ضحك علي كثيراً وهو يحاول رفع الصخرة الثقيلة جداً . . . . وأحس وقتئذ بوجع في كفه من أثر التوائه أثناء رفع الصخرة ، تبع ذلك وخز في الإبهام . . نظرت له والدموع تلمع في عينيّ . . فركت له إبهامه بأصابعي . . ولم أكن قد لمسته من قبل . . احتفظت بكفه في كفي ، فشعرت أني في ممر لا يمتد إلى شيء محدد . . يؤدي فقط إلى الرغبة في التنهد واستنشاق مزيد من الهواء . . إلى وهن على وهن من الدوار الذي لا يشبهه شيء في جماله . . إنها سعادة حضن كف الحبيب لأول مرة . وملء الفراغات التي بين أصابعنا بأصابع يدٍ أُخرى .

رنين جرس التلفون الأرضي ينطلق بين حين وآخر . . رنة واحدة ثم رنيناً متّصلاً . . من النادر أن ترفعه الأم لأنها تفهم تلك الإشارة ، وتعرف أن علياً هو المقصود بها . . . . ولكن الآباء آخر من يفهمون مثل هذه الإشارات . . فكان أبوه أحياناً يجيب على تلك المكالمات عندما يكون علي ليس في البيت . . وبعد سنوات من صمت الهاتف كنت أحاول أن أجرب تلك الرنة الواحدة . . أعلم أن علياً لن يسمعها ،

ولكن الأم تسمع أحياناً ، وتهرع إلى الهاتف وتستحثني على الكلام ، وكأنني ألف طوق نجاة مدور . تقول جملاً قصيرة تحض الطرف الآخر على الكلام . وبالرغم مما ينتقل إلى قلبي من لوعتها وحزنها فإن جواً من الهدوء يسود بيننا .

تأخرت كثيراً في الوقوف على ضفة النهر . . حتى الصياد لملم ملابسه من فوق أجمة الشوك ، وذهب لأطفاله الذي ينتظرون طعام العشاء .

(١٤)

درس السعادة

أصبحتُ اسمع صوت القطار حتى وأنا في لندن . إنه يذكرني بكل شيء . .

ولا شيء أجمل عند جنان من الخلوة التي تحصنها من الناس . . والخلوة مختلفة عن الوحدة . . لأن الوحدة قد تنتابها حتى وهي تدور في الأسواق مثل باقي النساء . . أما الخلوة ، فهي عندما ينعقد في خيالها اجتماع لكل شيء . . أوادم وبيوت وهدوم وقرّاصات وقنفات وأشجار وقبوطات بنفسجية وبيضاء وسكرية اللون . . تستغرب بعد ذلك أن

يكون عندها كل ذلك ، ثم تخرج من هذا العالم المدهش إلى الشوارع لتتزود بالضجيج والفوضى . فيما سبق تقمصتْ عدة شخصيات وهي في هذا الحصن المنيع الذي تتحاشى فيه العالم الخارجي . . أصبحت راقصة وممرضة ومضيفة طيران . . كل ما تريده وتتمناه موجود في خلوتها . . ليس السرير والأريكة والساعة الجدارية فقط . . ولكنها أيضاً الخصوصية التي تتكثف ، وتجعلها تحلم بما تريد . . حتى الأمكنة الجديدة التي زارتها انطبعت في ذهنها بطريقة مختلفة . . إنها أضافت لروحها الانتشاء وانتهى الأمر . . فما تفعله هو ليس لكي تستعرضه أمام أحد ، وما لم تحتفظ به لنفسها ، فسيصيبه الابتذال ، ويجعلها تصبح مثل فاترينة موقدة بالأضوية الساطعة ، أو خصاص باب مليء بالثقوب . . وعندما تتذكر الخبز الذي كانت تعجنه أمها وتخبزه على صاج مقلوب فوق فوهة الصوبة ، يكتسب الانتشاء تعريفه الصحيح من تلك الرائحة الطيبة التي تبهجها ، وتجعلها تتحول من مخلوق إلى مخلوق آخر .

وكما توقعتُ ، فعندما تدخل عمتي فريدة قرية ، تفتح كل شيء مسدود في أركانها الخربانة ، من حوض غسيل الأطباق وحتى الستائر . . بل حتى جلمود الأجداد يتعمر

ويزهزه مشدوهاً بالمكان ، وهذا ما فعلته بشقتها في لندن . تجلس على الأرائك ، فتشعر باهتزازها ، فلا تمر لحظة واحدة إلا وتنهض لتضع خشبة رقيقة أو تطوي ورقة تدسها تحت الرجل القصيرة فتستعدل الأمور وتستقر . الأريكة لم تكن رمادية تماماً ، بل يتخللها الأسود في خطوط عرضية متوازية . . وكأنها تشبه حياتها في السراء والضراء . زوجها عندما كان يسافر أحياناً تشعر بأنها هي المسافرة . . طلاقة في البيت في الروح في الكون كله ، لأنها ستخفف من عبء كبير لرجل لا يرى من كل هذا الترتيب قيمة كبيرة . . إنه يريد أن تعمّر له الفراش . . أن تتحول هناك إلى إمرأة بذيئة . . وهي لم تكن تعرف كيف تفعل ذلك مع رجل يظن أنه طويل القامة وهو قصير ، ويعتقد أنه رشيق القوام ، وهو سمين . . عاشق ولهان مع كل النساء إلا معها . . . متباهياً أمام أقرانه بأنه بالرغم من بلوغه السبعين من العمر لا يزال يمتلك طاقة لا تضاهيها طاقة العرسان . كنت أسمعها تقرف من تبجّحه المستمر هذا . . وتقول إن البنت عندما تحلم بشخص ما لا تتمنى أن تجامعه ، أما زوجها فكان يريدها جمعاً من النساء الرخيصات في الفراش . له وجه حليق وطازج . . كل شيء فيه منظف جيداً . . الأنف والعينان والأسنان . . لا خطأ في الوجه ، ولكن الخطأ كان في مكان آخر . . حيث يفقد عقله

تماماً لرؤية جزء صغير من جسم المرأة ، ثم يظن بعد ذلك أن المرأة قليلة العقل والحيلة . . هذه هي صورة الأبله التي يجب أن تتقبلها أو ترفضها . . تتهادن معها أحياناً بالبكاء المر ، أو تنود بالصمت الرهيب .

(١٥)

اللقاء بعد الصعود
إلى الطابق الثاني

المكان الثالث الذي أردت أن أودعه ، بعد بيت النخلة وصخرة الشاطئ ، كان الطابق الثاني من الباص . . أنا أخاف الصعود الى الطابق الثاني منذ طفولتي . . كنت أعتقد بأن الباص إذا استدار سيميل ويتزحلق على جنبه ويسقط على الأرض . . . ولكني أصعده في كل مرة . . نسمات الخريف هبت علينا . . تحركت الحافلة ، وصارت روحي في طريقها المألوف . . أرصفة مُكسّرة وشَوّايات دجاج وواجهات

قبيحة . . والشوارع أصبحت كالرداء الرث لامرأة جميلة . . صحيح أنه يجعلها تبدو مهلهلة ، ولكنه لا يخفي جمالها . . وجمالها لم يكن في سجيةِ دجلتها وخضرتها الداكنة . . ولكن في معركة تقليدية بين السائق وأحد الركاب . . السبب هو أن السائق قرر تجاوز خط السير ، والدخول إلى شارع حيفا بدلاً من عبور دجلة على جسر الأحرار تلافياً لازدحام الشورجة .

- يا معوّد وين رايح؟ أريد أنزل بالشورجة .
- انزل هنانه واعبر من جسر الإذاعة .
- أعبر مشي ، وآني دافع فلوس؟
- يا معود هي ٥٠٠ دينار .
- رجعلياها لعد .

في طريق العودة ، كان شارع الجمهورية مغلقاً بسبب انفجار كبير حدث قرب ساحة الخلاني ، فاضطر السائق للعبور إلى الكرخ مرة أخرى من جهة جسر الشهداء ، لكي يستعمل طريق العلاوي ، ثم مطار المثنى من أجل الوصول إلى جسر الأعظمية والعبور مرة أخرى للرصافة . . وعندما وجد هذا الطريق مغلقاً هو الآخر ، توجه إلى نصْب إنقاذ العراق لمحمد غني حكمت ، والذي يقع بين متنزه الزوراء وساحة الفارس العربي .

من هناك صعد ذلك الشاب الذي ملأ وترجم الاستمارات لجميع أخوتي خلال أعوام، ولكنه هو نفسه لم يسافر.. سمعت عنه كثيراً، ولم أكن أعرف ما اسمه في البداية. والجميع يعرف حكايته، معجبين بإتقانه اللغة الإنكليزية، ويتساءلون لماذا عاد من أمريكا في مثل هذه الظروف؟ أجده ساهماً على الدوام، وكأنه يحاول العثور على فكرة ما، فهو شاعر، وهذه ميزة نثرت عليه مسحة من الانشداه. عمتي فريدة تقول بخصلة شعر واحدة يُطيّرها الهواء يمكن للمرء أن يحصل على وجه جديد وجميل، وهو أيضاً، بالإضافة إلى الخصل المتطايرة، كان يساعد الناس بدلاً من أن ينزوي بعيداً عنهم، هذا يعتبر على أيّة حال ثقة بالنفس وتطوراً كبيراً في مثل حالته، لا يشتكي شيئاً أو أحداً، ولا يشتكيه أحد!

كان هذا الشاب، الذي سمعت الكثير عنه من قبل دون أن أراه، هو الذي قصدته من أجل ملء فورمات الفيزا إلى بريطانيا.. سألته هل يمكن تقديم الطلب من بغداد، وليس من عمان كما فعلت عمتي فريدة؟ قال إن الإجراءات صعبة ومعقدة.. والأسئلة كثيرة وغريبة عن بيانات الراغب بالحصول على فيزا سياحية، وبعضها يشبه التحقيق حول

انتماء المتقدم لحزب البعث أو لجماعات الإرهاب . . أما الوثائق المطلوبة فتنوعت لتشمل سندات البيت ، وحسابات البنك لي ولعمتي فريدة ، مع كل بطاقات التعريف الممكنة بها وبي . . . .

بعد ذلك تحولت الفيزا من سياحية إلى دراسية . . ربما بعض الأسباب تحدث دون أن نرتب لها . . . فقد حصلتْ عمتي على مبلغ مالي كبير ربحته عن طريق الصدفة البحتة ، وقالت لي إنها تستطيع الآن أن تقدم لي المال المطلوب لاستكمال دراسة الدكتوراه . . إنها تكشف عن تلك الصفات المضيافة الرائعة مع كل مكسب تحصل عليه ، والآن استقرت في قصر داخل مزرعة ، وتريدني أن أشاركها الجلوس على التراس الواسع المطل على الحديقة فوق اثنين من الركائز الكورنثية ، وتدخين سيجارتها مع شاي الصباح . "هذا هو ما أسميه الحياة ،" تقولها في الهاتف بارتياح عميق ، وهي تُشبّه كل شيء من حولها بملمس القطيفة الناعمة . من الورد وحتى ورق الجدران . . وسبق لها أن قالت الجملة نفسها ، وهي تجلس على المصطبة القريبة من قبر عبد الحليم حافظ في مصر ، دون أن يراها أو تراه ، فهي أصبحت كثيرة التدافع والتنقل من حياة لأخرى . . . . مثل الكثير ممن أعرفهم من الناس .

عندما علم هاني بأني سأحوّل فيزتي من سياحية إلى دراسية انتابه شيء من الوجوم . . وراحت أصابعه تقتلع بعض الزوائد الدقيقة في حافات الأوراق التي بين يديه ، وكأنه يزيل الشوك عن باقة ورد يانعة . لم أفصح له عن سبب حاجتي لذلك ، وهو أيضاً لم يسألني . . فقط بدا وكأنه يظن بأن ضمان الحصول على فيزا ، يكون أصعب مع هذا التغيير المفاجئ . قال : مَن اقترحَ عليك القيام بذلك؟ قلت له أنا فعلاً أريد إكمال دراسة الدكتوراه . . شكّتني صورة الوجوم في وجهه ، صورة عن علي الذي كان مثله طويل القامة ، نحيفاً ، ساخراً ، مع نظارات على عينيه ، ويداه في جيوبه دائماً . . لكنني عندما رأيته بعد ذلك ينزل من الباص لم يكن يضع يديه في جيوبه كما رأيته أول مرة .

نزلنا من الحافلة ذات الطابقين ، بعد دورة كاملة حول الأرض بين الكرخ والرصافة ، فتعمد أن يبتعد عني ، ولا يحادثني في الشارع . . ولأن موقف الباص ليس بعيداً عن زقاقنا ، فقد أصبح هذا الشاب ، الذي ملأ لي الاستمارات ، يقف في باب محله بعد دقائق . . كائن غريب ومثير للفضول . . يظنه المرء قروياً قليل الحيلة ، واذا به مستودع من الفطن والبدائع : يعرف اللغة الإنكليزية بإتقان ، ويتابع

الأفلام الأجنبية ، ويقرأ الروايات . . وكان قد أخبرني أنه منذ عاد من أمريكا وهو يشاهد أفلام توم هانكس وليوناردو دي كابريو وجوليا روبرتس ، ويقص أثر الكتب والمسرحيات والروايات الجديدة ، ويطلبها بالفيزا كارد الذي لديه عن طريق مواقع للتسليم كالأمازون وغيرها . . الغريب أنه لم يسلّم علي عندما رآني في الباص . . وبعد قليل ، عندما توقفتُ لشراء بعض المناديل الورقية وعصير المشمش ، كانت هناك عبير مع أخيها علاء تشتري الحلوى ونوعاً من الشكولاتة على شكل معجون الأسنان . . قلبي استشعر فرحتها بهذه المجموعة الغريبة والمنوعة من قطع الحلوى مع علبة سفن آب . . ولهفتها هذه جعلتها تمد يدها إلى الكاشير عدة مرات لكي تستعجله تسلّم النقود . . أخوها صاح بها :

كافي عاد تره أقول لبيبيتك . .

بيبيتها مفيدة هي بيبيته ، ولكنه في لهجة الكلام الشعبية يقلد من هم أكبر منه في البيت بالتأكيد . شعرتْ البنت بالخجل ونظرت لي . . كانت تريد أن تتأكد أن أحداً لم يشهد فشلها وانكسارها ذلك . . وكان المفروض أن أتجاهل ما رأيت ، ولكتي نظرت اليها وابتسمت لها ، وكان هذا خطأً مني جعلها تنفجر بالبكاء . . . هنا صرخ به أبو المحل . .

هاي شبيك وياها؟ . . .ليش دتصّيح عليها؟ أما انا فقلت لها : ميخالف حبيبتي . . ميخالف حبيبتي . . ولم أجد ما أعطيه لها سوى قبلة على رأسها ، ومنديل ورقي من العلبة التي اشتريتها قبل قليل . . كأن المنديل يجمع بن كل النساء . . بين الأنا وصورة أخرى لها . . تعبر عنها أو تتوافق معها . . خرجتْ البنت قبلي ، بعد أن كفكفتْ دموعها ، وتوجهت نحو شحاذة تجلس في باب المحل ، لأكتشف أن استعجالها لدفع النقود كان من أجل علبة سفن آب تريد إعطاءها لتلك المرأة العجوز قبل ان تغادر .

(١٦)

ما الذي جاء بي إلى هنا؟

وصلتُ البيت لأجد أختي هديل في حالة إنذار بسبب العيد . . المكانس والمماسح تملأ المكان ، وهي تقف فوق كرسي تحمل دلواً فيه ماء وتمسح شبابيك المطبخ . . رائحة العجين المختمر لو كانت موجودة لاكتمل إحساس العيد بالفعل . وقبل أن أضع حقيبتي في مكانها المعتاد على ظهر كرسي المطبخ ، رن جرس الباب فذهبت إلى الهول ونظرت من شباكه إلى الخارج . . سحبت الستارة فداهمتني رائحة النظافة ، ووجدت زجاج الشباك الممسوح تواً ، وكأنه قد

اختفى لشدة نظافته ، حتى أنني مددت يدي إليه لشكّي بأنه غير موجود أصلاً . خلف شباك الهول كان هاني يقف . . فتحتُه وسألت :

- من؟

- لم أشأ أن أحادثك في الباص أو الشارع . . أو أنادي عليك من باب المحل .

- تفضل بالدخول .

أراد سؤالي عن بعض المعلومات التي نسينا وضْعَها في الاستمارة . . جلس في مقعد بعيد قرب باب الهول ، فدعوته للجلوس قريباً من باقي الأرائك . . انشغلت عنه كثيراً بالنظر إلى هديل التي كانت لا تزال تنظف شبابيك مطبخنا الذي يقع في مؤخرة البيت . . عمتي فريدة كانت قد انتقلت ، بعد طلاقها ، للسكن معنا ، لكنها لم تعد موجودة الآن بعد أن غادرتنا إلى لندن ، وهديل هي التي جاءت له بصينية فيها قدح من عصير البرتقال ، واستطيع التخمين أنها انزعجت من مقاطعة حملتها التي يجب أن تكون بلا أغلاط . . وقد عبّرت عن انزعاجها ذاك ، بعد أن خرج هاني ، بمطّ فمها إلى أمام وغسل قدحه بالكلور . . ضقت بحركتها تلك ، وقلت لها توقفي عن هذه الوسوسة . . إنك تتصرفين مثل عمتي فريدة

تماماً . ثم تركتها وذهبت إلى نافذة الهول ، ورأيته واقفاً ينظر إلى واجهة البيت .

كان على الأكثر ينظر إلى كرمة البيت التي جففها الخريف ، أو ربما يتأمل بعض البلاطات التي تضعضعت بفعل إهمالها منذ زمن طويل . . من بعيد كان يبدو أجمل ، اختفت تلك الرقعة التي تشبه الخريطة عن وجهه ، وكان هناك جرح يطوف به من فوق الحاجبين وقرب الأذنين وتحت الفم ، وكأنه قصاصة خيطت فوق وجهه اعتباطاً من جميع الجهات ، أما ملامحه فكانت طبيعية مستتبة في مكانها توحي بجمال قديم . لم تكن مشوهة ، ولكنها مختلفة بفعل عدة عمليات جراحية ، وتمنيت لو أعرف كيف كان شكل هذا الفتى المشدود كعود الخيزران . كان وجومه بسبب منحتي الدراسية كافياً لإثارة الاضطراب في نفسي ، خصوصاً أن تأخّر التحاقي بها من الشتاء وحتى الخريف جعله يكاد يطير من الفرح . . كنت أريد وداع بغداد بباص يعبر من الرصافة إلى الكرخ ، فدار الباص بغداد كلها وهو على مسافة قريبة مني .

في لندن أصرت عمتي فريدة على صعودنا الى الطابق الثاني من الحافلة ، وتلك عادة اكتسبتها من سفرتها الأولى إلى لندن في الثمانينيات ، إذ كان التدخين مسموحاً في

الطابق الثاني فقط، وكان يستهويها الجلوس هناك لتدخين سيكارة أثناء التجوال والتفرج من النافذة على المحال والشوارع بين الأجواء الممطرة والخضرة الداكنة. الأمر اختلف الآن وأصبح التدخين ممنوعاً في كل مكان عدا الشارع الذي يعج بالمحجبات والمغتربين من جميع الجنسيات.. حتى أن المضيّف عندما حمل بطاقات الدخول لغير البريطانيين في الطائرة كنت أنا الوحيدة التي رفعت يدي لطلب البطاقة بين عشرات السودانيين والصوماليين والمصريين وباقي الجنسيات من بلدان الشرق الأوسط.. عندما أبديت استغرابي للراكبة المصرية الجالسة قربي، دافعتْ بقوة عن عاصمة كوزموبولتية تضم جنسيات مختلفة من جميع أنحاء العالم، وقالت إن عصر العولمة والإلكترونيات قد جعل من هذا العالم قرية صغيرة..

كم تزعجني وتستفزني كلمة قرية صغيرة هذه... ما أشوه هذه القرية التي استلبت منا حتى ظلالنا.. قلت لها بانزعاج حقيقي: هل أطير من مكان إلى آخر لاجد المكان نفسه؟ أنا ذاهبة لأزور لندن.. لا لكي أزور إيران أو الهند أو الصومال.. كيف سمح الإنكليز المحافظون بفقدان هويتهم إلى هذه الدرجة؟ لم تتجاوب معي في الكلام، بل أبدت امتعاضها مما أقول، وكأنها ستفقد عملها على الفور بسبب كلام واحدة بطرانة مثلي، وراحت تهز كتفيها اعتراضاً على

اعتراضي . . بل بدأت تلبس جاكيتها على عجل قبل هبوط الطائرة ، وكأنها تريد اللحاق بوظيفتها أو قريتها التي أصبحت ملكها رغماً عني وعن كل العالم . في الهيثرو كان الأمر أكثر سوءاً ، إذ كان كادر المطار بأغلبيته من الأسيويين الذين يمتازون بسحنة داكنة هي خليط بين سمرة القارة الهندية وصفرة الأعراق الصينية ، يتحدثون فيما بينهم بلغة إنكليزية مخترعة لهذا البريد العجيب من البشر . . لغة خالية من القواعد والأفعال الصحيحة . إشارات ليست إلا لتمشية الأمور على عجل . أما في المترو الذي أقلني من المطار إلى بيت عمتي فكان عدد الإنكليز على المقاعد لا يتجاوز عدد أصابع اليدين . ضحكتْ عمتي فريدة ، وقالت لي :

- هل رأيت الكرمة؟

- أية كرمة؟

- كرمة حديقة البيت في بغداد؟

- ما بها؟

- لديها خيط لولبي لو وضعت إصبعك قربه لتورعشك ولف لوامسه عليك . المهاجرون يائسون يا جنان ، والعتب ليس عليهم ، ولكن على من فتح باب الهجرة على مصراعيه لنا ولغيرنا .

تخيلت مروحة عملاقة تدور في السقف ، وترمي عشرات المهاجرين الذي رأيتهم خلال أيام راجلين أو في الباصات . . ما الذي جاء بهم الى لندن؟ وما الذي جاء بي إلى هنا؟ . العراقيون والعرب انتشروا في بقاع الأرض مثل حشائش خرجت من بذورها ، ويجب أن لا يدوس عليها أحد لكي لا تموت . . فكرت أن لهم الحق في ذلك ، وأن الحروب قد انهكتهم وحرمتهم من كل فرصة لحياة كريمة ، ولا عتب عليهم في البحث عن ملاذ أمين ، حتى وإن تكبدوا المشاق وجازفوا بحياتهم في قوارب التهريب السيئة . . كانت الصور التي أراها تأتي من مكان مجهول وتمر إلى مكان مجهول . . وقد أصبحت تثير اهتمام الصحافة ، لأنها تحولت إلى حُمى جماعية وتسونامي مرعب ابتلع الكثير من أحلام أولئك المهاجرين . . صوت المايكرفون في الباص الأحمر يردد رقم الباص ، مع وجهة الطريق كل بضع دقائق . . واحد واحد ثلاثة قوس المرمر ، وانْ وانْ ثري ماربل آرج . . وان وان ثري ماربل آرج . . كأن واجب ذلك النداء هو تذكيري بأني لم أعد موجودة في بغداد ، بل في مكان بعيد جداً ، ولكن لا زلت أسمع فيه صوت القطار .

(١٧)

أبواب ومصابيح لندن

صعدتُ يوماً زعلانةً إلى الطابق الثاني في البيت ، ولم أنزل . . سويج السيارة كان في يدي عندما تعاركنا أنا وعلي ، ولم أعرف كيف أضعه في فتحة التشغيل من شدة الغضب . . إنه عمر نهايات المراهقة الذي يشعرني الآن بالحرج . . جلست خلف الستيرن ثم وضعت يدي على راسي مغمضة العينين ،ودارت بي الدنيا مئة دورة . . هه . . ضاعفت سرعتي حتى قبل أن أصل للشارع العام . . باب بيتنا ليس مثل كل بيوت العراق التي تنفتح على كراج تقع الحديقة على يمينه

أو يساره ، ويؤدي هذا الكراج عادة إلى باب المطبخ . بيتنا تصميمه مختلف ، يقع مطبخه في الخلف . . وفي مقدمته مدخل مربع يؤدي إلى الهول وغرفة الخطار . . ومن ذلك المدخل المربع دخلتُ باكيةً ، وأسرعت إلى الطابق الثاني لكي لا تراني أمي التي كانت في المطبخ . . أنا كنت أبكي بسبب علي . . تعاركنا في السيارة لأنه رفع الكابح اليدوي قليلاً ، وأوقفها فجأة لكي يمازحني . . هل تظن نفسك في الطائرة يا علي . أوشكت أن تجعلنا نصدم سيارة أخرى . .

نزلتُ من الطابق الثاني للباص في لندن . . ولم أجدها هناك . . شعرت بأنني قد تركت نفسي تجلس في الطابق الثاني للبيت أو الباص الأحمر . . حاولتْ تلك النفس فتح الشباك ، ولم تستطع . شعرتْ بأنها يجب أن تخرج من هذا المكان . . سمعتْ صوت القطار . . رأتْ أمها زعلانة عليها . . رأتْ عليّاً زعلاناً عليها . . رأتْ الكل زعلانين عليها . . إنها تتعذب كلما صعدت الطابق الثاني . . أصبحت تخاف أن تصعد الى الطابق الثاني ، لأنها تتذكر كل شيء في الطابق الثاني . . وترى الجميع واقفين في كل محطة . متأكدة أنها تراهم . . ولا تدري كيف يحدث ذلك . . الرحلة كانت طويلة جداً بين لندن ومدينة يورك البريطانية . . قطعتْ عليّ أفكاري

عمتي فريدة ، والغريب أني كنت أفكر بهاني بدلاً من علي ، عندما قالت لي :

- اتصل بي صديقك؟

. . . .

- صديقك الذي قالت هديل إنك زعلتِ لأنها غسلت قدحه بالكلور؟

- هاني؟

- نعم .

- ولكنه ليس صديقي؟ هل لأني أدافع عنه سيصبح صديقي؟

- هذا أفضل ، لو كان زوجي لفضلت أن أُقبّل نفسي في المرآة على أن أقبّله .

- عبد الرحيم كان له وجه جميل يا عمتي ، فهل كنت زوجة بين يديه .

نظرتْ بحنان ، وضحكتْ عيناها :

- كنت أفضل تقبيل المرحاض على تقبيله ، وخلْعَ ملابسي وأنا أدور معها في الغسالة على أن أخلع ملابسي أمامه .

- ههههههه . . أنت مليئة بالمفاجآت يا عمتي ، منذ أن فزت بالجائزة وأنا لا يمكنني أبداً الاعتماد على جديتك في الكلام . .

- هراء! كيف يمكن للمال أن يغيّرني؟ ما رأيك؟ ها؟ هل نأخذ قسطاً من الراحة عند الجواهرجي دانيال بعد عودتنا من يورك؟ . . خلي نفسيتنا تتحسن شوية . . ههههههه .

- هههههههه .

في تلك الليلة عندما وصلنا يورك ذهبت عمتي لشراء السكائر ، وجلست وحدي على المصطبة تحت شجرة عملاقة . . لم أرتب في أحلامي أن أجلس هنا وحدي . . على حافة العالم بدون علي . . تحت شجرة لم أكن أعرف اسمها فيما مضى . . لم أخطط باحتمال واحد من مليون من الاحتمالات أن يدوس الناس الحصى مشياً على الأقدام ، فيجعلني ذلك أبتسم من الأسى ، بدلاً من المشي مع علي وقت الغروب . .

سمعت خطى عمتي فريدة فوق الحصى ،وجمرة السيجارة مشتعلة في فمها . . لم تعد تهتم بأن تدخن في الشارع لأن لا أحد يهتم هنا . . فعلاً لا يلاحظها أحد حتى وإن ألقت على الأرض بعقب السيجارة . . جلستْ قربي على المصطبة .

وفي يدها علبة مصغرة من عشر سكائر لكي لا تكثر من التدخين . كان منظرنا يشبه فتاتين استقرت بهما الحال فوق هذه المصطبة بعد يوم صاخب . كان مشهداً يختصر حالة كل امرأة تنفست الحرية خارج بلدها . . الشمس الباردة تغرب ، ثم تختفي وراء قرميد البيوت ، وأشجار لا أعرف أسماءها تختصر بؤس الغربة . . صحيح أنها جميلة ، وتُزيّن لنا عذوبة هواء الحرية ، ولكن من أنا؟ ، وماذا أفعل هنا؟ ، وهل حقا أنا هنا بعيداً عن جنون الشمس والنخيل والصيف؟

صحيح يمكننا أن نرتدي قبعة في ساحة خضراء ، وأن ننحت رجل ثلج في باحة البيت . . ولكننا لا نعرف أحداً ولا يعرفنا أحد ، وبوابة البيت لا يدخل منها سوى الماضي الذي يفتح كل الأبواب برهاوة . . كل مصابيح المنازل المجاورة مضاءة . . والأولاد مع عوائلهم في الداخل . . ومن هذه المصابيح الصفراء تبدأ الغربة . . من بيوت الجيران المضاءة الجميلة ، والتي لا يمكن لها أن تحط من شأن بيوت بلادي حتى وإن أصبحت أثراً بعد عين . على الأقل لدينا بيت يهتم به هاني الذي لا تعطف عليه عمتي لأنه لم يعد وسيماً ، وفكرتُ لو أن عليّاً قد نجا من الحادث بعد أن ارتطم رأسه بمروحة الهليكوبتر ، لكان يمكن أن يعيش بوجه مشوّه ، فهل

كنت سأتوقف مثلاً عن حبه؟ .

كنت أتوقع من عمتي أن يكون تعريف البيت لديها واحداً لا يتغير . . «رحت لبيت الله مثل بيتي لا والله» . . ولكن عمتي فريدة أصبحت تتصور كثيراً ، وتتغير كثيراً . . لديها سفرطاس من التعاريف تتجدد محتوياته كما تشاء ، وبدأت أشك بانها تريد للأوضاع أن تتحسن في البلاد ، وبهذا تبرر لنفسها بقاءها بعيداً عن الهم والغم . . حيث يمكنها الخروج ، وهي ترتدي باروكتها كستنائية اللون ، وتتمشى بملابس فاقعة في شيمبلز وسط مدينة يورك ، وهو أقدم شارع في أوربا كلها . . عمره ٨٠٠ عام ولو مررت به لشعرت أنك في العصور الوسطى .

(١٨)

يا حبيبي كان زمان

في طريق العودة من يورك إلى لندن ، استعدتُ وجه أمي التي أصابها الشلل فكنت أواسيها بالغناء :

يا حبيبي كان زمان طلعة الورد بأوان

كانت تقول لي :

- صوتك جميل يا حبيبتي . . ظلي غني لي . . الغناء مفيد للصحة والعمر الطويل .

طوال طريق العودة بالباص من يورك الى لندن والاغنية

ملتصقة ببالي كالعلكة :

يا نعيمي لما هلت شمس نورك ع الليالي

نورتلي ، صورتلي ، جنة أجمل من خيالي

يا غزالي وانت خالي ، شوف جرالي ما جرالي

غصب عني رحت أغني ، واشتكيت للورد حالي

وجه أمي اختفى . . وحلّت محله حفلة بنّاتية بامتياز . . امتلأت فيها المنافض بأغلفة المارس والكِت كات ، الضحك والهرج كله مع لعبة اسمها من غير كلام . . والقرائح مفتوحة إلى درجة انمسحت معها أطباق التّبّولة والفنكر والفتوش ، أما لفات الهمبركر والستيك والسكالوب فتُركت أنصافها حفاظاً على الرشاقة . حتى حمالات الصدر ، خُلعت ورُميت من تحت القمصان بسبب الحر الشديد الذي شعرت به البنات بعد الرقص . . بل إن أصوات ماكنات نزع الشعر ترددت ، ومعها أصوات مجفف الشعر من الظهر وحتى نهاية المساء . . حياة المرأة ، كما كانت تقول عمتي فريدة ، تبدأ بالشَّعَر وتنتهي به . . فهي تزجج حاجبيها يوم السبت ، وتنظف فوق شفتيها يوم الأحد ، وتزيل شعر أيديها يوم الإثنين . . وبين الثلاثاء والجمعة هناك مئة شعرة وشعرة تنمو في أمكنة مختلفة ، فتعود تلك الحشائش لتحريك

الملاقط والمكائن من جديد . . وحتى عندما ترتدي المرأة السروال أو الحجاب ، فإنها ستنافح لهندمة وزهزهة ما تغطى من شعرها وجسمها ، مغبة حدوث انفجار أو عاصفة تُطيّر الإيشارب أو غيره . . وإذا كانت العيون الخالية من الكحل هي أشجع علامات الجمال لديها ، فإن الحواجب الكثيفة ، برأيها ، هي أجمل علامات الرُّقي . . فحاذروا أن تضحوا بشعرة واحدة منها ، أو تستبدلوها بالتاتو ، وعليكم بزيت الخروع من أجل أن تبقى كما يجب ، أي أن تكون مرسومة بخط غليظ ومتقن .

كنت أعرف أن هذه الحفلة مبالغ فيها من أجل أن أنسى ولا أتذكر . . لم أكن أرقص . ولا أريد أن أسافر . .

- هل أنت مجنونة؟ ماذا يوجد لديك هنا؟ ماما دادا؟ . . لقد حصلت على هذه المنحة بشق الأنفس . . وعمتك فريدة الفريدة من نوعها تنتظرك هناك في لندن .

- ماذا عن النجار؟

- ما به النجار ، يا جنان؟

- لقد طلبت منه أبواباً جديدة للبيت يا هلا . بيضاء وفيها زجاج ملون . . أنا أحب أن أتناول الطعام ، وأنا انظر إلى باب فيه زجاج ملون .

ـ هناك ستجدين كل الأبواب الجميلة التي تحلمين بها . . أما هنا ، فتشترين الأبواب الصينية ، وتجعليها تبدو كالرقعات داخل هذه البيت القديم . جربي الابتعاد عن هذه الفوضى يا جنان . جربي السير في شارع طويل دون أن تتعثري بالحفر أو يتحرش بك شاب من أسقط الساقطين .

لم أجد باباً واحداً هنا يطرقه أحد يبعث الفرحة في نفسي . . ولا وجدت حديقة أيضاً . . تركت كل شيء ورائي! وكلما مر الوقت تزداد الصور التي تستدعي الألم . . حتى في الشارع الطويل الذي يمتد من الجامعة إلى بيت عمتي ، أصبحتْ الغربة تهلكني بعد أن تحول بقائي هناك من سفرة سياحية إلى رحلة طويلة ، ثم دراسة ، ثم تفكير بالهجرة . . تحولت إلى اليمين ، للذهاب إلى الجامعة . . وكانت ذراعي معلقة في الفراغ . . لم أعد أحلم بها معلقة بذراع آخر . . لم يعد هذا ممكناً أن يحدث ، ولا أن أراه مرة أخرى ، هل هذا ممكن؟ لا أبداً ، غير ممكن .

كيف يا ترى تجرأتُ على مغادرة البلاد؟ . . كيف أنام أنا قريباً من شجرة لا أعرف اسمها ، وليس تحت النافذة التي تتدلى فوقها أغصان أشجار الرارنج والبرتقال . تلك المخلوقات التي كان جزءاً من نفسي ، كيف سمحتُ

بتركها؟ . . ولماذا أخذَتْها الغربة مني؟ في بداية الشتاء سمعت صوت أول دوي للرعد . . . والشجن لا أعرف معناه ، ولكني أحسه فقط . . وفيه تنتقل الروح من جفاف الصيف إلى طراوة الشتاء . . . . . . خلال فصل الشتاء اشتقت لبغداد . . ولحديقة البيت .

تطلعتْ إلى فترة من الراحة عند عمتها من أجل البقاء عندها شهراً أو اثنين . أما وقد تحولت رحلة الاستجمام إلى سفر طويل ، فقد شعرت جنان بأنها سوف تضيع ، وكل شيء تحبه سوف يضيع . متأكدة أنها رأت نفسها هناك وليس هنا ، مع جمع غفير ممن تعرفهم ، ولكن كيف السبيل إلى العودة لبغداد؟ . يجب أن تتصل بأحدٍ ما هناك . يجب أن تكون هناك طريقة للرجوع .

(١٩)

رائحة الخريف

كيف ومتى

هطلتْ ثم محلتْ

ثم تشرّدت غيماً في البريد؟

جاء الربيع ، هدية الزمان للانسان . واحتلت جانو مكان الصدارة في رأسي . كان وجودها مثالاً آخر على النجاة من الهاوية ، حتى وإن كان وهماً . . . . فكيف إذا تحول هذا الوهم إلى حقيقة . . حاصرها شاب في الزقاق الذي يمتد

بين بيتها ، والشارع التجاري الذي يوجد فيه محلي . . ومن بين عدة رجال يتواجدون في محلاتهم تلك الساعة ، استنجدت بي بعيون دامعة لكي أُخلّصها من ذلك الشاب الذي لاحقها بكلمات جارحة . . صعد الدم الحار إلى سمت رأسي ، وبعد قليل أصبحت على الجهة المقابلة للشارع ، وبقفزة واحدة إليه أدرك هو ما سوف يفعله هذا المجنون الذي يجري خلفه . . تفلشت دنيا بأكملها فوق الجدار الذي ناء بثقل جسمه الضخم ، وقاده حظه السيئ إلى أن يكون سبباً بحظ حسن ، عندما استنجدت بي جانو في ذلك اليوم ، فدارت في رأسي فكرة واحدة كالنبوءة تقول بأني سأمنح لها الأمان والمتبقي من عمري . منذ فترة طويلة لم أجرب شوق انتظار صباح اليوم التالي ، ومتى سيأتي هذا الصباح . . شعور ينتابني للمرة الأولى مع جانو . . وهو شعور قريب الشبه بإحساس يوم الخميس في المدرسة . ريتا المصورة قالت لي مرة بأنك إذا ما أحببت قميصاً بجنون فمن المستحيل أن تجد مقاسك . . وطوال الوقت كنت أخاف أن تنطبق نظرية ريتا على جانو ، فيحجبها عني عشقي لها بجنون . . . . . .

مُنْحتُها كانت ستبدأ في شهر سبتمبر من السنة الدراسية الجديدة ،وكان الوقت يمر بسرعة كبيرة بين الربيع والخريف . .

أصبحت مهامي تتمدد وتتجدد ، من طلبات الترجمة وتعبئة الاستمارات ، إلى حجز رحلات الطيران واستخراج تأشيرات الدخول . أصبحت أكثر السفارات وشركات الطيران تعتمد شبكة الإنترنت في تخليص معاملاتها . . والبعض يعتبرني تعويذة الحظ ، ويريدني أن أكون ذكياً في الالتفاف على المعلومات الدقيقة . . أقول لهم إن النجاة في الصدق . . وإن أجهزة الإنس والجن موجودة في قرية العالم الإكترونية من اليابان وحتى رومانيا ، وأي قصة كاذبة ، يتم كشفها ، سيُحظر على صاحبها عشر سنوات على الأقل من دخول الكثير من البلدان ومنها بريطانيا . . ليتها تُدلي بمعلومات كاذبة لكي تُحظر من دخول بريطانيا إلى الأبد . . ليت نفط العالم ينفد فجأة ، وتنغلق حنفياته اللعينة ، فتتوقف رحلات الطيران في جميع الخطوط .

اتصل أبي من الفلوجة وسألني :

- هل تذكر صديقك أركان؟ لقد سألني عنك ويريد زيارتك ، ولا أعرف ماذا أقول له؟

- أعطني بعض الوقت يا أبي ، وسأجيء وأزور الجميع؟

- ألا تكفي هذه السنوات وانت بعيد عن الجميع؟ ألا تفكر بزيارة عماتك وأعمامك؟ أنا أتحجج بشتى الحجج

عندما يسألونني عنك ، وأولهم طارق .

حتى اسم طارق لم يعد يعني لي شيئاً . . طارق الذي اقترن اسمه بمخلوقة اللذة ، لم يعد اسمه يثير فيَّ نشوة عرفتها أيام المراهقة ، فأنا مشغول بأمر آخر له نشوة مختلفة ، وإحساس مختلف . كانت ثمار البرتقال والرارنج التي تتعلق بالاشجار على شكل كرات صغيرة لا تزال خضراء داكنة اللون ، عندما جاءت جانو من أجل حجز الرحلة . . وحملها صوت أذان الظهر العالي على التوقف والانتظار بضع دقائق قبل أن تقول :

- هل لديك فيزا كارد ، بحيث تستطيع أن تحجز لي رحلتي عن طريق حسابك في البنك الأمريكي ، ثم أدفع لك أنا المبلغ نقداً .

- نعم .

هكذا يفعل أكثر المستعجلين للهروب من هذا الحجيم ، أو اللحاق بسعادةٍ ما تنتظرهم في إستراليا أو أمريكا أو كندا . . . . أصبحتْ هناكَ مجموعة مكتملة لكل حلم . . تبدأ بخروج الابن أو الابنة ، ثم ينفرط العقد بأكمله وينتقل البيت الى حالة الصمت أولاً ، ثم إلى حالة تدهور الجدران وتقشُّرِها ، يتبع ذلك تَحوّل الغرف المزينة باللوحات والمصابيح إلى

خرائب تتعرش عليها بيوت الحشرات وخيوط العنكبوت . وبعد تسعة أشهر من أول مرة لها في هذا المكتب ، لم أظن أن جانو ستركب المركب نفسه ، ومنّيت النفس بأنها ستغير رأيها عندما يحين الأوان ، وتترك فكرة السفر .

- هكذا بهذه السرعة ستغادرين؟

- سيبدأ العام الدراسي بعد أيام ، وأريد أن أكون موجودة في حفل التعارف . . أعتقد إذا وصلت متأخرة عن ذلك الحفل ستتضاعف غربتي ويزيد ارتباكي . .

. . . .

- هل تعتقد أنه من السهل فتح حساب بنكي هناك؟

- لم يعد سهلاً كما السابق . . ولكن بالنسبة لطلاب الجامعات أعتقد أنه أمر مفروغ منه . .

- هل يمكن أن أطلب منك شيئاً؟

- طبعاً أطلبي أي شيء .

- أشجار الفاكهة في حديقتنا كلها مثمرة ، وكذلك هناك ورد كثير بأنواع مختلفة . . أريد أن أوصيك بسقيها كلما سنح لك الوقت بذلك . فأخوتي جميعهم سافروا ، وهديل أيضاً ستسافر بعد زواجها الوشيك .

عندما سألتْني وقالت: "هل يمكن أن أطلب منك شيئاً" ، شعرت بأن روحي قد طارت خلف عاصفة هوجاء من الهواء . . تبعثرت في كل مكان ، أما عندما ابتسمت لي بامتنان ، وتحرك رأسها جانباً كالعصفور ، فقد انطمس قلبي خلف واد ليس له شكل ولا حدود . كان الربيع هو موعد استنجادها بي لإنقاذها من متطفل . . وحمل نهاية الصيف شيئاً جديداً لي . . صوتها قريب جداً ، وتضع عطراً طيباً ، أما تنفسها فكان مسموعاً بحيث بدأت حواسي تجتاز طريقاً كالنزهة بين عطرها وصوتها ، صحيح أني أحب قراءة الكتب ، وأتأبطها في الرواح والمجيء ، لكن لا أعرف الكثير عن الحياة مع الناس من مسافة قريبة ، وعندما كانت أمي ليلو تحوش زهور البابونج من البرية ، أو كان أبي يضع جرة الماء لتبريدها فوق سياج السطح ، كنت أنا أقوم بتقطيع خشب الصاج من أجل مساعدة خالي النجار في صنع وتركيب الأبواب . . يبدأ العمل في الساعة الثانية ظهراً وينتهي في التاسعة ليلاً . . أحمل ألواح الخشب إلى الورشة ، ثم أقوم بوضعها بين فكي مكبس قوي حتى تصبح جاهزة للتقطيع . والدي كان سعيداً أن ابنه الوحيد اخذ يعتمد على نفسه ، إلا أن والدتي كانت تطمح أن يصبح ابنها طبيباً مشهوراً ، وطلبتْ مني ان أتوقف عن العمل مع أخيها النجار ، فاستجبت لها

بعد ان استطعت ادّخار مبلغٍ من المال .

تقطيع الخشب ليس كتقطيع أوصال حساسة كالقلب والروح ، ولا دق المسامير بالمطرقة يشبه دقات قلبي وأنا أنظر إليها . . بياضها مائل للشحوب ، وجسدها الحلو يشبه فاكهة النومي الحلو البارد والبض الذي كان أبي يغسلها في ماء الساقية من أجل أمي التي تحبها . . فاكهة رقيقة القشرة لا توجد سوى في العراق ، وتحبها النسوة على وجه الخصوص . . وكنت أخجل من البوح بمحبتي لها لئلا يكون بانتظاري لقب من الألقاب الجديدة التي يماحكني بها أقرباؤنا . . فقد تأخرت أمي في قص ضفائري ، وتفنن أهلها بإطلاق ألقابهم الخشنة والخالية من الذوق عليّ .

لم يسبق لي حتى أن طاردتُ فراشةً ، أو مسحت ألوان أجنحتها لمنعها من الطيران ، ما بيني وبين النساء هو دمية الطين التي صنعها صديقي أركان في مراهقتنا ، والتي تنمو عليها الحشائش في الربيع ، والآن ارتعشت بفعل الجذل ، وطرحتْ فراشة غضة نفسها في متناول يدي ، ليست خائفة مني ، ولا تهرب مني إلى وردة أخرى . . ولكي يؤكد لي حسن الحظ ما غمرني به من نشوة ، فقد كانت قد قالت صباح الخير بالرغم من أن الوقت كان مساء ، فضحكتْ ، ثم

استدركتْ ، وقالت :

ـ لا أخرج إلاّ إلى عملي في الصباح . . ولهذا لم اعتد القول سوى صباح الخير . .

«صباح الخير» بطريقة جديدة ، وزمان مختلف ولذيذ ، كل ذلك جعل الدم يفور في عروقه ، والقلب يرتجف مثل السعفة . . صحيح يمكنه أن ينظر إلى وجه فتاة جميلة ، وأن يحبها من النظرة الأولى ، ولكن جانو كانت جميلة بشكل غير معتاد ، يفوق الوصف ، جمعتْ ماء الجرة والساقية والنهر في كلمتَي صباح الخير اللتين قالتهما ، فتبللت العروق ، وأشرقت أمام ابتسامتها المضيئة كالشمس عندما قالت بعد قليل وكأنها تسخر من نفسها :

«هههههه . . صباح الخير!!»

نعم صباح الخير يا جانو ، كل أوقاتي معك هي صباح الخير ، وتمنيت أن يستمر هذا الصباح إلى الأبد ، عندما قالت لي بعد قليل :

ـ هاني بلا زحمة أريد الحجز إلى لندن مباشر مو ترانزيت .

لم أتمكن من العثور على حرف واحد أنطق به في حضرة ذلك الزلزال . . إنها تعرف اسمي جيداً ، هذا متوقع . . ولكن

من غير المتوقع أن أتمكن من سماعه بهذه الطريقة . . من غير المحتمل أن أسمعه مع ضحكتها الخافتة وتحية صباح الخير في يوم واحد . . هذا يشبه حلماً من أحلام الفجر تودعني به قبل الرحيل . . مثل هدية وداع تضم كلمات فائقة الجمال مع باقة من الأزهار . . كانت رائحة الزهور تصعد من مكان خفي إلى الخيال والجنون ، إلى أعلى وأسفل . . إلى النومي والإجاص والتفاح . . إلى الماء البارد والدافئ . . إلى الجدول الخابط والنقي . . إذا كانت قد لاحظت ماذا حدث لي ، فقد كان هو السبب في ابتسامة طافت كالريش فوق هواء من الصمت ، تبعها سؤال حطم آخر لحظات سكينتي :

- هل صحيح أنك شاعر؟
- . . . .
- لماذا تبكي؟

مر في حياته الكثير مما يجعله يحب الحياة ، يعيش في انسجام تام ، ويتنفس في انسجام تام . . ولكن هذه هي المرة الأولى التي يشعر فيها بأنه قد عشق نفسه ، كمن دخل إليها ، فوجد هذه الطفلة تجلس في قلبه المرتجف . . هذا الظل البارد تحت شجرة عجفاء . . . عشّه لم يزره أحد ، وبياناته لا يعرفها أحد . . أين يعيش؟ . . ماذا يأكل؟ . . كيف يشعر

بهذا الوجه الذي شوهه الأمريكان ، ولم تنظر له بحنان سوى جانو؟ بل وجعلت دموعه علامة من علامات يوم العيد . .

كذبتُ عليها ، وقلت بأنه دمع يسببه التهاب في العين . . ، وفي الحقيقة أنني كنت فعلاً أبكي بدموع لا اسم لها . . بكيت أمامها ولأجلها بدموع حقيقية .

- لم تجبني على سؤالي؟ هل صحيح ما يقال بأنك شاعر؟

- نعم ، أنا شاعر .

- كم جميل هو الشعر .

- الأجمل منه ما يجعلنا نقول الشعر؟

- وما هو الشيء الذي يجعلنا نقول الشعر؟

- ما نتمناه ولا نصل إليه .

- هل الشعر نقيض الاكتفاء إذن؟

- إنه مزمار السائل ، حتى يجاب سؤاله .

- وإن أُجيب سؤاله؟

- ستبقى تباريح العذاب . لأنه لا يريد التعافي .

- ألن استمع إلى نغمة من نغمات المزمار؟

عندما تضجر رجلي من المشي . . أكتب

وعندما تضجر يدي من الكتابة . . أقرأ

وعندما تضجر عيناي من القراءة . . أنظر إليك

وعندما أنظر إليك

لا أضجر أبداً . .

ابتسمتْ ، وسرتْ حمرة خجل في وجهها ، وظلت نظراتي مصوبة نحوها وهي مطرقة . . بل أن ماحدث بعد ذلك كان غريباً لا ينسى . . عجزتْ عن الكلام ، فاستدارت ومشت ، وأنا أنظر إليها حتى وصلت البيت . . عيوني تسبقني إليها ، وأنا جالس في مكاني قرب الباب . . أشعر بألم في رأسي كنتلات الكهرباء منذ أن أجروا لي خمس عمليات في رأسي . . وعندما آخذ قسطاً من الراحة يقل هذه الألم . . كانت الوخزات هذه المرة خافقة تأتي من القلب . . تحيطني وتختصرني في سعادة واحدة لا تكفيني للأبد ، بل لأكثر من أبد . . جلست أرتاح قرب جهاز الاستنساخ ، وفكرت ما هي صلتها وصلة الناس بالشعر؟ ، ولماذا يستغيثون بالشعر في الحزن والمسرات؟ . . هل يعوضهم عما انقطع بينهم وبين الفطرة ، أم أنهم لا يجدون الكلمة المروية بالماء إلا من خلاله؟ .

جلستُ أراقب المارة وابتسامة النشوة لا تفارق فمي ، والمارة أنواع . . منهم من يرتدي ملابس أنيقة للغاية ، ومنهم من يرتدي الأسمال والثياب البالية . . في الحالين يخرجون ويصلون إلى مبتغاهم ، وفي الحالين يسلمون عليّ ، وأرد لهم السلام . هناك من يومئ إليَّ بطرف عينيه ، وهناك من يكون سلامه احتفالياً جميلاً كرفعة العلم يوم الخميس . . وهناك الذي لا يرفع يده بالسلام ، أو قد لا يسلم أصلاً ، وهو الحزين المهموم . . الذي لا يرى العالم إلا من خلال فكرة حزينة في رأسه . أي لا يرى العالم إلا بطبع نفسه .

كم خشيت أن يكونوا قد لاحظوا بأني أتحدث مع نفسي . لماذا الأمل وأنا أبحث عنك يا جانو؟ لماذا الألم ونحن معاً . . أنا لا أفهم ماذا يحدث لي . . فعلاً أنا لا أفهم ماذا يحدث . . ولماذا انتهى بي المطاف هنا بالذات ، لكي أكون قريباً منك . . ومن دجلة أيضاً .

هل حقاً تسكن بالقرب من دجلة يا هاني؟ نعم يا ريتا أسكن بالقرب من دجلة . . هل تعلم أنني ذُهلت عندما رأيته في بلدكم؟ أنا ظننته موجوداً في القصص والملاحم فقط ، ولم أظنه يجري على الارض حقاً . . اشتقت اليه فابعثْ لي بصورة لك مع دجلة . . سأضيفها إلى الفلم الذي

صورته عنك . . هبطتُ إلى الشاطئ ، ووقفت قريباً من جسر الأعظمية ، وكان الوقت غروباً . . لا تقترب كثيراً من الماء يا هاني لأن ثعابين الماء تكثر في هذا الوقت من السنة . . ومن الأفضل أن تصوره بالفيديو لكي اسمع خرير الماء . . أنزلت الفيديو على حسابي الإليكتروني في الفيسبوك ، فعلقتْ ريتا ، وقالت ما أجمله خرير الماء . . أجبتها ، وقلت تمام وربي تمام .

أخيراً . . هب الهواء فتطايرت الفساتين ، وتحرك ريش الفاختة ناتئاً إلى أعلى في مناطق قليلة من الرأس والجناحين . . الهواء يغنّي وأنا أغني . . مرة لأني شاعر ، ومرة لأن كل شيء من حولي يشعر . . والشعر لا يطيب له الغناء إلا مع عاشق صب ذاق مرارة العشق والألم . . . وحكاية الشعراء مع المراة واحدة :

يتأرجحون من الألم

لأن المعجزات التي كان ينبغي أن تُعاش

كتبوها حبراً على الورق

(٢٠)

فريدة وجنان وضربة حظ

على رصيفَيْ شارع أكسفورد تنتشر المحلات والمغازات ذات الأسماء العالمية . . تتخللها بعض الكافيهات التي أجلس فيها أحياناً لاحتساء الكابتشينو الذي أحبه كثيراً من أجل رغوته البيضاء . . لقد اكتشفت أن هاني يحبها أيضاً عندما أعدَّها لي في محله من كيس جاهز وماء ساخن . . وأخبرني في ذلك اليوم عن الموسيقى التي يحبها ، وهي التي ترتبط عنده بمكان معين . . قال لي إن الانفجارات تحدث في الشوارع منذ عشرة أعوام ، وعقولنا ترفض أن

تجعلها تمكث في الذاكرة لتحيلنا إلى ذكرى معينة . . فهي ليست أكثر من أصوات بشعة لا تترجح كفتها على أصوات جميلة بعيدة كهدير البحر أو صفير القطار أو نفير السفن ، وأخرى قريبة ، كالترتيلات والأغاني وزقزقات العصافير .

هنا في أسواق لندن كانت الموسيقى عندي ترتبط بالمكان . . فكنت أتجول أكثر في القسم الذي أحب موسيقاه ، أفضّل أن لا يكون المكان مكتظاً ، لأشعر فيه بالاسترخاء . وهذا لا أجده في الكثير من متاجر شارع أوكسفورد حيث يعلو الصخب ، ولا تستطيع أن تسمع نفسك عندما تتكلم ، فكيف بالحديث مع موظفي المبيعات في المتجر؟ . . هه . . يصنعون الضوضاء ، ثم يضعون السماعات فوق آذانهم لسماع ما يريدون . . السماء ليست زرقاء ، والتماثيل شديدة الدكنة ، ومحلات الورود تكسر بألوانها هذا العالم الداكن والمسقف بالغيوم ، وتجعله يبدو كما لو كان رسماً انطباعياً .

اليوم الطقس جميل . وشعرت بتدفق الطاقة إلى حد الفوران . نزلت أبحث عن ملابس جديدة لي . . مرت الساعات وأنا لا أشعر بالتعب . . السوق هو المكان الوحيد الذي لا تشعر المرأة فيه بالتعب ، وإذا كان المال موجوداً

سيختفي التعب من الوجود . . أما إذا تخلل الجولة غداء داخل السوق ، فتكون المتعة مضاعفة ، بل إن مثل هذا اليوم شبيه بالحصول على مكافأة كبيرة بعد أسبوع ممل ومتعب من الدراسة . تقول عمتي فريدة لم يتغير شيء تقريباً في شارع أوكسفور للتسوق . . فقط لم تكن في السابق تشتري من محلات ماركس آند سبنسر ، والآن تشتري منه . وكان هناك الباص الذي كانت تدفع أجرته بالنقود ، والآن هناك بطاقات اويستر التي يجب تعبئتها من أماكن خاصة قبل الصعود إلى الباص . . أما بريمارك ، سوق البضائع الرخيصة ، فأصبحت النساء العربيات بالنقاب والحجاب يتكوّمن في طوابير الدفع أمام كاشيراته . فيجعل ذلك عمتي تشعر بأنها في سوق سهام العبيدي المجاور لسيد الحليب . . .

واصلنا السير حتى وصلنا محلات (أو أم) الشهيرة لبيع التسجيلات . . هناك حدثت الطامة الكبرى عندما وجدت عمتي صورة لبربارة سترايسند على واجهة المحل . . تظن عمتي أنها تستطيع الحفاظ على شبابها مثل هذه الفنانة التي بقيت هي نفسها لم تهرم منذ أن رأتها قبل ثلاثين عاماً على زجاجة المحل الذي يحمل لوحة مرسوم عليها كلب يقف أمام جهاز كرامافون قديم . قرب المحل يوجد شحاذ

يستجدي النقود بغناء أغنية ماي واي لفرانك سناترا . . وهذا المغني ، مع توم جونز وأنجلبرت هامبردينك ، كان من المطربين المفضلين لعمتي وباقي فتيات بغداد في السبعينيات . . هذا لا يمنع من كونها تحفظ عن ظهر قلب أوبريت (بيادر خير) الذي قدمَتْه شوقية العطار مع فؤاد سالم في العراق عام ١٩٦٩ .

- عمتي ، هل بربارة سترايسند أصغر منك؟

- لا يوجد من هو أصغر مني في الدنيا كلها . كلهم أكبر مني . وعمليات التجميل هي التي تجعلهم يبدون أصغر سناً ، وأنا لا أقصدك طبعاً يا حبيبة قلبي؟ ولكني أقصد كل واحد يغار من القيصر ، ويتمنى له الموت . . مثل بروتس الأدبسز .

وصلنا محطة الباص حيث كانت يرتفع أمامنا القوس الشاهق المسمى ماربل آرج . ويقف في الزاوية مراهق ومراهقة يرتديان شورتات قصيرة جداً ، ويقبّلان بعضهما البعض ، وكلٌّ منهما يداعب الظهر المكشوف للآخر .

- عمتي ، أشيحي نظرك عنهما؟

ضحكتْ وقالت بيتاً من الشعر لا أدري من أين جاءت به :

شربت الهم لما قلت بس عاد كافي

سموني الأهل بَسعاد واختي كافي

دار الزمن وصرت أشرب الموكا بكافي

واتفرج على البوس بهالبريه

الشارع يضج بالحركة ، وناس من مختلف الأجناس يستقلون الباصات التي اصطفت على رصيف المحطة بانتظار الصاعدين اليها ، وهناك أيضاً نظرتْ إمرأة عربية إلى شعر عمتي السافرة باستنكار ، وهي نفسها التي تجاوزت طابور الانتظار ، فاستشاطت عمتي غضباً وشتمتها . يا عمتي عبرنا الشارع قبل قليل مع اشتعال الضوء الأحمر ، فلماذا تتعاركين الآن مع امرأة عربية أخرى ، تجاوزت طابور الواقفين عند صعودنا إلى الباص؟ . . قالت تلك المرأة العربية :

- وشحكّه عصّبتي؟ إهدي حبيبتي إهدي . .

لو كانت قد قالت لعمتي يا (كلبة يا ابنة الكلب) ، لكان ذلك أهون عليها من (إهدي) هذه . . (إهدي) كلمة بالغة الاستفزاز لعمتي ، مما جعلها تثور وتعربد وتصرخ بها . .

- تنظرين لشعري وأنا من القواعد ، وتطلبين أن أهدأ وأنا من المجانين . . لن أهدأ . . سآخذك للشرطة يا صدمة الجرح القديم . .

هههههه . . ما معنى صدمة الجرح القديم ، ياعمتي؟ ، لم أشأ الإفصاح عن سؤالي لئلا تشملني بكل المفردات التي لا زالت تعرفها بالرغم من انها ارتدت باروكتها الكستنائية ، وأصبحت تتحدث كالخواجات ، ولكني ضحكت ، وبقيتُ استرجع تلك المعركة ، وأنا أشعر بالاستغراب مما أصبح يحدث هنا وفي كل مكان . . كل واحدة منهما تريد الحصول على الجواز البريطاني بأي ثمن ، وفي الوقت نفسه تريد للندن أن تكون مقبولة حسب عرفها . . حتى الشيء الوحيد الذي كان يجمعهما في السبعينات أو الثمانينات قد تبخر ، لأنه عندما نزلنا من الباص دخلت عمتي بعد تلك المرأة ، التي تعاركت معها ، الى محلات مارك آند سبنسر .

تفصلنا عن أيام الكرسمس أكثر من شهرين ، ولكن المحلات بدأت تعلن عن بضاعة هذه المناسبة وتتزين بالأحمر والأخضر ، إنها تقدم الزمن شهرين عن موعده . . وحسهم التجاري الهائل يُفرغ حمولات مبهرة من العروض وصناديق الهدايا وشرائطها ذات الألوان القزحية المدهشة ، والتي قرأت مرة أنها تُبذر بما يكفي للدوران حول محيط الكرة الأرضية أكثر من مرة . هه . . أنا أيضاً ، كما يبدو ، ألقي العظات ، وأفكر بلندن أو أحكم عليها حسب عرفي . .

حط بنا الرِّحال أخيراً في مطاعم دبنهامز التي تحبها عمتي كثيراً ، لأنها الوحيدة التي تقدم طبق الفش آند جبس الشهير . . . السمك طري خفيف محاط بقشرة خارجية مقرمشة مع البطاطا المقشرة المحمصة مع الزبدة بحيث تصبح لها رائحة لذيذة في الأنف وطعم ألذ في الفم . . ولمحبة هذا المكان سبب آخر أهم من الطعام بكثير . . ففي ذلك المتجر الفخم تم اللقاء قبل شهور بين عمتي وخبيرة العطور موظفة متجر تاتون في دبنهامز . كانت سيدة مشهورة ومضرب المثل بالاناقة والجمال ، وبسببها حصلت عمتي على ربع مليون جنيه استرليني كتعويض عن شرائها كريم معطر قالت لها الموظفة إنه غير معطر ، وبالتالي التهبت بشرتها واحمرت بشكل مرعب . . كان أقصى ما تحلم به عمتي كتعويض عما حصل ، هو مجموعة كاملة من منتجات الرفع والشد ومسح التجاعيد ، تعيدها شابة مئة عام أخرى ، أما أن تحصل على هذا المبلغ المرعب ، بعد دعوى رفعها لها محام شاطر ، فقد أصبحت لا تنام خوفاً من اللصوص . .

كنت قد قلت لها بالهاتف قبل سفري من بغداد :

- لماذا تقلقين والفلوس بالبنك ، يا عمتي؟

- ولكن اللصوص لا يعرفون بذلك ، ويجب أن أجعلهم

يعرفون أن الفلوس ليست معي .

- وكيف هو السبيل الى ذلك؟

- بأن أصرفها .

- وكيف تصرفين ربع مليون جنيه إسترليني دفعة واحدة . .

- البيت الجورجي هو الحل .

البيت الجورجي في بريطانيا هو الذي شاع بناؤه في عهود ملوك أربعة كان كل واحد منهم يُدعى جورج ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، والتصاميم التي وُضعتْ في تلك الفترة كانت منضبطة جداً ، على عكس نظائرها من العصرين الفيكتوري والإدواردي . ، ولهذا فالمنازل المفضلة أكثر في بريطانيا هي منازل العصر الجورجي ، وما يزال العديد من صائدي المنازل يبحثون عن تصاميم جورجية محاطة بالمناظر الطبيعية ، وكان البيت الذي اشترته عمتي من النوع الحديث المشيد على الطراز الجورجي ، ولم يكن عالي الثمن كالمنازل الأصلية . . فأوفى المبلغ الذي معها برغبتها لشرائه .

لم تظن أن فاتورة أول كريم غالي الثمن اشترته في حياتها سيعود عليها بهذا المبلغ الخرافي . . في الأفلام يتحول

مثل أولئك الأشخاص إلى شخصيات كاريكاتورية ترتدي الريش ، وتلتهم الدجاجات المشوية بشراهة . أما عمتي فكل الذي فعلته هو شراء البيت الجورجي . . واسترجاع قطعة من روحها ، هي ابنة أخيها جنان التي تحبها كثيراً . .

لم يخطر ببالي قطٌّ أنّها ستدفع هذا المبلغ الضخم لكل ما يترتب على سفري من بغداد الى لندن وإتمام دراستي للدكتوراه . . حساب في البنك . . شقة صغيرة لكلينا . . وحماسة منقطعة النظير للحياة كنت قد فقدتها . . ومثلما استرجعتْ هي قطعة من روحها ، تركتُ أنا أيضاً قطعة من روحي في بغداد . . تركت بعضاً مني هناك . . مع أصوات شبكة الصياد على صفحة النهر . . ومع دوي الرعد وقت الخريف . ومع مخلوقات الحديقة التي يرعاها هاني . .

فجأة قررت عمتي أن تؤجر ذلك البيت الجورجي الفخم ، وتنتقل للعيش في شقة ، معتبرة ذلك البيت استثماراً تعيش بإيجاره باقي العمر . . شيء غريب فعلاً أن تفضل الشقة على البيت ، وهي التي تطل على شارع مزدحم صاخب بأصوات الشاحنات والسيارات . . كلما دخلنا إليها لا نجد على رف البريد الكئيب سوى فواتير البلدية والإنترنت والضرائب . . راح زمان السبعينات الذي كانت من أسعد لحظاتها فيه

قدوم الرسائل مع البريد وساعي البريد بزيّه الأنيق . . . وكانت الرسائل تصلها من أمها التي فارقتها بعد الزواج ، وليس عن طريق البريد الإلكتروني . . وما داموا قد اصبحوا عبيد الكومبيوتر ، كما تقول ، فهي الآن ستعيش بينهم على طريقتها الخاصة . إنها تريد خداع أبو ناجي* . . قالت لي :

- إنهم يبيعون لك خزانة رفوف صغيرة أو كبيرة . . لكي تمتلئ بعد أيام بكل أنواع الخرك والمرك ، جربي أن تستغني عن تلك الرفوف ، ستحتارين أين تضعين محتوياتها التي هي بالأساس قلاقيل فائضة عن الحاجة . . . بالمختصر المفيد سأترك هذا البيت الجورجي القديم ، لكي أتوقف عن شراء الأغراض الفائضة عن الحاجة لهذا البيت الفخم .

اعتزمتْ فجأة أن لا تدفن جوهرها الصافي تحت سخف وسقف هذه الإضافات التي تواصل تكاثرها وتحولها إلى قلاقيل وفوضى قاتلة . ستنتصر على (أبو ناجي) بثمن بخس ، وستشتري منتجاتها الطبيعية القديمة من النشأ وماء الورد . . تخلطها في قدح صغير ثم تجمّدها ، وقبل أن تنام تمررها على بشرتها الذابلة لكي تصبح أكثر إشراقاً وحيوية . . يجب أيضاً أن تنتبه لحدبة ظهرها ، فتمشي بظهر مستقيم ، ولعروق الدم في كفيها ، فترفع يديها دائماً عند التقاط

الصور . . وبهذا ستحارب العولمة التي اخترعت شركات التجميل والشباب الأبدي . كما كانت تواصل شرب الشاي المجاني من محل ابتكر هذه الطريقة لجذب الزبائن . . ولم تكن عمتي تجعله يربح فلساً واحداً من دخولها المحل لشرب الشاي ، تقول إنها إذا فعلت ذلك ستسمح للرأسمالية بتحقيق أهدافها التنافسية الماكرة ، وستُرجّح كفة صاحب المحل على كفتها ، وهي لن تسمح له بهزيمتها ، وستشرب الشاي المجاني وهي تقول :

- ماكو شي ببلاش؟ هذا أبو ناجي يعرف شلون يقشمر* العالم . . خلّ يصبرلي . . أنا هم أعرف شلون أقشمره* .

(٢١)

في قصر الملكة

عمتي لا تخرج من البيت قبل التأكد من أمرين اثنين : إطفاء الطباخ والمكواة ، هذان هما الجهازان اللذان يسببان الحرائق . . أما السخان والتدفئة المركزية فيعملان بالكهرباء . . حان موعد حمامها الكلامي . . القصص الغريبة تحيط بنا ، وعمتي تذكرني بها لكي لا نجعل أبو ناجي يضحك علينا ، ولم أكن أعلم بأنني سأظل أضحك طويلاً في ذلك اليوم الذي قررنا فيه الذهاب لقصر الملكة .

قالت :

- ظهرت لي جدتك في المنام أياماً عدة . كانت تعرج في مشيتها ، وتقول لي كافي عاد صارت بلا ملح* . كافي عاد صارت بلا ملح . قصة جدتك معروفة للجميع . . ذات يوم بعيد عاكَسَها بائع متجول يدور بين البيوت ببضاعته من الملح الخشن فوق الجمل . . وأَسمعَها بعض الكلام الجريء على شكل بيت شِعر عن القلوب التي فتك بها الحب ، كانت رائحته فتاكة ، فهجمت عليه وقلبت له كونية الملح من ظهر الجمل ، وأفرغتها كلها على الأرض . . تلك البقعة البيضاء أصبحت تحمل أكثر من معنى . . معنى العدوان ومعنى رد العدوان . . والأخير هو الذي علَق ببالها طوال الوقت ، فكانت تشعر بالزهو وهي تعيد ، للرائح والغادي ، حكايتها مع بائع الملح الذي سفكت مِلْحَه ودمه على الأرض . وحتى عندما أحلم بها الآن ، وطقم الأسنان يتقلقل بين فكيها ، أراها تضحك وهي تعيد حكاية الملح .

- فريدة خانم . . . هل أنت بخير؟

- طبعاً بخير . ألسنا ذاهبين إلى قصر الملكة؟ هههه .

لدى وصولنا ، كانت عمتي فريدة من أوائل الداخلين إلى القصر ، كانت تريد التجوال فيه بمعزل عن الآخرين ، واستكشاف القاعات والأقسام الرسمية ، مع الغرف الخاصة

المفروشة ببذخ ، وكنيسة سانت جورج ، مكان دفن عشرة من الملوك ، بمن فيهم هنري الثامن . ولأن وصولنا كان في النهار ، ولاستقرار الأحوال الجوية ، فقد استطعنا حضور مشهد تغيير الحرس ، وهو حفل يقام منذ قرون ، ويحدث في أيام معينة . تمشينا في مواقع وحدائق خلابة ، ومن ثم عدنا لزيارة قصر باكنغهام ، وهو المقر الرسمي لعمل الملكة إليزابيث الثانية . . تعرفنا على التاريخ من خلال غرف مذهّبة ، ومفروشات رائعة وبعض كنوز المجموعة الملكية والتي تشمل لوحات كاناليتو وفان كوخ وبعض الخزفيات الفاخرة . ،ولأن قصر باكنغهام يستضيف العديد من الأحداث الملكية الرسمية ، فإن هذه الجولات مفتوحة للجمهور فقط خلال فصل الصيف ، وثمة طلب كبير للغاية على التذاكر ، لذا كان يجب التأكد من الحجز في وقت مبكر ، ودفع مبالغ باهضة من أجل زيارة القصر ، لم تكن متاحة لولا فوز عمتي بمبلغ التعويض . وكان هناك ضمن برنامج الرحلة جلسة شاي مجانية في الساعة الرابعة عصراً ، وتتكون من الشاي الإنكليزي التقليدي مع مجموعة مختارة من السندويشات الصغيرة ، والكعكات الدائرية الصغيرة التي تقدم مع الكلوتد كريم الذي تعشقه عمتي عشقاً متناهياً ، لأنه أقرب أنواع الكريم إلى القيمر العراقي ، إنْ لم يكن هو نفسه .

- المباني على حالها منذ مئات السنين ، والأشجار جذورها متينة في الأرض .

- هذا التاريخ هو نتاج عقود من الحروب واستعمار الشعوب المغلوبة على أمرها .

- لا تقولي لي إنهم سرقوا آثارنا أيضاً . فهم الذين اكتشفوها ، ولهم الحق في الحفاظ عليها . . لو كانت موجودة لدينا لاعتبرها الداعشيون أصناماً ، ودمروها كما فعلوا في نمرود وتدمر .

- وهل كانت داعش موجودة قبل حربهم على العراق؟

- هل تريدين القول بأن داعش لم تكن موجودة في عقول العرب قبل الحرب؟

- حتى لو كانت موجودة ، فقد وجدت في الحرب شرعيتها .

- وهل الحرب هي التي جعلت هؤلاء الحمقى يظنون أنهم على حق؟ .

- نعم مثلما ظن الأحمق توني بلير بأنه كان على حق؟

بدأنا النقاش في منتزه وانتهينا مع ضابط بوليس . . كنا قد خرجنا من قصر الملكة وذهبنا نتجول في أمان الله عبر الممر

العريض لريجينت بارك الذي تحيط به المصاطب الخشبية ، ويتجول فيه المتنزهون مع الكلاب والسناجب . . وفجأة نظرتْ عمتي الى أرض مليئة بأوراق الأشجار المتساقطة . . وهو منظر تحبه عمتي الى درجة جعلها تصرخ بأعلى صوتها :

- الله . . أريد أن أفجر هذا المكان .

ما حدث بعد ذلك كان مريعاً . . وصلتْ رائحة المطاط إلى أنفي . . الأمهات يتراكضن في جميع الجهات . . والراكضون من ممارسي الرياضة طاروا بلمح البصر . . اللي شايل نفسه . . اللي شايل زمزمية . . اللي شايل صديقته . . كلهم صاروا يركضون ويواصلون الصراخ الذي أمتد ليشمل المناطق المحيطة بالبارك . . المكان سيتفجر . . لندن ستحترق . . إرهابيون . . إرهابيون . . إرهابيون . . . . كانت عمتي لا تزال تصرخ الله الله . . ما أجمل هذا المكان . . ماذا يحدث . . توقفوا أيها الأوباش . . . أنعل أبوكم يابو اللي خلّفكم . . كافي عاد . . ترة صارت بلا ملح . . وبعد خمس دقائق كانت الشرطة قد أغلقت البارك ، وجاءت لتُلقي القبض علينا .

- ماذا حدث؟

- نحن آسفون جداً أوفسر . . عمتي صحيح تجيد

الإنكليزية ، ولكن ليس بطلاقة البي بي سي ، كانت فقط تريد القول أريد استكشف explore المكان ، وليس explode .

ظننت أن الضابط سيبتسم ، ولكنه لم يفعل :

- سو يو وونت تو أكسبلور ذا بليس ، نوت أكسبلود إت .

- نعم ونعتذر بشدة عما حصل .

- أي كلام تقولونه الآن قد يستخدم ضدكم ومن الأفضل الالتزام التام بالصمت .

جملة اعتدنا أن نسمعها في الأفلام فقط ، وبفضل عمتي فريدة ، فقد سمعناها حية ينطقها الضابط الإنكليزي ، وهو يقتادنا لتحرير محضر بالحادثة قبل إطلاق سراحنا لأسباب إنسانية . . عمتي استعملت مَكرَها قليلاً ، وقالت إن الفطريات والدمامل تملأ فمها وبلعومها ما يجعلها لا تلفظ الحروف بشكل صحيح . . كانت كذبتها متقنة إلى درجة أنها صدقت نفسها ، وراحت تتمضمض بالماء والملح إلى أن يجي موعد الطبيب . . صحّتها تراجعت بعد تلك الكذبة ، وبين مواعيد الانتظار كانت تنتابها الوساوس والكوابيس . . . وهذا شيء من الطبيعي أن يحدث بعد تحليل دم واحد ، فكيف الأمر

مع عدة تحاليل للدم والقولون والمعدة والكولسترول وهشاشة العظام؟ . . ومع كل تحليل شامل ، تطلب تحليلاً آخر لفحص ومراقبة البول . . بقيت مصرة على فحص الكلى والمثانة إلى أن عثروا على نقطة دم تحت المجهر ، فحولوها إلى السونار فكانت الكلى جيدة ، أعادوا لها السونار للمثانة وايضاً كانت على ما يرام . . حوّلوها لطبيب اختصاص وكتبوا لها مستعجل ، فجاءها الدور أول البارحة ، وبعد تحليل جديد ، أعطتها العيادة موعداً بعد ثلاثة اسابيع . . والحمد لله يمضي وقتها وهي مشغولة بمواعيد الذهاب الى العيادة ، وأنا أنتظر موعداً للذهاب إلى بغداد من أجل بعض المراجع .

- فعلاً نظام الطب هنا مزعج جداً ، وانتظار موعد طبيب الاختصاص قد يستغرق عدة أشهر . . عندنا العلاج أفضل بكثير . . متى ما أريد أذهب لأي طبيب أو مستشفى أو مركز صحي ، ونوبات ماكو داعي للقدَغَة* ، لأن مجيد المضمد ، هو الذي يعطيني العلاج .

خفتُ أن تعاود فكرتها عن خداع العولمة ، والضحك على(أبو ناجي) ، ولكن العمر له أحكام ، والصحة لا تقدر بثمن ، وبما أنها قد تجاوزت السبعين من العمر ، فمراجعة العيادات أصبحت هوايتها المفضلة ، والمفاصل هي قرة

عينها ، وحركة الأمعاء هي قضيتها الكبرى . . وحتى بعد أن ادّعت أنّ فمها قد تبربر من الدمامل كان عليها أن تذهب للطبيب وتتأكد بفحص شامل وعام . . من غير المعقول أنْ أَطلق دماغها هذه الكذبة دون أساس من الصحة .

(٢٢)

قصائد هاني

أَقَلْبُك نبضه أخرس؟

أم أن قلبي سمعه أطرش؟

تعادلنا في الصمت عندما كانت هي بعيدة ، ولكن الأمر كان مختلفاً جداً في يوم السفر . . تحججت بأن لي صديقاً سيصل اليوم إلى بغداد من أجل أن اقترح عليها المساعدة في طريق المطار . . فهل وافقت لأ نه لم يتبق لديها هنا أحد ، أم أنها استساغت الفكرة ، وأحبتها فعلاً؟ . الصمت بيننا له

إيقاع غريب في ساعات الصباح الأولى ، وطوال الطريق ثمة روح حطت بيننا ومنعتنا من الكلام . . . أخيراً وصلنا ساحة عباس بن فرناس ، وسألني العسكري هل أنت مسافر معها؟ جاوبته بلا ، وقلت له :

- هل استطيع الوصول معها الى نقطة التفتيش؟
- لا ، ممنوع .

أنا أعلم أنه ممنوع . . ممنوع أن أراها أبعد من ساحة وقوف السيارات ، فنزلت معها عند الباص الذي يأخذ المسافرين إلى بهو المطار ، وحملت لها الحقائب دون أن أنبس بكلمة واحدة . . هي أيضاً نسيت أن تسألني أين هو صديقي الذي سيصل للمطار ، ومتى سيصل؟ ، وحتى بعد أن استقرت في مقعدها لم تنطق بكلمة واحدة ، أو تبالي . كيف يمكن تفسير صمتها . . سوى أنها نحلة مستقرة بين أحضان وردة لا تريد أن تفارقها . . ودّعتها دون أن أحادثها أو أنظر إليها ، وابتهلت إلى الله أن يجعلها تفكر بي في لحظة واحدة تقع بين لحظتين من تفكيرها بفتاها علي ، هيا فكّري بي يا جانو . . هيا فكري بي يا جانو . . أنا موجود يا جانو . . أنا أحبك يا جانو . وبعد لحظات أحسستُ بأن باب السماء انفتحت وجعلت منها امرأتين . . واحدة التفتت إلي عندما

تحرك الباص ، وواحدة تضع يدها على وجهها ، والدموع تنزل بغزارة من عينيها . . رحت أمشي خلف الباص الذي كان يستدير باتجاه شارع المطار ، ثم توجهتُ لمكان توقعت أن الباص سوف يمر منه بعد دقائق من أجل دفع النقود . . وبالفعل مر الباص من هناك ، وتوقف دقيقة واحدة قبل انفتاح البوابة الإلكترونية للممر . . صارت هي في طريق ، وأنا في طريق ، لا أملك شيئاً أفعله سوى السكون التام لاستبقاء آخر لحظة من لحظاتي معها في هذا الممر .

قبل أن تتحرك السيارة مرة أخرى أخرجتْ جانو يدها من النافذة ، وقالت :

- هل معك منديل يا هاني؟

بهذه الجملة توقف الزمن على أجمل نداء ممكن . . . تحول الممر إلى مقر عندما أعطاها هاني المنديل . . وابتسم لها من خلف الدموع ، ولم يكن هاني يرغب في الدنيا بأكثر من ذلك النداء ، أو ذلك الاحتفاء . مسحت دموعها ثم أعادت له المنديل ، فغسلت بتلك الإشارة كل شيء سيِّئ من حياته . . هزت كيانه كله ، وجعلته يسمع ، بذلك النداء نبضات قلبها للمرة الأولى . . اكتفى هاني بهذا الجزء من جانو . . بأن استودعته منديل دموعها على بغداد وعلى

حبيبها علي ، وربما عليه أيضاً . . فعاد إلى البيت وهو يشعر بذلك المنديل يكمل أي نقص ممكن في حياته .

لن ينقصني شيء بعد ذلك . . فاذهبي بألف سلامة يا جانو .

وجدت نفسي أقلد حركة شفتيها أثناء البكاء ، غير طامع بأبعد مما حصلت عليه . . بضعة دقائق فقط والبقية لا وجود لها . . أي أن أعيد مع نفسي آخر ما رأيته من وجهها قبل الرحيل ، عندما قسمت قلبها اثنين ، وأعطتني واحداً منهما مع منديل مسحت به عيونها العسلية من الدمع . . لماذا الكلام بعد ذلك . . أحب الجلوس في شمس الضحى . . أغمض عينيّ أكثر مما أفتحهما ، وأحياناً أتحسس مكان الغرزات في رأسي وجبهتي ، وأمسح شقوقاً طولية أخرى لجروح قديمة لا زالت تحكّني بالرغم من أنها التأمت منذ سنوات طويلة . . في داخلي يوجد إحساس مريح واحد . كنت متاكداً أن جانو ستعود يوماً ما وتأتي لزيارة البيت مرة أخرى . .

هي لا تسمعني عندما أكتب أو أتحدث . . لا تسمع ما كتبت . . لأن عمتها هي التي تهاتفني . . وتعطيني بعض التوصيات . . أشعر بأني متوتر للغاية ، ولا أدري ماذا أفعل ،

مع طغيان المشاعر التي تجرفني بلا سبب محدد سوى أني ، بالرغم من حزني لفراق جانو ، كنت سعيداً بتلك الإشارة القدرية التي جاءت منها . . وبعد سفرها بساعات كنت أسأل نفسي هل هي الآن فوق باريس أو روما ، أم لا تزال تعبر البحر الابيض المتوسط في طريقها إلى لندن؟ .

أيقظتني تلك الوخزات ليلة أمس من النوم ، وخفت أن أحكّها لِئلا أهيج مكان الغرزات الأخرى في رأسي . . من الأفضل تركها دون حك ، والبحث في رأسي عن شيء آخر . فتح أبي نيون الهول بالرغم من حاجتي للنوم . . راح يقلب محتويات الجرار :

- أبي عن ماذا تبحث؟
- عن أبوويه اللي خلّفني .
- أبتي قل لي ماذا تريد؟
- أبحث عن مفتاح بيتنا في الفلوجة . لقد وضعته هنا .

في الصباح لم أتفاجأ برغبة أبي في ذهابي معه . كان عصبياً ، لأنه ، وفي كل مرة يطلب مني ذلك ، أقول أنتظر حتى تهدأ الأوضاع . . هذه المرة قال لقد هدأت الأوضاع يا ابني وهناك أمر مؤجل يجب أن نفعله معاً في بيتنا بالفلوجة ،

وقد آن الأوان لإنجازه . . نزلنا أنا وأبي سلم شقتنا المؤدي الى الحديقة ، وتمشينا سوياً حتى نهاية الزقاق ، وما أن استدرنا ، حتى توقفت سيارة متهالكة أمام المكتب نزلت منها مسرّة . . مسرة لم أرها من مدة طويلة ، ظلت تزورني بعد عودتي من أمريكا ، ثم انقطعت :

- هلووووووووو هاني .
- مسرة؟ لم أتوقعك .

قبلتني بعد أن احتضنتني . . قالت :

- أنا سعيدة جداً برؤيتك مرة أخرى .

ليست هذه هي المرة الأولى التي تتأجل فيها زيارتي للفلوجة . . أبي تركني منزعجاً من عدم ذهابي معه ، ومن مجيء مسرة ، وغادر على أن ألحق به فيما بعد . . فهو منذ أن تزوج من ابنة عمته الأرملة ، تشوش ونال منه التعب ، فلم يعد يأتي إلى بغداد كثيراً . . قبلته وضحكت معه قبل أن يغادر ، فزالت عنه عصبيته .

زارتني مسرة هذه المرة بحرية أكبر ، وإن كانت متخفية داخل سيارة قديمة . . لم يكن الأمر كذلك في عامَيْ الحرب الأهلية ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ حين كانت ، كما أخبرتني ، تتّبع القواعد الأمنية الصارمة للسفارة الأمريكية ، وكانت

منظمتها حذرة بشكل كبير الى درجة أن واحداً فقط لا أكثر من طاقمها العراقي قد اختفى في طريق المطار دون أن يعثروا له على أثر . . وبعد تلك الحادثة زادت احتياطاتها الأمنية ، وأصبحت تتنقل من منزل لآخر خائفة أن يكون السائق المخطوف قد أدلى ببعض المعلومات عن طريق التعذيب . . أصبحت لا تخرج من بيتها كثيراً في تلك الفترة ، بعد تعليمات مشددة صدرت لها بأن تبقى متوارية عن الأنظار . . ولكن الأمر اختلف في الأعوام الثلاثة الأخيرة ، وهذا اليوم جاءت من أجل عبير وعلاء أولاد بيداء التي ماتت حرقاً في انفجار . أنا الذي اتصلت بها ، واخبرتها بحالة الأسرة . . فوصلتْ على الفور ، وطلبت مني الذهاب إى بيتهم . .

لم أكن أريد أن يراها أبي ، فيعرف بأني لا أزال على اتصال بأعضاء منظمات أمريكية حكومية أو غير حكومية . . يعتبرهم كلهم عملاء للسي آي أي ، وكلهم أعداءنا ويجب قتلهم . . وقد تفاقم عنده هذا الإحساس عندما شهد شاهد من أهلها ، وسمع في إحدى الفضائيات قائد سلاح الجو الإسرائيلي يقول بأن الحديث عن التهديد النووي العراقي بدأ عام ١٩٧٦ ، لكن لم يُتخذ قرار إسرائيلي للتخلص منه حتى عام ١٩٨١ . وقد كشف أحد عملاء جهاز الموساد

الإسرائيلي عن أن معلومات أمنية واستخبارية وصلت إلى إسرائيل من داخل العراق عن تحضيرات المفاعل النووي ، والمراحل التكنولوجية التي وصل إليها ، الأمر الذي ساعد إسرائيل على تنفيذ عمليتها العسكرية لضرب المفاعل . . تم ذلك عبر وسائل استخباراتية في جمع المعلومات ، بما في ذلك تجنيد بعض الخبراء الأجانب ممن عملوا في المفاعل النووي العراقي . وكان ضمن الضحايا تقني فرنسي عميل للمخابرات الإسرائيلية ، وذلك التقني هو مَن ساعد إسرائيل في وضع جهاز تنصّت داخل المفاعل . ولهذا ارتأى الموساد التخلص من عميله .

الغريب أن مسرة ، التي تعرف هذا عن أبي ، تدافع عن وجهة نظره ، وتقول :

ـ التمرد شيء مشروع ضد الاحتلال . . وانضمام هذا التمرد للقاعدة كان خطأً من أخطاء الأمريكان ، وليس المقاومين .

ـ حتى عندما يضعون جميع الأمريكان في سلة واحدة .

ـ التفريق بين المدنيين ، والمرتزقة الذي يعملون لصالح الجيش الأمريكي والمخابرات والشركات الأمنية

المشبوهة ، أمر صعب للغاية في هذه الفوضى . . أنا نفسي كافحت لكي تكون منظمتنا مستقلة عن المنطقة الخضراء . . ولكني مضطرة للتنسيق مع الجيش الأمريكي في بعض الحالات ، كحالتك التي أبلغوني بمتابعتها بعد عودتك من رحلة العلاج في أمريكا .

مسرة هي التي عرضت عليّ أن أبدأ مشروع عمل صغير في التجارة أو الحرف اليدوية ، ولكني فضلت أن أفتح هذا المكتب الصغير للاستنساخ والطباعة والترجمة . . وكنت أحاول من خلاله أن أساعد الراغبين في الهجرة أو السفر على سحب أوراق البيانات ومن ثم ملئها بمعلوماتهم باللغة الإنكليزية . بعد انقضاء سنوات العنف الطائفي ظلت مسرة تتبع قواعدها الأمنية الصارمة . . كل مرة تأتي مع سائق مختلف ، وتستعمل طريقاً مختلفاً . . تضع الحجاب على رأسها بالرغم من كونها مسيحية . . كانت نحيفة جداً وشديدة البياض ولها غمازة لطيفة على خد واحد . . تلك الغمازة كانت تظهر وتختفي مع حركات فمها ، وأنا كنت لا أستطيع أن أرفع عينيّ من النظر إليها أول أن تعارفنا . . كنت أحبها ، من طرف واحد ايضاً ، وكباقي الرجال كانت تتملكني روح الرجل في محبة النساء وامتلاك أكبر عدد

منهن . . وهذه الروح تتملك الشعراء على وجه الخصوص ، وتشف عما هم فيه من عشق دائم للنساء . . ومسرة كانت ذلك الغزال الضامر الذي جعل عيوني لا تنام ، وإنْ نامت اكتسحتها أحلام شهوانية للغاية . . أما جانو ، فكانت أول قطفة من الدنيا بعد الاستيقاظ من النوم الطويل . . إنها دنيا جديدة لا أعرفها . . وليست دنيا البارحة . . . . البارحة كنت أتفرج على غمازات مسرة ، التي تظهر وتختفي بشكل ساحر ، واليوم لا أريد أن أفكر بشيء أو أرى شيئاً سوى جانو . . وها أنا اليوم مع جانو أفتح عيني على روح جديدة حلت بي من داخل نفسي ، فأملَتْ علي أن أكون بصورة أخرى لا علاقة لها بأجساد النساء التي تتعرى أو تبقى بالملابس الشفافة . . أليس هذا غريباً أن يحدث لشاعر؟ وأليس غريباً أني أواصل كتابة القصائد بهذه البراءة عن جانو . حبيبتي وحكايتي ودنياي الجديدة التي حلّقتُ إليها ، ولم أصل إلى أي شيء .

حتى الملائكة مشغولة ببني آدم

فلا تحلّق إلا واطئاً . .

إذا ما نبذت زينة العش

(٢٣)

مكالمة هاتفية

هاني هو الوحيد الذي انتبه لشيء لم ينتبه إليه أحد غيره . سألتني عمتي بأي لون أُحب طلاء أظافري؟ . . هل نكتفي بطلائها بلون واحد ، أم نضع فوقها بعض الرسوم والزخارف تماشياً مع الموضة؟ . . . . سألتني عمتي هذا السؤال ، وهي تنظر إلى أصابعي بإمعان ، ثم لم تنتبه إلى الفراغ في بنصري حتى بعد انتهاء مهمتنا الطويلة لطلاء أظافري ، وانشغالها أثناء ذلك بالحديث عن فكرة تراودها عن تكليف هاني بطلاء البيت من الخارج ، لكي يبدو مسكوناً ، فلا يسيطر

عليه المهجّرون أو النازحون ، أو ترتاب به الشرطة . . كما أن رائحة البيت المصبوغ تطرد الفئران والسحالي والحشرات . . . قالت عمتي :

- أنت تعرفين قصته طبعاً . أين تنظرين يا جنان؟

- طبعاً أعرفها ، كيف تفكرين بتكليفه بطلاءالبيت؟ ، يكفي أنه يتابع سقي الحديقة مع أنه غير مجبر على ذلك .

- ألا تعرفين أنه معجب بك؟

- لم ألحظ ذلك أبداً . .

- عليّ أنا الكلام ده . .

- عمتي لا تتحدثي بلهجات أخرى أرجوك .

- هديل تقول كان يتحجج بشتى الحجج من أجل أن يطرق الباب ويسأل عنك . . مرة بحجة النيون الخارجي المكسور ، ومرة بحجة معرفته ببستانيّ جيد يستطيع أن يشذب الحديقة ، وعندما لمّحت له بالهاتف حول فكرة الطلاء ، كدت أن أسمع قلبه يتراقص طرباً من الفرح . .

كل الحجج التي ساقتها عمتي لا تصل إلى انتباهةٍ تَحركَ لها قلبي عندما كان يتناول من يدي بعض الأوراق . . بدا وكأنه يتمرد على محاولة كبح جماح نفسه طوال الوقت . .

وشعرت منه بإشارة خفية تجعلني أبتسم مع نفسي كلما رأيت أصابعي . . وبينما كانت عمتي لا تزال تنفخ عليها لكي يجف الطلاء ، كنت أنا أتذكر يوماً بعيداً عندما ذهبتُ لمسح الغبار عن الأخشاب ، ومشاعري خليط من التوتر والسعادة ، مثل شعر متشابك دون تمشيط . . . كنت سعيدة خلال الحوار الذي دار بيننا أنا وهاني ، والغريب هو أن السعادة كانت تقترب مني كلما رأيته ، ويلم بي حماس للحديث معه . عادة ما ينتهي الحوار مع كل الناس باحساس بالوحدة يثير الأسى في نفسي . . . ولكن هاني استطاع التغلب على الحزن العميق الذي شعرت به في ذلك اليوم ببيت شعر قاله لي ، وأنهى به الحوار ، جعلني أعود إلى البيت لكي أقف وأواجه نفسي . وعندما بدأت بمسح الأخشاب نظرتُ إلى يدي ، وخلعت خاتمي . . كنت أريد أن أعرف من سينتبه إلى خلع خاتم ذهبي لم أخلعه منذ عشر سنين . . مستغربة مما أفعله وأنا أخلعه من أجل تجربة طرأت على بالي لتُعرّفني وتؤكد لي بأن ما من أحد سينتبه . . وفعلاً وحده هاني من انتبه إلى ذلك ، واستقرت عيونه على مكانه الفارغ مثل جرح أبيض . . اقتربت عيناه أكثر ، ثم مس إصبعي بإصبعه ، في مكان الفراغ الذي تركه الخاتم ، وكان هذا أول تغيير يضطرب له قلبي منذ أن شبك علي أصابعه بأصابعي قرب النهر .

ليس جميــلاً . . هذا صحيح . . لكنـهُ أنيق جداً ، ويعوض بأناقة ملابسه عن غرابة وجهه المقطب في عدة أماكن ، وفيه أكثر من أثر للعمليات الجراحية التي أجراها في أمريكا . في ذلك اليوم انتبهت إلى أن بيته يقع في نهاية زقاقنا ، وأنه يسكن وحده في ذلك الطابق المقتطع ولا يتزاور مع أحد . . أما باقي القصة فمعروفة لي ولباقي الجيران . فاسمه ارتبط لديهم بفتى جميل الروح يقرظ الشعر ، أكثر من ارتباطه بوجه مرقع . . وأنا لم أكن أراه قبيحاً ، بل كان مختلفاً ، ورائحته الطيبة حركت أحاسيـسي بطريقة مختلفة ، مما يعني أنني سأفكر به والداً لطفلي المنتظر . وأن أجعل جماله المكنون يظهر ثانية إلى الوجود . . فعندما كنت صغيرة حلمت بأن أكون حرة وجميلة مثل ساندي بيل التي عشقها مارك الوسيم . . وذلك حلم انتهى بموت علي ، فاستبدلته بحلم آخر هو أمومتي لطفل جميل مثل علي ، ولا يمكن أن أنجب هذا الطفل إلا من رجل قيل إنه كان آية في الجمال والوسامة . خزان الماء العالي الذي يزودنا بالماء الصافي هو المكان الذي صعد إليه هاني من درجه العمودي المخيف . . وعندما وصل إليه ووجد له موطئ قدم في نهايته ، قال لي مشتاق إليك ، أريد أن أتزوجك ، فاستيقظت من النوم .

وبقيت أحلم به بعد ذاك طيلة الوقت، ولا أدري ما هو بالضبط ما أشعر به نحوه، فقط عندما أراه يفرغ المكان من كل شيء عداه، حتى جاء اليوم الذي خلعت فيه خاتمي، فكان هاني هو الوحيد الذي انتبه لذلك، وقال لي:

- أين خاتمك يا جانو؟

لم ينبته إلى أصابعي فقط، ولكنه ناداني في ذلك اليوم باسم فائق الجمال هو جانو.. ولا حتى عمتي التي قامت بتجفيف الطلاء عن أظافري انتبهت لغياب الخاتم بالرغم من أنها كانت تفعل ذلك بحرص شديد وكأنها تؤديه ايفاءً لنذر، مما يعني أنها غير مستقرة، وأنها بمجرد طلب مني أو غمغة للخروج، نهضت.

أبعد قليلا على الطريق المبلط مررنا تحت أجمة من الأشجار، واختفى عدد قليل من المنازل، أعرف أين تتوجه.. هناك بيت ريفي قريب يبيع الديفون كلوتد كريم.. وهي قشطة كثيفة القوام ولذيذة كانت تباع في المتاجر خلال الثمانينيات، وحالياً لا تعثر عليها إلا بشق الأنفس.. مما جعل عمتي تذهب من أجلها لقصر الملكة اليزابث، وتدفع مبلغ التذكرة الباهظ. رأينا عربة تقف على الجانب الأيمن من الطريق أمام بيت صغير.. عمتي تمشي ببطء شديد،

وأنا أفسح المجال لأفكاري التي تكاد أن تفصلني عنها . . في كل خطوة تخطوها تغمغم وتقول :

- هشة الدنيا باردة .

في طريقنا على طول الممر الضيق بين الفناء والبيت المحاط بمزرعة ، كانت هناك شجرة تفاح تَقوّس جذعها على شكل علامة استفهام ، وفجأة وجدنا أنفسنا نتوقف تحت علامة الاستفهام ، وبدا علينا الاستغراب لمنظر الشجرة في هذا الفناء المليء بأشجار التفاح ، ظهر لنا رجل مسن فجأة وقطف لنا تفاحة . . بقدر ما انتشلَنا من حيرتنا ، بقدر ما أوقعنا في حيرة أخرى . . إنه يقف تحت شجرة السؤال ، ويقدم لنا تفاحة كبيرة . . ويقول :

- أهلاً سيدتي . . الطقس جميل . . أليس كذلك؟

- نعم عزيزي . . علمت ذلك . ألا ترى كيف أتجمد؟

- إليك بهذه التفاحة . . كيف لي أن أساعدك؟

مسكت عمتي التفاحة ، ثم استنشقتها ، وحبست الهواء في صدرها ، وبعد قليل رمتها بعيداً مثل رمانة يدوية موقوتة ، وقالت ، وهي تزفر الهواء :

- هذه التفاحة عفنة ، وأنا جئت من أجل الديفون كلوتد كريم .

ركضت القطة التي وقعت التفاحة على ظهرها من بين قدمي الرجل المسن إلى كوم من القش على الجانب الآخر من المزرعة ، كانت هناك حظيرة للدواجن هاجت وماجت بسبب الركض المفاجئ للقطة ، والعربة ، التي كانت تقف خارج البيت ، فزع حصانها ، وانطلق بها وبداخلها الصبي الصغير روس مع عجل ناصع البياض . نادى روس أباه لكي يساعده . بعد قليل ظهر طفل في حوالي العاشرة من العمر ، مرتدياً قبعة من القش . . ركض من المدخل إلى العربة ، ورائحة تشبه رائحة الحمص المسلوق أصبحت تملأ المكان . الأب المسن أيضاً ذهب لتهدئة الأبقار والدجاج . . لم يبق سوى طفل في الثالثة من العمر لم يتحرك من مكانه ، تقدمت عمتي وقالت له :

- هل والدتك في البيت؟

هكذا انقضت ليلة باردة أخرى لنا في لندن . . وبعد أيام جاء روس الصبي لإنزال برنامج سكايب على لابتوبي ، كنا قد انتظرناه يومين متتاليين من أجل أن يأتي . . توقعت عمتي حدوث كارثة . . فقد يكون أبوه قد تكردح خارج أسوار المزرعة ، أو تكون القطة قد ماتت؟ ولكن روس أكد لنا أن والده بخير ، والقط عندهم بتسع أرواح وليس سبعاً . . فجعل

عمتي تفتح عينيها ، وتقول لي :

- لا تعجبي من القط كيف نجا سالماً ، أليس سيده (أبو ناجي)* .

كان الصوت الأول الذي سمعته من السكايب هو صوت هديل أختي الصغرى . . أما في الصباح فكان أخي رياض يطرق باب السكايب بنكتة ثم صورة . الاتصال بالعالم المألوف أزال بعض الهمّ الجاثم على صدورنا . . سندّعي أننا لسنا هنا . . وأننا هناك مع بعضنا البعض كما كنا دائماً في البيت . كم كانت جميلة لَمّتنا في البيت؟ . . يا ترى هل ستعود مرة أخرى؟ . . هل يمكنني استعادتها في درجة من درجات الخيال . تبادلنا الصور التي أصبحت كثيرة وتأتي من جميع بقاع العالم . . بدت وكأنها تمسك المفتاح وتديره في صندوق كنز يدخل إلى دنيا من السعادة ، ولكنها في الحقيقة مخلوطة بالحزن ، وتقف لنا بالمرصاد لتذكيرنا بمكان واحد جمعنا قبل أن نتفرق في تلفات الدنيا . .

أخي الأكبر زياد كان قد استقر في باريس ، وأول رسالة وصلتني منه ذكر فيها اسم هاني وقال : تحية طيبة . كيف حالكم؟ أنا الان في باريس ، تسمى أجمل مدينة في العالم ، ولكنني لا أفكر بها كذلك . في الحقيقة شعرت بالذنب

لما اختفى منظر مدينة بغداد تحت جناح الطائرة ، وكنت أشعر بالذنب أيضاً ، لإني حاولت أن أضيف لقصتي بعض المؤثرات التي لم يوافقني عليها هاني . . هل تذكرين تمام يا جنان؟ . . تمام التي كانت تأتي عندنا أحياناً . . والتي تصادقك وتصادق كل الناس؟ اكتشفت أنها تعرف هاني . . هذا الشاب غريب الأطوار بالإضافة إلى غرابة وجهه . . لقد أرسلتْ لي صورتها وهي تقف معه قرب باب المحل . . هي تضحك ضحكة عريضة ، وهو صامت وحزين .

(٢٤)

حديقة بيت جانو

فكرتُ أن الطبع يغلب التطبع ، وهذا الطبع البدائي للأرض سرعان ما يميل إلى الظهور ما أن نترك الحديقة غير مشذبة لشهر واحد فقط ، حينذاك تظهر الأدغال والأعشاب الضارة لتطرد ما زرعته أنت من ورود ونباتات ذات أسماء معتبرة . . البيت أيضاً قد توحّش ، وشعرتُ بأنه فعلاً يحتاج إلى طلاء . . ويبدو أن البيت الذي لا يقرع جرسَه أحدٌ ، لا يمكن أن يكون جنة . . كرات البرتقال والرارنج الخضراء قد نضجت وتحولت الى صفراء وبرتقالية اللون . في الهاتف

أوصتني فريدة عمة جانو أن يكون البيت في عهدتي ، ليس خوفاً من اللصوص ، فهؤلاء يأتون في الليل فقط ، ولكنْ خوفاً من المهجّرين ، ومداهمات الشرطة التي قد ترتاب في بيت فارغ ، فتكسر بابه .

أما جانو فلم يسبق لي أن حادثتها بالهاتف ، وإذا هاتفتني سأخبرها بأني كنت أفكر بدهن واجهة البيت قبل أن تلمّح لي عمتها بذلك ، ولمجرد أن أفتح باب الحديث معها للقادم من الأيام ، سأتبرع للقيام بهذه المهمة عن طيب خاطر . . . رأيت جانو في منامي وهي تغمس قطعة كعك في الشاي ثم قبل أن تضعها في فمها أخطفها من يدها وأضعها في فمي . . تفاءلت وشعرت بالسعادة ، وكادت تلك السعادة ان تقضي عليّ . . . . بقيت لا أعرف أن أتمالك نفسي . . وكيف أتمالك شيئاً ملكَتْه جانو في الحلم واليقظة . بالطريقة التي نطقت بها اسمي . . بسؤالها لماذا بكيت؟ ، بضحكتها الخافتة بعد أن قالت صباح الخير في وقت المساء ، بالدموع التي اودعتها عندي لأنها كانت ستسافر . . شعرت بالشوق لها حتى قبل أن تسافر . . وقبل السفر بأيام لاح بعض الأمل ، وشعرت بأن قلبها قد انتبه وخفق لي أخيراً . كانت قد خلعت خاتمها الذي لازم يدها طوال الوقت . . سألتها

عن ذلك فقالت . . أنت الوحيد الذي انتبه إلى ذلك .

علّقت بذلك الكلام المفاجئ على انتباهتي . . فكانت تلك الانتباهة هي المفتاح الذي استدار وجعلني ألمس مكان الخاتم في إصبعها . . شعرت لأول مرة برجفة الآباد التي كادت أن تطيحني من أبد إلى أبد آخر . . فقد طلبت مني أن أعيد على مسامعها اسمها الذي اخترعتُه لها (جانو) . . مشاعري هي التي تدفقت تجاهها عبر كلمة مفردة واحدة هي جانو . . يا له من فأل حسن لي أن تختصر لي كلمة جانو جملة كاملة هي أنا أحبك .

أحبها ولا أريد منها سوى أن تقبل بمشاعري تجاهها . .

- أنت تغادرين بغداد . .

- أسافر نعم ، ولكن لا لن أغادر .

حادثتني جانو أخيراً في الهاتف ، عرفت ذلك من كود لندن الذي ظهر مع الرقم عندما رن الموبايل . . في اللحظة نفسها سمعت دوي انفجار في مكان قريب ، جعلني ذلك أفتح الموبايل وأنا أنظر باتجاه المكان الذي تجمع فيه الناس . . ولم أعرف أين هو هذا المكان . . يبدو أنها سمعت ذلك قبل أن ينغلق الخط ، فعاودت الاتصال عدة مرات قبل أن يتحقق لها ذلك . أين وقع الانفجار؟ سؤال روتيني لم

يعد جوابه يعني الشيء الكثير ، وبعد ذلك السؤال قالت لي بأنها لم تكن تريد أن تخبرني باللون الذي تفضله لواجهة البيت ، بل تريد لوم عمتها على التلميح بذلك . . قلت لها إنها كانت فكرتي منذ البداية . وسأكون سعيداً بتنفيذها . . توقفنا عن الحديث أكثر مما تحدثنا . . وكان توقفنا شبيهاً بما يحدث لنا أثناء صعود دولاب الهواء من خوف مشوب باللذة . . هي فضلت اللون الأزرق الفاتح ، وأنا اقترحت إضافة حافات من اللون الأبيض . هنا راحت تحدثني عن عشقها للزجاج الملون ، وكيف أرادت أن يكون لها ، قبل أن تسافر ، باب مُطعّم بتعشيقات من الزجاج الأزرق والأصفر والوردي ، فقلت لها بأني أجيد النجارة ، ووعدتها بأن أصنع لها هذا الباب قريباً . . . كأنها كانت على مبعدة أمتار مني ، وأن فكرتي قد وصلتها ، أو فكرتها قد وصلتني والتقتا في الطريق .

- هل أنت جاد يا هاني؟ هل ستقوم حقّاً بطلاء واجهة البيت؟

- نعم يا جانو .

الصمت أجمل من الكلام أحياناً . . وكنت استعيد صمتها الطويل بعد كل مرة انطق فيها بكلمة جانو ، وكأن

ذلك الصمت هو أجمل بيت شعر في العالم . نعم يا جانو بدأت الطلاء . ما أن بدأتُ الطلاء حتى اكتشفت أن الناس يرفعون أنظارهم إلى الجدران البيضاء التي صبغت بدهانات حديثة ، ويتشممون رائحتها الطيبة . . أمر يدعو للشعور بالتجدد والبقاء . . ويبدو أن القواعد الخشبية للنيونات البيضاء كانت منخورة ، وتحتاج للتجديد ، وربما كانت هي السبب ، مع انفعالي وارتجاف يدي ، في تحطم المصابيح .

(٢٥)

ربيع البيت

لولا وجود جانو معي في البيت لما عرفت كيف يمكن للابتسامة أن تعرف طريقها إلى حياتي ، أو يمكن لي أن أتحمل وجودي في هذا المكان بعد سفرها . كنت أراها عندما أغمض عيني . . والآن أصبحت أراها كل وقت مع باقي أهلها وأخوتها . . كلهم مرحون ، وأصابعهم نحيفة ، ولديهم عيون واسعة . . ينتهون من صفحة ، ويبدأون صفحة أخرى . . اسماؤهم وحدها هي التي لا تتغير . . وأنا أراقبهم وأشعر بهم ، عندما يفكرون ، أو يشطبون أفكارهم ، أو يقومون

بتصحيحها . . وكل تلك الأفكار تصلني من وراء النافذة .

في أول يوم ذهبتُ فيه إلى الحديقة وجدت طرمة البيت ترتفع قليلاً عن الأرض المزروعة بالنجيل . . والمطبخ لا يطل على الطرمة أو الكراج مباشرةً ، كما هو الحال في أغلب البيوت العراقية ، ولكنه يقع خلف غرفة الهول التي تطل على الحديقة ، ومن باب الهول خرجت هديل بعصير البرتقال عندما زرتهم في اليوم الذي التقيت جانو في الطابق الثاني من الباص . . كان البيت حينذاك نظيفاً إلى درجة أن النوافذ تبدو بلا زجاج . وهديل رأيتها تتسلق نوافذ المطبخ من أجل مسحها بخرقة كانت تغمسها بدلو مليء بالماء والصابون . . لكن الطرمة الآن مليئة بفضلات الطيور ، وتحت حمضيات الحديقة توجد تلال من الأوراق المتساقطة التي تحول لونها من الأخضر للأسود . الأخضر لون عابر داخل هذه الدورة الأبدية من اللون الأسود . ومن تحت هذه الأوراق الداكنة خرجت قطة برتقالية اللون ، ثم قفزت من الأرض ، واختفت خلف باب خشبية موجودة في سياج الحديقة ، عندما فتحتُ الباب وجدت فتحة قد أغلق أكثرها بالطابوق ، ويبدو أنها كانت موجودة بين هذا البيت وبيت الجيران فيما مضى . هناك ثمرات برتقال ونارنج قد تلفت وسقطت من

تلقاء نفسها ، وهناك ثمرات بقيت محتفظة للنهاية بلون يسر الناظرين . السكون تام بحيث أسمع سعفات النخل الجافة وهي تهسهس . . وأشعر بجذور الأشجار وهي ترتوي وتشبع من الماء . . تلك الحديقة بدت لي في تلك اللحظة كبنيان دخله إنسان ، لكل واحد منا قطعة من السحر ، وهذا السحر لا يكتمل إلا بوجوده مع قطع أخرى تصل النباتات بالناس .

نظرت من النافذة . . وكانت إحدى الستائر مفتوحة . . وبالرغم من السكون التام تحرك مفرش الأوزات والجدول الرقراق . . هذا الشرشف أتذكره جيداً ، لأني نظرت اليه طويلاً في المرة الوحيدة التي دخلت فيها الى بيت جانو . . ثم رفعت عيني منه إلى لوحة ساعة القشلة المعلقة قرب السلم . . السلم بدا لي شاهق الارتفاع . . ومعوجاً عن المرة الأولى التي رأيته فيها . النوافذ هي طريقي لاسترجاع الحياة خلفها ، أو تخيّل ما كان يحدث هناك . ومن شباك الهول تحديداً رأيت السلم الشاهق ، والشرشف يتحرك بالرغم من غلق النوافذ . . لا يوجد في هذه الدنيا فراغ يمكنني الركون إليه . . كل شيء يتغير ويتحول إلى شيء آخر ، وما يوجد من الفراغ تحول إلى مقطع عريض من الصور والأصوات . . . بل إن رائحة الشاي التي تأتي من الجيران ، جعلتني أرى

البخار ، وكأنه يتصاعد من وراء باب المطبخ ، ومن خلاله رأيت بطرف عيني تقريباً هديل تهز رأسها وتثرثر فوق السلم . .

اعترضتْ طريقي شتى الحاجيات . . اقف إزاء كل واحدة منها وأطيل النظر . . البيت فارغ صحيح ، ولكن يمكنني أن أتخيل كيف كانت الحياة فيه . . أتلصص من النوافذ ، فأتخيل ما كان يملؤها قبل سنوات . تخيلت كل شيء . . من الأب والأم ، وحتى الأبناء والبنات . . وشعرت بأني أرى ما جرى فيه من أحداث . . . خلف تلك النوافذ كانت هناك جانو وأهلها . . . . يتحركون مع ضربات الفرشاة ، ويفعلون ما أريدهم أنا أن يفعلوه . . لعبة ممتعة تتصرف بمجريات الماضي ، وتضع الأمور في نصابها الصحيح . . الأخ الأصغر لجانو كبر قليلاً ، وقال لأبيه سأقف على الأريكة ، وأُصبحُ أطول منك ، ثم أصبحَ أطول منه بالفعل دون أن يقف على الأريكة . . من أنت؟ أنا رياض ، وقد أصبحت أطول من جنان أيضاً . . . واليوم إذ أقف فوق السلم الخشبي أستطيع الوصول إلى جميع النوافذ . . وأنظر الى تلك الاريكة ، أو ذاك المقعد .

ترررررررررررن

رن جرس الهاتف القريب من شباك الهول ، فقفز رياض من سريره وهبط السلم مهرولاً باتجاه الهول . . رياض لا زال

يهبط السلم . . رأى هديل وقد سبقته إلى الهاتف . . ويبدو أنها لمحت لهفة رياض واستعجاله ، فانسحبت بارتباك ، وعادت أدراجها الى المطبخ . أما رياض فقد رفع السماعة بيد وجهاز الهاتف باليد الأخرى ، وقال :

- ألو .

ولكنّ أحداً لم يرد .

ضياء الشمس يذوب في لجة السماء اللامتناهية . . يختفي تدريجياً مخلّفاً وراءه ألواناً غامقة من البرتقالي والأحمر والأسود . داهمتْ أنفي روائح الأشجار مختلطةً برائحة الصبغ المنبعثة من حديد النافذة . رياض يقف إزاء النافذة ، ويبدو وكأنه يشم رائحة طيبة هو الآخر . . بل أراه يُقرّب أنفه أكثر إلى حافة الشباك الابيض . . بقيت أنا في طرف ، ونصفه العلوي في الطرف الآخر ، كما لو أن غلالة من دخان تحيط بي ، فتُحجب عني العالم ، وتضعني وجهاً لوجه أمام رياض . انتبهَ رياض من شروده ، فقد رنّ الهاتف من جديد ، وتوافق النصفان مرة أخرى قريباً من الهاتف ، فعدتُ أنا إلى منظر الغروب وروائح الحديقة . وقبل أن يهرع إلى الهاتف توقف الرنين مرة ثانية ، ولف المكان صمت مطبق . سمع صوت انفتاح الباب الرئيسة ، فالتفت إليه ليجد أنها أخته جنان تدخل البيت ، وتغلق الباب خلفها .

نظرتُ اليها ، وأنا أعرف بأن ما تراه غير ما أراه .

رياض وجانو يتشابهان كثيراً في الشكل ، وبالرغم من فارق عشر سنوات بينهما فإنهما صديقان حميمان ، يتبادلان الآراء ويتشاوران في كل صغيرة وكبيرة . ولأن جنان لم تتزوج لحد الان ، فان ذلك ، في الماضي ، كان يثير مخاوف أمها وقلقها المستمر . . أعرف أن الأم ميتة . . بل أصبحت في غاية الموت ، وبالتالي توقفتْ عن الخروج إلى الحديقة منذ زمن طويل ، ولم تعد تلملم فروع الأشجار اليابسة من السواقي . . أو تطحن بقدميها الأوراق المتساقطة على الأرض . . . لم أجد أمها هناك خلف النافذة . . لم أجد أباها . . فقط جانو كانت تهبط من الطابق العلوي لا أدري إلى أين . . الهاتف الأرضي لم تعد جانو معنية به منذ استشهاد علي ، ولم تردّ عليه بالرغم من أن لا أحد غيرها أصبح في الطابق الأرضي . . يا ليتها تراني . . أو تشعر بي . . أو تسمع ذلك الصوت الخفي الذي يتردد من مكان قصي في نفسي . . لا بد أنها تأخرت ، لأن الهاتف سكت رنينه قبل أن ترفع السماعة . . وظهر رياض من جديد ليتذمر من رائحة التراب . . أنا أيضاً شممت رائحة غبار . . وذهبت لحنفية الماء الصافي ، وفتحتها حتى النهاية وبقيت أغمر وجهي ، وأمضمض فمي بمائها الوفير .

(٢٦)

على سُلّم واطئ

في اليوم التالي تحولت الرائحة إلى عاصفة . . وتبعثرت ثمرات الرارنج الساقطة فوق أرض الحديقة ، خطوت بالخطأ في حفرة طافحة بالماء ، ثم بحثت عن خرقة أنظف بها حذائي من الطين وأجزاء الحشرات التي علقت به ، سمعت ذلك الصوت مرة أخرى . . . صوت يحفر في رأسي مثل غناء بعيد . . لا شيء يقلق في النهار ، حتى وإن سمعت هديل تلعن العاصفة الترابية التي ستجعلها تعيد تنظيف البيت ومسح النوافذ . . . لا أعرف ماذا أفعل . . لا شيء سوى

فراغ ، وصوت مسموع يأتي من البيت . . فمن أين يأتي هذا الصوت؟ ، المفروض أن البيت فارغ ، وإنْ كنت قد تخيلت بعض الحوادث ، كما حصل في المرة السابقة ، فهذه المرة الأمر مختلف ، وأنا متأكد من أني سمعت وأسمع أصوات نساء يتحدثن داخل البيت ، مثلما أنا متاكد من رؤيتي لجانو تهبط من الدرج . . . الشاهق والمخيف .

نظرتُ عدة مرات إلى الأرض وما حولها . . وإلى قدمي وأنا أمشي . . خفت أن أتوه مرة أخرى ، فاسمع الصوت الذي سمعته بوضوح البارحة وأول البارحة . . صوت الهاتف ، وصوت رياض ، وصوت هديل الذي لعن العاصفة . . لم أخبر أحداً بذلك على الإطلاق . . وعليّ أن لا أذكره لأحد . . . ولمن أذكره ، وقد أصبحتُ أعيش وحدي بانتظار أن أسافر إلى أبي في الفلوجة للاطمئنان عليه . . وأؤجل ذلك كل يوم لليوم التالي؟ . . عدت إلى البيت وأنا أُحدّث نفسي . . تهت وغبت عن العالم ، وأغواني عشق جانو حتى جعلني أُكابد الشوق والصبابة ، أسلك طريقاً لا أعرفها بلا دليل كما هو حال كل العشاق من الشعراء :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده

ولا الصبابة إلا من يعانيها

لا يسهر الليل إلا من به ألم

لا تحرق النار إلا رِجلَ واطيها

لا تسلكن طريقاً لستَ تعرفها

بلا دليل فتغوى في نواحيها*

لنفرض إني رأيت جانو تهبط الدرج الشاهق . . لنفرض أني سمعت صوتها ، ورأيتها في الحلم مرة أخرى ، فهل أنا سائل أكثر من ذلك . . أي أن أرى جانو بدلاً من فراغ لا يمكنني الركون إليه؟ . . في اليوم الثالث نظرت من النافذة فرأيتها تتجه للمطبخ ، كما رأيتها في زيارتي الوحيدة قبل العيد ، عندما دعتني للجلوس في الهول ، وسألتني ماذا أحب أن أشرب؟ . . قالت لي جانو يومئذ أهلاً وسهلاً ، ونزلتْ هديل بعد مسح النوافذ . . بدت من شدة نظافتها ، وكأنها غير موجودة .

عاصفة غبار البارحة تركت أثرها على النوافذ . . وبسبب الهواء العالي امتلأت الحديقة بالأوساخ وأكياس النايلون من كل شكل ولون ، لم أكن أدرك أو افهم أي شيء ، وأصبحتْ الرؤية مشوشة قليلاً . . أردت أن أتأكد فقط من وجود جانو في البيت . . أي شيء يُفرح القلب عدا هذا الصمت الذي يغطي على كل شيء في هذا البنيان . . لا أحد يتحدث ، أو

يريد أن ينطق بأي كلام ، إلى أن صاحت هديل ، وهي ترفع المجلات من على الأريكة :

- ماذا حدث يا جنان؟ لماذا لا تردين على الهاتف؟

الهواء العالي جعل الباب تنغلق بقوة ، وجانو صعدت السلم الشاهق بعصبية . . الهاتف كان يرن . . نادت هديل على أختها جنان أكثر من مرة . . يبدو أنها كانت منزعجة من قضية الهاتف الذي لا يرد من الطرف الآخر . . مَن هذا الذي يتصل بها؟ . . حتى هديل بدا عليها الاستغراب من رنين الهاتف ، فكانت تنادي على أختها جنان ، وتسأل :

- من المتصل؟

- . . . .

تحركتُ من مكاني ووقفت في قمة السلم . . لا تسمع هديل نداءات جنان بإيقاف تلك الضوضاء ، لان جرس الهاتف انطلق مرة أخرى ، فذهبت هديل إليه! صمتٌ لم يدُم سوى لحظات ، ثم أُغلقت بعده السماعة من الطرف الآخر ، وحل محل الصمت صوت نغمة التزويل الخرقاء . اقتربت جانو من نافذة البيت العلوية . . رأسها فقط أصبح قريباً مني . . كلانا نظرنا إلى بعضنا البعض ، اقشعر جلدي من الفزع . . إنها تنظر لي . . كأنها تراني ، وتريد طوال الوقت أن

تبوح لي بشيءٍ ما حول ذلك الهاتف . . وأنا كنت أعرف ما هو هذا الشيء . . هي تعرف ما هو هذا الشيء . . علي حبيبها مات منذ زمن ، فمن هو الذي يتصل ثم يغلق الخط؟ .

ساعة الكهرباء الوطنية انتهت ، وانطفأت جميع الأضواء في المنازل عدة لحظات . . وقد حدّدوهُا في آخر ثلاث ساعات من كل انطفاء وطني تعمل خلاله مولدة الحي العملاقة . . حدثٌ وطني متكرر منذ عشرة أعوام ، وهو الحدث الوحيد الذي تتعايش معه جميع الطوائف على حد سواء .

(٢٧)

آدم في الخيال

رأيتها تجلس وحيدة لا تفعل شيئاً وكأنها تغرق في التفكير فقط . . استطعت أن أقرأ أفكارها ، وهي ممددة على الأريكة وتحلم حلماً ، كأنه مشهد حقيقي قد حدث فعلاً ، وله في الزمان والمكان جسد وروح! كانت تفكر برجل اسمه آدم يحبها من طرف واحد . . التقت به أثناء دراستها العليا في بغداد ، وظنت أنها ، هناك في دراسة الماجستير ، ستهرب من كل الرجال ، فإذا بها أمام شاب وسيم أرادها أن تعيش قصة حب قديمة جديدة . أراد أن يمسح بحبه رجلاً

ميتاً أقامت عليه جانو العزاء في قلبها . . وهذا ما كانت جانو تُدرَّب عليه أفكارها . . عزاء علي لم ينفضّ بعدُ ، ولهذا تفكر بهذا الرجل الوسيم آدم في نومها فقط . . أما في اليقظة فلم تزره إلا مرة واحدة . . عندما انقطع التيار الكهربائي في البنك وتوقفت أجهزته عن العمل . . ذهبت الى المدير لعله يصرف الشيك الذي جاءت من أجله ، فإذا بها وجهاً لوجه أمام آدم .

جنان . . جنان . . استيقظي .

هديل ظلت تنادي ، وجنان لا ترد ، لأنها دخلت الغرفة التي وضعت على بابها علامة تقول (مدير البنك) ، وعندما أصبحتْ وجها لوجه أمام المكتب الأنيق والقريب من ضياء النافذة . كنت أنا هناك أنظر إلى حلمها من بين القضبان التي لجمت نظري ، تزحزحت من مكاني ، وسخّرتُ سمعي وحواسي كلها من أجل أن أتماسك وأمسك أطراف الشباك لكي لا أسقط من السلم الذي أصبحت في أعلاه لصبغ أعلى نقطة في جدار الهول المطل على الحديقة . . كل شيء ممكن . . لحظة حلم تليها لحظة صحو . . وشريط حلمها أثناء نومها على الأريكة يتناثر كالقصاصات أمام عيني ، عاد والتصقت أجزاؤه مرة أخرى .

إنه هو . .

نعم هو . .

ووقف هو الآخر ينظر لها مذهولاً كمن أصابته صدمة . . المفروض أن أراه ولا يراني ، ومضت فترة وجيزة ، ووجدته يدعو جانو للجلوس بترحيب ممزوج بالارتباك الشديد . . لا أدري لمن أنسب تلك المفاجأة . . أهي بسبب الشيك الذي جاءت جانو لصرفه من البنك ، أم بسبب صعوبة أن يتحاشى الإنسان معارفه وأصدقاءه طوال الوقت؟ . حاول آدم أن يتصرف كالجبال في تلك اللحظة . . أي أن يتماسك ويتصرف بشكل طبيعي أمام ضيوفه الجالسين في الغرفة . . أقصرهم خرج قبل الجميع . . صحيح أن زيارته كانت على وشك الانتهاء ، ولكنه لم يكن قد شرب قهوته بعد ، وكان الحرج بادياً عليه ، وهذا ما جعل الضيفين الطويلين أيضاً ينسحبان من الغرفة واحداً بعد الاخر .

كانت جانو غارقة في لجة الصمت الذي لا أول له ولا آخر ، والماضي يدور أمام عينيها وكأنه حاضر . بدأت القصة في يوم أربعاء ، تَذْكُر جانو ذلك جيداً ، واليخت يرسو على الضفة ، وشمس تشرين الدافئة تغمر الأجساد ، وتنعكس على صفحة النهر بإشعاعات فضية تحجبها أحيانا طيور الماء بأجنحتها الكبيرة المفرودة . . جميع الطلاب كانوا صامتين

مرهفين السمع لذلك الصوت الذي تتكلم به الكائنات الخفية ، ويصل إلى أعمق نقطة في الحواس . تشعر جانو بذلك كله في مرمى القلب والسمع والبصر .

دعاها آدم إلى التمشي قليلاً في الجزيرة قبل سنوات فاستجابت . . كان الطلبة قد أخذوا بالانتشار بين صخورها ، يفترش البعض منهم ظل شجرة ، ويتحلق البعض الآخر في مجاميع كبيرة حول طالب يرفع عقيرته بالغناء ، أو خفيف الظل يجرب موهبته بالتمثيل . . حدّثها عن نفسه كثيراً . . واستمعت جانو ، لأول مره في حياتها ، إلى شخص يتحدث عن نفسه بتلك البساطة . علي كان قليل الكلام ، ويعشق الصمت كثيراً ، وآدم لم يكن كذلك . . وجعل جانو تشعر بمتعة الاستماع إليه . . لماذا؟ لا تدري . . لأنه الخريف . . ويا الله ما أجمل الخريف! . . فهو الدوار بالهواء والسماء والكلمات ، وعليها أن تنتبه إلى أن قلبها في تلك اللحظة بدأ يخونها ويخفق لغير علي بإفراط ، حتى أنها تمنت لو يكف آدم عن الحديث ، أو تكف هي عن الاستماع . . فكأن لا طاقة لها بذلك كله . . تقول لنفسها :

- ماذا أفعل؟ ، وأين أنا؟

لم تحس جانو بتعب السير ، وشريط العشب يسير ويتسع ،

ولم تنطق بكلمة حب واحدة . . العصافير كانت سعيدة . . الجنادب والأزهار وكل شيء من حولها يلهو ويمرح ويضحك ويترك أثره على جانو ، الرقيقة في روحها وشكلها ، ما عدا عقلها الذي انتبه لما يحدث ، وبدأت يده السحرية تمسح بهرجة ذلك المسحوق الضافي من بهجة الطبيعة . إنه الخريف ، قالت جانو لنفسها ، ويجب أن تحذر هذا الخريف اللعين . قال لها آدم :

- ألا تأتين؟

بالنسبة لي كان صمتها مفزعاً وعصيباً ،حتى وإن كان قبل سنوات ، لئلا يفهم آدم من ذلك الصمت ما لا أريد . . . . هناك كثيرون يطلبون ودّ جانو ، وقد يفهمون من صمتها شيئاً كالوعد . الأسماء غير مهمة . . بعيدة عني . . لا أراها ولا تراني ، ما خلا آدم الوسيم الذي تحداني أن أنظر إليه في عينيه من خلال عيون جانو . . ولم يكن هذا ممكناً من خلف عيون مغمضة تحلم . . كما لم يكن بالإمكان أن ينفض آدم عن روحه تلك اللحظة من صمت جانو المنيع الشديد . . . . ولا تزال جانو تحلم بنفسها جالسة في غرفة مدير البنك . . وتتذكر رحلة الجزيرة التي حدثت أثناء دراستها للماجستير . . إنها أكثر جمالاً وهي تخفض عينيها ، وتنظر إلى خاتم علي

في يديها . . ماذا تظن وكيف تفكر؟ ولماذا رفعت عينيها . . أو اشتعلت وجنتها بالوهج؟ . . سلبت مني ، في لحظة واحدة ، كل راحتي وإيماني الذي تشبثت به بأن ما بينها وبين آدم لا يعدو كونه صداقة حميمة .

- هل تتذكرين رحلة النهر؟

- أتذكّر؟

ورفعت وجهها اليه لأول مرة منذ جلست في غرفته ، والصمت لا زال سيد الموقف حتى بعد سنوات . هو الآخر لا يزال ينظر إلى وجهها ، وهو جالس خلف مكتبه . . ورأيت من خلف قضباني ، رغم الظل والمسافة التي بيننا ، خطوط التعب في عينيه وفوق جبينه والشعرات البيضاء التي تخللت سالفيه . ولكن وسامته لا زالت واضحة للعيان .

- أتذكرين؟

جانو استفاقت فجأة والحمد لله . . استفاقت ونفضت تلك الرحلة من رأسها :

- لا أتذكر شيئاً .

- ألا زلت كما أنت عنيدة يا مالكة القلب؟

عن ماذا يتحدث هذا المجنون؟ . . لماذا أعطى اسم الحب

لشيء خاطف حدث في ساعة نزهة ، كاد أن ينسى نفسه ويطويها داخل أرواح الخريف التي أصبحت تتجمع حولهما في الجزيرة . . إنها نائية ، وقصدوها باقتراح منه لكسر روتين الدراسة الممل . هناك في تلك الجزيرة مر أحد الأساتذة ومعه مجموعة من الطلاب . . كان محاطاً بهم ، وكأنه خارج من قاعة المحاضرات .

- الحمد لله هو بخير .

- يعني بعده عايش؟ .

- نعم ، لقد نجا من الحريق .

- كيف عرفت ذلك؟

- تحدثت إلى أبيه . . المسكين بكاؤه يفطر القلب . زوجته ماتت في الحادث ، وابنه جريح ينظر بخوف إلى كل من يقترب منه . .

- لعله لا زال تحت تأثير الصدمة .

ما أنا بغافل عما يتحدثون به . . أعرف ماذا يقصدون بالضبط ، فهو صديقهم الذي تعرض لحادث أليم قُتلت فيه أمه ، وجُرح فيه أبوه .

- كان وسيماً ، ومن أهل الله .

التفت الجميع إلى جنان التي انفجرت باكية . . يبدو أني أريد أن أجعلها تبكي لقصتي . . وبعد لحظات أراد آدم تهدأتها فقال لها :

- لماذا تبكين؟

قالت لآدم :

- هل معك منديل يا علي؟

دون توقع مني . . سجلت جانو الهدف الذي أريده . . كان بعيداً جداً مني قبل تلك اللحظة . . ثم أصبح كالعصفور في اليد . . لقد بكت من أجل هاني الجريح ، وخربطت باسم آدم الوسيم فسمته علياً . هل يمكن لشخص ما أن يغار من الأحياء بعد موتهم . . كان آدم يعرف بقصة علي جيداً . . قصة الفتى المحبوب من الجميع وأولهم جنان . قال آدم :

- انا أحبك يا جنان .

نطقها بعصبيه قبل أن يستدير ، بينما انفجرت جانو باكية . . . . . معه حق ، فقد كان علي لا يزال يشغل تفكيرها ، وأنا أيضاً أحبها بالرغم من علمي بأنها مشغولة البال بشخص ميت . ولكن الفرق بيني وبينه كالفرق بين عقربي الساعة . . يلتف الصغير دورة كاملة من أجل أن يتحرك الكبير قيد أنملة . . . الساعة أصبحت الواحده

صباحاً ، والشوارع خالية ، وأنتظر أن يأتي يوم جديد لكي أذهب في ظهيرته ، واخترع هناك نهاية لقصة جانو مع آدم . .

سؤالي تردد مع نفسي : من أين جاء آدم هذا؟ ولماذا وضعتُه في طريقها وأنا أريد شيئاً يفرح القلب . . آسف آسف يا جانو . . أظن ، بعد الاعتذار ، أردت أن أتاكد بأنك قد هربت من الحب حتى بعد مرور عشر سنوات على استشهاد علي . عفواً لا أقصد الرجال المهمين الذين خطبوك . . كل أهل الحي قالوا إن استشهاد علي جعلك في منزلة أعلى وأحلى في عيون الناس . . وإنهم كانوا يعتبرونك من إرث علي الذي يجب الحفاظ عليه ، خصوصاً وأنك جميلة ومهذبة . . ولكني أقصد شيئاً آخر . . أقصد أن يهفو قلبك لرجل آخر بعد علي يكون وسيماً ، لكنه غير كُفْء لك . . . . بمعنى أن يكون هناك شخص تعجبك مشيته أو ملامح وشكل وجهه الجميل ، بدون النظر إلى روحه . . . لا أدري ماذا أقول . . فأنت روح . . وعنوانك يجب أن لا يعرفه أحد . . أنا أيضاً لا أعرف ماذا فعلت . . فأنتِ حاضرة في كل شيء من حولي ، وأنت هذا العالم الذي ملكني . . وأردت اختراع رجل وسيم يحبك كآدم على عجل ، وأنا أقوم بطلاء البيت من الخارج . . أردتك أن ترفضيه ، ويبقى الطريق مفتوحاً أمام الخيار الثاني ،

وهذا الخيار الآخر سيبقى متمهلاً ، أو معلقاً ، وقد فسرته لنفسي على أنني أخاف وضع نفسي في موضع الحبيب لئلا تكون استنتاجاتي خاطئة ، وتُحطم ما تبقى لي من الأمل . كما أن هذه الطريقة المفرطة في الأمل لا تتلاءم مع طبيعتي أولاً ، وهي ثانياً لا تتلاءم مع قاعدة الكتمان التي نعرفها جميعاً . . وليس بالضرورة يكون الكتمان على الآخرين ، ولكنه يكون على النفس أيضاً . . لأن المخاوف من شيء إذا سكنت الأذهان ستحقق هذا الشيء ذاتياً ، فتتحول الأوهام إلى حقائق . من هنا تبدأ فكرة القلق من فقدان ما نملكه في الخيال ، عندما تحق الحقيقة . ولهذا اخترعت شخصية آدم الذي يحب جانو ، ثم رَدَدْتُه خائباً على عقبيه . أما الرجل الذي ذكره الأستاذ في الرحلة ، والذي أصيب بالصدمة لبعض الوقت ، وبكت جانو من أجله ، فهو ليس من اختراعي . . ولكنه شخص حقيقي فتح عينيه بصعوبة ، وحاول ان يعتدل في فراشه ولم يستطع . قال للطبيب :

- من أنت؟
- أنا صديقك .
- ابتعد عني لا تقترب مني ابداً . . . .
- أنت أخي .

- انت لست أخي!

استدار هاني يردد :

- هه أخي . . كيف من الممكن أن تكون أخي وأنت أزرق العينين؟ . .

الطبيب الأشقر كان يحمل خاتم زواج قدمه لأبيه عبد اللطيف وقال :

- هذا الخاتم وجدناه في إصبع زوجتك .

استدار هاني لأبيه الذي وضع الحلقة بأصبعه الصغير دامع العينين . . أمسك يده وجعله يجلس على طرف فراشه . . أصابته الشظايا في مقتل ، واحترقت أجزاء من رأسه وأطرافه ، فلم يعد هاني الفتى الوسيم الذي يعرفه الجميع . . . هذا أنا . . ما كان حبي لجانو حباً شقياً بدون أمل . . ولكنها الأبواب كانت مفتوحة وموصدة . . وكنت أقول لنفسي متى تأتي خاتمة الأحزان؟ .

عاد التيار الكهربائي واشتعلت الأضواء في البنك مرة أخرى ، وهدرت الأجهزة الكهربائية بضوضائها ، فنهضت جانو من مكانها على عجل ، وقالت لآدم وهي تجد صوتها غريباً عليها :

- إنها مفاجأة فعلاً . ولكني قصدت هذه الغرفة من أجل معاملة .

فقال :

- إذن تفضلي . . لماذا تريدين الانصراف؟ . .
- لا بأس ، لقد عاد التيار الكهربائي .
- أرجوك . . لا تنصرفي . . لا تذهبي .
- آسفة . . أنا مستعجلة .

لم تجرؤ على أن ترفع عينيها في وجهه . . أما هو ، فلم يُنزل عينيه عن وجهها لحظة واحدة . . وتشاغلت جانو بنظارتها الشمسية حتى كادت أن تنسحق بين أصابعها . . . تماسكت وتمسكت . . وتحملت . . وقالت له أخيراً :

- أراك بخير .

ثم انصرفت على عجل تاركةً وراء ظهرها جمال طولك يا آدم ، وذهول عينيك العسليتين وعطرك الغالي . . فتحت جانو عينيها ، ولم تعد ترى سوى ضياء المجرة الوحيدة في حياتها . كلما تلفتتْ لا تجد غيرها . .

طوال الطريق إلى البيت انتابتني مشاعر متضاربة افترست روحي وأحالتها إلى هشيم . عاد الجميع إلى منازلهم . الليل

قد حل ، لا أعرف أيهما أكثر إنصافاً وصواباً بين أن أفتخر بكل هذا التعقل الخارق لجانو أمام بركان الماضي الذي كاد أن ينفجر ، وبين أن أسخط على ذلك التعقل الأخرق أمام حب قديم ومن طرف واحد يريد أن يتدفق من جديد . السؤال الذي طرحته على نفسي هو : هل جعلتَ جانو ترفض ذلك الرجل الوسيم من أجل أن تحبك؟ هل اردت النيل منه لهذا الغرض؟ هل من الممكن أن تحبك جانو يا هاني؟ هل من الممكن أن تُعدّل أو تغير الانطباع الذي قد تتركه لديها ، وذلك بأن تمشي بخطى واسعة ، وتُحرّك ذراعيك بجسارة ، فتشعر حينما تراك بأنها مع رجل قوي في مكان آمن ، ويمكنها أن تنجذب تلقائياً لبعض السحر في هذه الطريقة من المشي .

للهواء رائحة منعشة في تشرين . عندما وصلت بيت جانو في صباح يوم جديد كنت أفضل حالاً . . استقبلني رياض ، ووقف قرب زجاج النافذة . . لا نستطيع التحدث مع بعضنا بالطبع ، ولن نستطيع أن نسلم على بعضنا البعض ، لأنه في زمان ، وأنا في زمان آخر . . لا يجتمع النصفان إلا عندما يبتعد عن النافذة . . رفعت يديّ الكبيرتين عن قضبان النافذة ، كل يد تنتهي بإظفر يشبه جفن عين مغمضة ملطخة بالطلاء . .

ما أنا بمجنون ، ولكن عشرة عيون مغمضة لا تدري ماذا يحدث ، أو ترى ما يتخافت في الظلام . . عقلي فقط هو الذي يقودني إلى سنين هذا البيت وأحلام جانو . الوردة الحلوة المرتبة . . . . وأنا كنبتة صبار وحيدة تنعكس صورتها الباهتة على زجاج نافذة الهول ، فأتمنى لو أن صورتي ، في الحقيقة ، تبقى باهتة مثلما هي على النافذة . .

من خلف ستائرها نادت هديل على أختها جنان كي تنزل ، وجانو هاربة من الجميع إلى غرفتها . . أغلقتْ الباب على نفسها يومين هما الخميس والجمعة ، بعد أن عادت من البنك الذي يعمل آدم مديراً له . كانت قد توجهت لغرفة المدير لصرف الشيك بسبب انقطاع التيار الكهربائي ، دون أن تعلم بأنها ستجد أمامها آدم زميلها القديم في دراسة الماجستير . . كان يحبها عندما كانت هي تحب ذكرى الطيار الشهيد ، وبدلاً من صرف الشيك لها ، صرفت لها دقائق الانتظار صور الماضي البعيد والقريب . بعد أن صعدت غرفتها رن جرس الهاتف مرة أخرى . . وزمان هذا الهاتف الأرضي ليس كزمان الهواتف الأخرى . . كان موضوعاً كالقطة الأليفة فوق كومدي بجرار يوضع فيه عادةً دفتر أرقام التلفونات . . . رفع رياض سماعته المتصلة بسلك

لولبي إلى الجهاز .

- ألو؟

- ....

- ألو؟

- ....

صمتٌ من الطرف الآخر ، ثم لم تبق سوى نغمة التزويل الخرقاء . انتبهت إلى أن الماء كان يجري من الحنفية ، فذهبت لإغلاقها ، فلم تنغلق حتى النهاية وبقيت بعض النقاط تسقط منها ، كأنها تبكي .

(٢٨)

جانو مرة أخرى

نزلت جانو من غرفتها أولاً وهي أسرع الجميع في ارتداء ملابسها ، لأنها تكتفي بمظهر بسيط وحذاء واطئ ، ولا تضع المكياج على وجهها . . ثم نزلت بعدها هديل من السلم الشاهق ، وانضمت إليها وإلى زياد على المائدة بعد أن وقفت قليلاً أمام مرآة غرفة الجلوس لتأمُّل شعرها وإصلاح هيأتها . عينا جانو لا تزالان معلقتين بعينيّ . وكأنها منتبهة لوجودي طوال الوقت . . تلتفت إلى الظل ، ثم تلتفت إليَّ . . لتنظر لي عبر المرآة المعلقة في الهول . . طبعاً هذا غير ممكن . . الأمر

يجول بخاطري أنا فقط ، ولم أستطع أن أجد ذلك مختلفاً عن الحقيقة . . فقط كنت استغرب كل هذه الصور التي جاءت أمامي بمجرد أن شممت رائحة الشاي مع الصبغ مع أوراق الشجر الرطبة . . كانت جانو تبدو شاحبة وحزينة وميالة للصمت والعزلة . ذلك الصباح هو الخامس بعد زيارتها للبنك ، ومصادفة لقائها بآدم بعد غياب طويل .

قالت لها هديل :

- ألم تنامي جيداً؟

قالت :

- كلا . كان لديّ الكثير من تصحيح الأوراق .

جانو محقة . أجهدها تصحيح أوراق قديمة أوشكت أن تجعلها تسقط في الامتحان . فقد ظلت تحلم بآدم منذ أن رأته في البنك . . ووجدتها هديل تتحدث حتى أثناء النوم . . أرادت هديل أن تلطف الأجواء بأن تمازحها بموضوع خطيب جديد يتقدم للمرة الثالثة ، ولكنها امتنعت عن ذلك في آخر لحظة . . قالت لها :

- لماذا لا ترتاحي إذن وتطلبي اجازة من العمل؟

قالت جانو :

- لا . . سأتحسن من تلقاء نفسي .

جنان أكبر من أختها هديل بخمس سنوات . . لا تزال تحتفظ بالبراءة رغم تجاوزها سن الثلاثين . . مظهرها البسيط وملامحها الرقيقة تمنحان وجهها طفولة محببة . . إلا أنها كانت تخفي ذلك كله بنظارة طبية ومظهر جدي يخلو من المرح تماماً . المفروض أنها لا ترى أحداً يتخيلها ، ولما تقدمت أكثر باتجاهه عرف بأنها تتحدث وتنظر إلى تمام التي دخلت إلى البيت من أجل اعادة قميص هديل . . ملابسها أقرب إلى ملابس الصبيان منها إلى ملابس البنات . . عالمها الكتب والموسيقى . وهذه الاهتمامات بعيدة عن مدار البنات المعتاد . . . . مع ذلك فقد تقدم لخطبتها شباب كثيرون بسبب شكلها الصبياني الجذاب ، وإذا كان أحدهم شاباً وسيماً بقامة مديدة وجبهة عريضة ستقبل به على الفور . . ضحكت هديل ، وقالت تمام :

- هذا هو قميصك . . كان عندي يا هديل .

أعرف أنها صديقة الجميع ، ولكن هذه هي المرة الأولى التي أعرف فيها أن تمام ، تلك الفتاة التي ترفع شعرها على شكل ذيل حصان ، لها علاقة قوية ببيت جانو ، بحيث تستعير قميصاً منهم . . فهل هي قريبة للعائلة؟ . . يجب أن

أعرف لماذا جاءت في خيالي بهذه الصورة . . لعل أقرب شيء لما يحدث الآن هو المثل الإيطالي الذي قالته لي ريتا المصورة : البيت الفارغ يمتلئ بالضجة . . والضجة كانت تحيط بي من كل مكان . . زياد شرب الشاي . . . . هديل أخذت القميص . . جانو تراجعت . . تمام كأنها تراني مثلما أراها . . . . لأنها بدون سبب مفهوم ابتسمتْ ، وأغمضت عينيها ، ثم أدرات ظهرها لي ، وراحت تضحك من هديل التي صعدت مسرعة إلى غرفتها تقفز السلم قفزاً وهي تتوعد رياض يشتى التهديدات لأنه تأخر في الحمام ، ضحكت أختها أيضاً من الموقف الذي اصبحت فيه . . جانو عندما تضحك لا تدع ضحكتها تسترسل إلى نهايتها . . لربما تظن أن بروز أسنانها قليلاً إلى أمام هو عيب قاتل في فمها . . لا تدري بأننا نحن الرجال ننجذب إلى عيوب الفم اللافتة ، ونعتبرها الأكثر جاذبية في وجه الفتاة . .

بعد قليل طلب زياد من هديل أن تأتي له بمفتاح السيارة ، كان المفتاح يتأرجح قليلاً بفعل هبوب الهواء فوق جنكال من السيراميك على شكل حدوة حصان . . ثم انفتح الباب المواربُ للمنزل على هواء الصبح البارد كله ،فتحركتْ أهداب غطاء المائدة وهفهفت ستارة النافذة وانبعث أريج طيب من

ثياب جانو التي مرت في الممر . وسرعان ما تسربوا واحداً بعد الآخر ، ولم تبق سوى تمام التي كان شعرها المرفوع يتراقص في الهواء . . قال زياد لأخته جنان :

- هل أُوصلك إلى مكان ما؟
- لا . . شكرا . . سأّذهب الى رأس الشارع مشياً .

قالت هديل لها قبل أن تفتح باب السيارة :

- ما بك يا جنان؟
- لا شيء .

حتى هذه اللحظة كنت حراً في تخيل ما أشاء ، وأنا أواصل طلاء الجدران . . ولكن يوم غد سأكتب لها إيميلاً أُهنئها فيه بعيد ميلادها الذي يصادف عطلة الهالوين في لندن . عرفته من الاستمارات التي ملأْتُها لها عندما قدمتْ أوراق بعثة الدكتوراه إلى إنكلترا . . وعرفت تواريخ ميلاد الآخرين أيضاً . . أكبرهم زياد وأصغرهم رياض . أما آدم فاخترعته في الخيال وجعلت جنان تلتقي به في البنك . جعلته وسيماً جميل الخلقة يكمل دراسته العليا ، ثم يعمل مديراً مصرفياً في بغداد ، أي يمكن لجانو أن تحبه ، وماذا بعد؟ . . هل أجعلها تترنم بالأغاني مثل أختها هديل؟ . . لا لا ، لا أعتقد أن هذا صحيح . . جنان ليست من النوع الذي

يترنم بالأغاني . . أو يمكن له الوقوع بالحب مرة أخرى بعد علي . . هذا ما كان يمكن له أن يحدث . . الطريق قصير بين قلبها وعقلها . . الأول يهفو ككل القلوب لمن يمسه بقبلة الحياة ، والثاني ينبهها إلى أن عزاء علي لم ينفضّ بعد ، والأفضل من اختيار القلب أو العقل ، هو أن لا يظلمها في هذا العالم شيء .

احتارت جانو . . التفتتْ إلى حيث أقف . . نظرتْ إلى قفص العصافير بعينين حزينتين . . ثم القت تحية الوداع على هديل وزياد ، وانعطفت باتجاه اليسار . . أما أنا ، فقد توجهت بنظري إلى الباب ، وقبل أن يأتي صديقي أركان اللعين ، تخيلت أن جانو التي خرجت من البيت قبل قليل جلست تنتظر قدوم الباص . . نظرتْ الى ساعتها وكانت تشير الى التاسعة . . ثم اختلستْ نظرة إلى الرجل الجالس بجوارها على الدكة ،وبدا لها جانب جسمه ورجليه الممتدين بإهمال وأصابع قدميه البارزتين من تحت النعل كأصابع غير بشرية : جلد متقرن وأظافر وسخة لم تُقصّ منذ فترة طويلة . . كتلة لحم مزرية جعلتها ترفع نظرها من الأرض إلى الشارع ، وخلف حافلة توشك على السير كانت تقف سيارة بيضاء يلتفت سائقها إليها ويزمر بجهاز التنبيه ليدعوها إلى

الصعود . التفّت كتلة اللحم المزرية باتجاهها ، وكأنه يوجه لها اتهاماً ما ، ولم يكن أمامها سوى أن تتلافى الإحراج ، وتنهض بأسرع وقت وتصعد إلى السيارة البيضاء . جلست قربه على المقعد الأمامي ، وقبل أن تسلم قالت بعصبية :

- ما هذا الذي تفعله؟ هل كنت تطاردني؟

قال آدم وهو يبتسم :

- لا أبداً . . ولكني أردت أعرف إنْ كان ذوقي يعجبك؟

ثم أخرج علبة من جيبه فتحها ، وأخرج منها خاتماً ماسياً وقال :

- عيد ميلاد سعيد .

- عيد ميلادي؟

أنا جعلت آدم يتذكر عيد ميلادها ، ولكن لماذا فعلتُ ذلك؟ . . الحب هو أن أحلم بها ، وتحلم بي ، فلماذا أجعلها تلتقي بآدم مرة أخرى؟ . . تنسى هروبها منه ، ليحل محله نوع من الاشتياق لهذا الزميل الوسيم الذي سافر إلى أصقاع العالم وفارقها على مضض ، ثم عاد ليجدها ، وكأنها بانتظاره . . تدخل عليه البنك بقدميها ، وقد مات حبيبها الأول ، ولن يزاحمه عليها أحد . . مسكينة جانو . . لا تريد

أن تتغير أو تتنكر لعلي ، فلماذا أضعها في هذه الامتحانات الصعبة مع آدم؟ ولماذا اسم آدم بالذات . . نظرتْ له ، وهي تأخذ العلبة من يده وقالت :

- هذا كثير جداً .

قال :

- كثير عليك؟ انا لا أزال غير مصدق أني قد وجدتك ورأيتك وحادثتك ، ولو لم أركِ اليوم مرة أخرى ، لظننت أن الأمر كله لا يعدو أن يكون حلماً .

قالت له :

- وما حكاية هذه الصدف؟

قال ، وهو يضحك :

- هذه المرة لم تكن صدفة مئة بالمئة . . في الحقيقة لقد تطفّلت قليلاً على الشيك ، وعرفت أين تعملين .

جانو لا تريد أن يأخذ هذا الانفلات العاطفي مداه . . قالت :

- توقفْ أرجوك . . أريد أن أنزل .

- ما بك؟

- لا شيء . . أريد أن أنزل .

صمتٌ وجيز ، ثم قال :

- جنان أنا احبك .

- يبدو أني قد نسيت نفسي . . أنا لا اعرف عن حياتك الخاصة شيئاً . . وأنت أيضاً لا تعرف عن حياتي الخاصة شيئاً .

- لست متزوجاً .

- على أية حال يجب أن أنزل . .

- حسناً . . خذي رقم هاتفي .

- لا أستطيع .

أوقفَ السيارة ، ثم أخرج ورقة كتب عليها رقم هاتفه ، ثم ناولها إياها ، وهو يقول :

- هذا رقم هاتفي ، أما رقم هاتفك فموجود عندي منذ عقد من الزمان .

ثم مد الورقة إليها ، وفي اللحظة التي لمست بها يدُه يدها أحست بملمس أصابعه ينتقل إلى قلبها مباشرة ، ويجعل روحها تُصعق . . لم تعرف ملمس تشابك الأيدي إلا مع علي . استبقى يدها في يده ، وهي لا تسحبها . كانت تريد أن تختبرها . . أن تختبر يدها مرة أخرى مع رجل غير

علي . . وعندما ضغط عليها بأصابعه القوية ، ورفعها إلى فمه لكي يقبلها ، سحبتها بقوة . . بعد أن شعرت بصعقة أخرى أزعجتها .

ليس هذا ما تريده . .

انتهت التجربة ونزلت جانو من السيارة على عجل .

(٢٩)

أركان

قبل أن أغادر النافذة في المساء سمعت ضجة انفتاح الباب الخارجية ، فلم أعد أبذل ما بوسعي من التخيل ، بل جفلت عندما سقطت يد بقوة على كتفي . .

- منو؟
- رحمة للفحمة ما تقولي وينك؟
- أركان؟ هاي شجابك؟
- اشتعلوا أهلك ، يا حقير .

- خليني أنزل الأول . خليني أقولك مرحباً .

- مرحبا يا كاف ولام وباء . . وينك يا حاء وميم وآر؟ . . صارلي كومة سنين أدور عليك ، وحتى أبوك لم يخبرنا بمكانك إلاّ قبل أيام . وكلما نسأله يقول عنده علاج بالمستشفى . . صحيح أنت فد واحد ما تستحي .

- أنت الذي قلت لي إنْ لم تجلب لي الهدية فلا تتصل بي؟

قبل أن أتم ضحكتي ، حصلت على لطمة قوية كادت تُسقطني من السلم الى الأرض . . قال لي :

- هل أنت أحمق؟

- أنا أحمق فعلاً!

جاء أركان وأنزلني من أعلى السلم والحلم . . وأعادني إلى رائحة الطين والغرين . هو ووأنا فقط والبقية لا وجود لها . . لا هديل ولا رياض ولا زياد . . ولا جانو التي أردتها لي كما أنا عليه الآن ، فجعلتها تزداد رفضاً لرجل استعرت اسمه ووسامته من نفسي الماضية . . عندما كنت طفلاً مولعاً برائحة الطين ، وأحياناً أتذوقه وأنا أشكل منه بعض القطع التي أصممها على شكل رؤوس حيوانات ذات خطوم طويلة لأنها أسهل من رؤوس البشر . . ودخل نحت نهود

النساء ضمن حلم فتى بلغ الحلم ، هو صديقي أركان ، وراح يبذل الكثير من المجهود في تصميم مثل هذه القطع المثيرة ، ويسهر الليل محاولاً تعديلها ، وإضافة تفاصيل أخرى لجعل هذه القطعة جزءاً من جسد أكبر هو جسم امرأة مكتملة الأنوثة . . وتلك الدمية كنا نخفيها عن أعين أهالينا بوضعها داخل البستان المطل على نهر الفرات . . كنا نبتسم لبعضنا البعض ابتسامات شبيهة بتلك التي يتبادلها الناس مع العرسان في ليلة الزفاف . . ابتسامات لم نكن نفهم معناها في طفولتنا ، وكانت ترتسم على شفاهنا دون أن نقرر نحن أن نرسمها . . وأركان كان يطلق قهقهات صاخبة عندما تنمو الحشائش فوق رجل الدمية أو أسفل بطنها . . وتصبح ثقيلة الوزن لكبر حجم المؤخرة المبالغ فيها . .!!أثناء الحرب قصفت الطائرات الأمريكية البستان . . ودمرت معظم أجزاء تلك الدمية . . فانتهت مع بداية الحرب مراهقة أركان وباقي الأصدقاء من طلاب المدرسة ، وانتهت معي بعد سنوات بوجهي هذا . .

(٣٠)

الساعة الثانية عشرة

حتى بعد ان عدت إلى البيت ، ووقفت تحت دوش الماء لكي استحم خيل لي أني لا أزال استمع للأغنية التي كانت تنطلق من جيران بيت جانو . رهافة السمع والبصر هما كل ما تبقى لي بعد أن أضعت جمال وجهي . . والذي أعوضه أحياناً بالعطر الطيب ، والمبالغة في دعك جسمي بالصابون المعطر ، وإطالة الوقوف تحت رشاش الماء المنهر حتى توخزني مسامات جلدي من فرط النظافة . كأنني نسيت شيئاً على النار . . كان يجب أن أنتبه . . توقفت عن

الاستحمام ، وأغلقت صنبور الماء فسمعت صوت اندلاق الطعام على عين نار الموقد ، فهرعت بحركة رد فعل سريعة إلى المنشفة .

- أركان ، أين أنت؟

أحسست بكعب قدمي ينزلق على الكاشي المبلل فالتوت رجلي ، وسقطت على جنبي سقطةً قوية ، ولولا أنْ تمسكت بالقضيب المعدني لحامل المنشفة لارتطم ظهري بحافة السيراميك الأبيض ، وأُصبت إصابة بليغة . تحاملت على نفسي ووقفت ثم لففت المنشفة على جسدي ، وخرجت إلى المطبخ ضاغطاً خصري بكفي لأطفيء النار عن الطعام بعد فوات الأوان ، وهو بلون الفحم .

- أين أنت ، يا أركان؟

كان يقف خارج الشقة ، وبابها موصدة :

- رحت أجيب صمون* حار ، والباب انسدت عليَّ .

فتحت الباب ، رميت الفاصولياء المحروقة إلى كيس النفايات ، ثم فتحت الثلاجة واخرجت جبناً وحبات من الزيتون . ولا أدري إنْ كان الجبن أم رائحة الفاصولياء المحروقة هي التي جعلت معدتي تثور وتقذف ما في داخلها كالحمم . . نزل بي أركان من درج الشقة الذي يربطها

بالشارع المؤدي إلى المستشفى ، وهناك حدث أمر توقعته من أركان . . إنه يحدق في الطبيبة التي طلبت ، بإيماءة من وجهها المليح ، ودون ان تنبس بكلام كثير ، أن أعود إلى البيت واستريح وأشرب السوائل الساخنة . . أركان من عادته أن ينظر الى الأعلى كلما دخل إلى مكان جديد ، وكأنه في محل للثريات ، ولكنه في المستشفى لم يرفع عينيه عن وجه الطبيبة . .

في البيت كان كل شي هادئاً . . الحياة ساكنة . . اندسست في الفراش وأنا أحس بجنبي يؤلمني من أثر سقطة الحمام . . حمدت الله على انتهاء عمل الطلاء الذي باشرته منذ أسبوع ، ووضعت كيس الماء الحار على موضع الألم ، وبالرغم من بعد المسافة بين بيتي وبيت جانو ، فقد كنت استمع إلى اغنية (أنا وليلى) تأتي من هناك . أركان طلب مني أن يبيت عندي ليلة أخرى قبل العودة إلى الفلوجة . . ظهر أركان فسقطتُ على الأرض ، وكأن واجبات السب والشتم لا تكفيه ، وبات عليه القيام بواجب آخر ، هو أن يجعلني أفقد السيطرة على طريقي . قبل سنين كنت معه نقود دراجتينا حول البيت عندما شهدنا تجمعاً لخمسة من الغربان ، كان أحدها ميتاً بجانب الطريق جراء صدمة

سيارة ، وكانت الغربان الأربعة الأخرى تقف حوله . . تقدم أحدها إلى الجثة ونقرها ، ثم تراجع للخلف . غراب آخر فعل الشيء نفسه . . بعد ذلك طار أحدها وأحضر أعشاباً ووضعها على الجثة . . تكرر نفس الفعل من غراب لآخر ، ثم وقف الغربان الأربعة متأملة الجثة بضع ثوانٍ وغادرت بعدها واحداً تلوَ الآخر .

أركان كان يغمس كعوب الصمون بالشاي الساخن ، ويسألني عن النساء في أمريكا . . هل حصلت منهن على قبلة أو حضن؟ . . نعم يا أركان أحياناً يفعلن ذلك أثناء السلام . ترك الشاي ، ونهض من مكانه ، وراح يدبك الجوبي بمنديل وهمي . قال :

- هله هله هله . . وماذا بعد؟ أكمل .
- لا شيء؟
- الفراش؟
- كنت في المستشفى ، يا أركان ، وليس في سوق للسبايا؟
- أنت تريد تخبّلني .
- أنت مخبّل أصلاً .

رن جرس الهاتف في وقت متأخر من الليل . . فكان المتصل زوجة أبي التي سألت : هل أبوك موجود معك في بغداد؟

- كم الساعة الآن يا أركان؟

- إنها الثانية عشرة .

(٣١)

شريط ريتا

بدأ شريط ريتا بصورة فوتوغرافية لأمي ، وهي تجلس قرب جهاز تبخير ماء الورد فوق سطح منزلنا . . تحيط بها تلال من الورد ، وتقابلها نار موقدة تحت جرة ماء كبيرة تغلي فيها تلك الأوراق . ليست لها معي سوى هذه الصورة التي التقطها لنا أبي ، ومعها صوت ريتا الذي يعلق بصوت رخيم على الفلم : هاني قد أصبح في الثلاثين من العمر . . وربما أصغر قليلاً . . أقول له بأنني أحبه . . فيقول لي بأنه يحبني أيضاً . ولكنه لا يتابع عملي في تحرير ومنتجة الفلم . . . لا يريد أن

يسترجع تلك الفترة المريرة من حياته . . أو إنه لا يستطيع ذلك . . أشعر بالحرج لأني لا أهتم بأبي مثلما أهتمُّ بهاني . . دائماً أبي في مأمن ، وهاني المسكين في خطر . . ليس لدي النية في ترك هاني هناك بعد الآن . . سأترك العديد من الأشياء من أجله ، وربما لا شيء يبقى لي عدا هاني . . من يصل عمر هذا الشاب يكون قد قرأ روايات بوليسية من طراز (لصوص البحر) و(القرصان) و(جزيرة الأشباح) و(ضياع في العاصفة) و(روبنسون كروزو) . . أما هاني فقد قرأ كتب الدنيا أثناء مكوثه المتكرر في المستشفى على امتداد خمس سنوات اقتُطعت من عمره ، وأتقن الإنكليزية في سنة واحدة . . يجب أن أحافظ عليه ، هذه المرة ، من الضياع . . الوقت يسمح بذلك ، فكيف يقول لي المنسق الثقافي إن هذا ليس من شأني؟ إذن شأن من هذا؟ أليس من المفروض أن يفتح هاني عينيه ويتحدث بدلاً من أن يغمضهما؟ ، أليس من المفروض أن يقول شيئاً؟ . . أنا أيضاً أكره لحظات الوداع . . وأضحك في الوقت الخطأ . . . . ولكن دموعي نزلت بغزارة من شدة التأثر . . وكباقي الأمريكان أصرخ كثيراً بسبب وبدون سبب ، وأضحك وأنا أربت على كتفه . . بينما هو لم يعد يعرف ماذا يريد ، أو من يكون . . إنه عرض آخر يلهمنا إعادة ترميم ما فعلناه مع أولئك الذين كانوا جزءاً من

فصول حياتنا الخاصة . . بمعنى أنّ لا مبالاتنا كانت سبباً في أحزان غيرنا . ولهذا أرجو أن يلهمكم هذا العرض بعض الاهتمام بضحايانا حول العالم . . كما أرجو من هاني أن يعاود الاتصال بي من بلده ، وأن لا يبحث عن أخباري فقط في غوغل ، خصوصاً وأنّ لديّ خبراً ساراً أبلغه به . فبناء على هذا الشريط مُنح هاني جائزة الشجاعة من قبل منظمة الحرية للإنسان ، والتي انبهرت بالكيفية التي أبلى بها بلاءً حسناً خلال سنوات خلق فيها لنفسه حياة سعيدة بعد عودته للعراق . وأعطى المثال والإلهام لكل شاب مثله يستطيع أن يكون سعيداً لو أراد"

بتشديدها على كلمة (لو) ختمت ريتا المصورة فلمها عني ، وجعلتني ابتسم مع نفسي بالرغم من ضيقي بهذا الفلم . . إنه يذكرني بآلامي ويوثق للجريمة التي سأستحق عنها جائزة الشجاعة . . لماذا يفعلون ذلك . . وهل شجاعتي هي في تجاوز تلك الجريمة ، أم في النيل من مرتكبيها . . صحيح أن ريتا ، ومعها بعض الأمريكان ، قد ساعدوا في تشكيل الانسان الذي أنا عليه الآن ، وهو إنسان مختلف يعيش في وضع مريح ، إلا أن هذا لا ينفي إحساسي بأنهم يستخدمون هذا الفلم لغرض دعائي يجمل صورتهم . ههه . .

لأعترف بأن صورتي أيضاً تجملت بعد ان انتبهت إلى أن اختيارات ملابسي تغيرت كثيراً نحو الأفضل بين بداية الفلم ونهايته ، حتى إني نظرت باستغراب لأول سترة اشتريتها مع أبي من مول الغاليريا . .

تمنيت أن تظهر جانو في نهاية الفلم ، مثلما ظهرت صورة أمي في بدايته ، إلا أنه حدث ما جعل الوجوم يتملكني . . . . بل يتركني في حالة من الحيرة والاستغراب . كانت ريتا قد أوصت صديقتها مسرّة بتصوير لقطات من حياتي في بغداد . . تصاحبها موسيقى من الفولكلور العراقي . . وهذا ما حدث فعلاً ، وقبل الكثير ممن يراجعون مكتب الاستنساخ ، وبأريحية ، الظهور في الجزء الأخير من الفلم الذي صُوّر في أماكن مختلفة وأزمان مختلفة ، ولكن ما هذا الذي تحمله تمام؟

لفت نظري ، في آخر لقطة من الفلم ، شيء غريب للغاية ، تمام عندما مرت من أمام المحل كانت تحمل سترة شبيهة بسترةٍ لجانو تلبسها وقت الشتاء ، وفيها قلنسوة واقية من المطر تنسدل خلف ظهرها . فلماذا تحملها؟ وهل حصلت عليها من جانو قبل سفرها؟ احتجت أن أعيد الفلم أكثر من مرة لكي أتاكد . . انتظر ما أريده من الفلم الذي صورت

نهايته مسرة في بغداد . . . . تمام تظهر في آخر لقطة منه ، وهي ترفع شعرها على شكل ذيل حصان . . حاملة سترة جانو في الجزء النهائي من الفلم ، وهو الجزء الذي أراه للمرة الأولى ، بعد سنوات من البدء بتصوير الأجزاء التي تمت في أمريكا . . . هذا الفلم لا أحبه . . تعلم ريتا هذا جيداً . . ولا أريد الرجوع إلى هناك . . حتى من أجل تلك الجائزة . . لا أريد أن تكون النهاية هي النجاة بنفسي في فلك نوح . . أريد أن يواصل الجيران شيّ الكباب ، ويظل صوت الغناء منطلقاً مختلطا مع رائحة الشاي والدخان الأبيض .

كنت أتمشى بقرب بيتها بعد قليل لأتامل عملي في طلاء البيت . . حملني الدخان الأبيض ، وأصعدني إلى الغيوم . . إلى الكائنات الحية من حيوان ونبات وطيور . . كان الدخان قد وصل إليها في غرفتها . . لا يوجد أحد في البيت . . وأنا كنت وسط البخار أتخيل جانو وأخاطبها . . هي غير موجودة هنا . . كنت أعرف هذا منذ البداية . . ولكن انشغالي لم يتوقف بما حدث في الخيال ، ولا زلت استرجعه وأراه حتى وأنا أغادر البيت ماشياً في طريقي بحذاء بيت مجاور في الزقاق ، كان جميلاً ، والآن اختفت منه الحديقة ، وتحول إلى عمارة بشعة . .

سمعت أولاً صوتاً يشبه اندلاق الماء قرب قدميّ ، ثم نظرت الى أعلى لأبحث عمن فعل ذلك ، فاكتمل انهمار الماء فوق رأسي . .لم أجد في الشرفات أو السطوح أثراً لأحد ، ولا لمحت ظلاً يتوارى خلف نافذة أو ارتعاش ستارة . . قلت لنفسي ربما طفل اراد المشاكسة ، أو امراة تغسل سطح هذه العمارة النشاز . انتفضت من البرد ، ولملمت سترتي على جسمي ، وفكرت للحظة أو أقل : هل هذا الماء هو صدفة غير مقصودة ، أم عمل تقصّده فاعل مجهول لم يخطئني بمقدار ضئيل من الشعرة؟ . . . العمارة احتلت مساحة صغيرة ، واختل معها ميزان الزقاق . . كأنها خط عمودي يطعن سطراً أفقياً مهندماً من البيوت . . .

سرت ما تبقى لي من الطريق أتلفّت يمنه ويسرة وإلى الأعلى ، وأنا أحس بأن الماء يجف عن جلدي ، ويتحول إلى بخار دافئ . . الماء فأل حسن! هكذا فكرت قبل أن أواصل سيري إلى شقتي ، ولم تكن تفصلني عنها مسافة بعيدة . . لا أزال اتلفت إلى الوراء بحثاً عن هذا الفاعل المجهول الذي فززني بالماء من حلم طويل . . ما هي إلا دقائق حتى خرجتْ تمام من بيت يجاور العمارة . . كانت تربط شعرها على شكل ذيل حصان ، وتحمل بعض الطعام للقطط في

حديقة الرصيف . . . . التفتُّ إليها . . تبسمت ثم لمت فمها بعد الابتسامة . . لأول مرة أعرف أنها تسكن هذا الزقاق . تمتمتْ وقالت بأنها تنتظر الفلاح . .

الآن عرفت ، يا جانو ، من هي تمام ، التي كانت تمر من كل مكان في الزقاق ، بل هي دخلت إلى الحلم أيضاً تحمل قميصاً من قمصان هديل . . وأخيراً ظهرت في الفلم الذي صورَتْه ريتا تحمل سترتك السوداء ذات القلنسوة . . لم أتوقع أنها تسكن هذا البيت المجاور لبيتك . والآن تريد للحلم أن ينتهي . تخيلي يا جانو ، يوماً من الأيام ، أن تستيقظي من النوم ، وتجدي أن كل حياتك التي مرت هي مجرد حلم . . تخيلي أن يقال لك سترجعين الآن وتبدئين من جديد . . . هل ستفرحين ، أم تشعرين بالحزن؟

جانو أنت معي في هذا المكان حتى وإن غادرتِ العراق . . تمام هي التي جاءت بنا إلى هنا . . أنا وأنت في مكان واحد . تلاحقنا تمام من مكان لآخر ، وتظهر حتى في الفلم الذي صورَتْه ريتا . . يبدو أنها تمرّر قصتنا على الورق ، . وتجمعنا في هذه الحياة من أجل شيء واحد ، يا جانو ، هو أن نكون في خيالها مع بعضنا البعض طوال الوقت . . ومن خيال تمام سننتقل إلى خيال أبدي . . لا تستغربي فلربما

تكون تمام هي صاحبة الإيميل الذي ذهب لخانة السبام . .

«أنا بخير والحمد لله ، وكما تعلم من يعيش في العراق يغرق بانشغالات كل يوم من نواقص البيت وبعض احتياجاته . . ثلاجتنا تعطلت وتبهدلنا ثلاثة أيام بين المصلحين ، وبعدين بدّلناها . . يا سبحان الله دائماً عَطَلات البيت تتجمع في وقت واحد . . مرة الكهربائي . . ومرة السبّاك . . ومرة سمكري السيارة . . وهذا اليوم جاء الفلاح منذ الصباح الباكر ، ولم يكمل عمله إلاّ بالحادية عشرة . . وعندما أخرجت له الفطور كان منهمكاً بالعمل فأكلتْ القطط فطوره ، واضطُررت لعمل الفطور مرة أخرى مع إضافة بعض قطع الطماطة لتعويض النقص في فطائر اللحم التي أكلَتْها القطط . هذه التفاصيل تجعلني لا أفضّل سكن الشقّة على سكن البيت ، لأن البيت يوفر لي كل المزاج الذي أحتاجه لشرب كوب الشاي والنظر من النافذة وتأمُّل روعة الحياة خارجها ، والأهم من ذلك كله الاستماع الى زقزقات العصافير في الحديقة» .

وكأنها قد سمعت أفكاري كلها ، قالت لي تمام ، وهي تضحك :

ـ نعم ، جنان تعرف تمام التي تكتب القصص ، يا هاني . ولكنها لا تعرف بأني سأمرّر قصتكما على لابتوبي

الذي نسيته في بغداد؟

- أين نحن إذن؟ ألسنا في بغداد؟

- كلا . نحن في الطريق إلى الفلوجة .

(٣٢)

الذهاب إلى هناك

الفلوجة ذهبتُ لزيارتها مع أبي بعد عشر سنوات من حادث السيارة التي اضطرمت فيها النار ، خمس سنوات قضيتها في رحلة العلاج إلى أمريكا ، وخمساً أخرى لم يهزّني فيها الشوق للاقتراب منها . وعندما أنظر للوراء لحساب عدد السنوات التي مرت وانقضت ، أستغربُ كيف حلّت ورحلت بلمح البصر . لم تكن الأيام تمضي بهذه السرعة فيما مضى . . وأشعر بالذنب لأني تركت أبي هو الذي يزورني ويطمئن عليَّ . . أردت البقاء وحدي ، فعاملت نفسي كمريض قبل أن

يفعل هو ذلك . . والآن لا أعرف هل كان أبي قد أختُطف ، أم اختفى عدة أيام بسبب جلطة دماغية خفيفة ضربته ، وجعلَتْه لا يعرف كيف يعود لبيته؟ . . عرفتْ زوجته ، تخميناً ، أنه قد صعد حافلة النفرات إلى بغداد ظناً منه أنه يعود إلى بيته في الفلوجة ، ويبدو أن وعيه قد عاد إليه بعد أيام ، وغادر منطقة التيه ، فاتصل بي سائق سيارة أجرة يسألني هل تعرف شخصاً اسمه عبد اللطيف؟ اسمك موجود في موبايله وهو يريد العودة إلى الفلوجة . . السلامة لها علامة ، وعندما قال أبي (دفعة مردي وعصا كردي) عرفت بأنه بألف خير . . احتضنته بقوة ، وقبّلت يده ، فبكى حتى اخضلت لحيته بالدموع . . عند ذاك أحسست بأني يجب أن أعود معه . . وأني اريد ذلك . . وعندما نريد لا يبدو الدرب بعيداً . . بل إننا طوينا مسافته بطرفة عين ، حتى أنني لم أحسب حساباً لسيطرات الطريق ، أو لتحذيرات خالي عبد الأمير ، الذي اتصل بنا من النجف ، وطلب منا البقاء في بغداد . أوقفونا في عامرية الفلوجة ، وأنزلونا من سيارة الأجرة ، ولم أكن لحد تلك اللحظة أفرّق بين جنود قوات عسكرية وأمنية مختلفة الأسماء ، ولا عرفت في حياتي التمييز بين الرتب الموجودة فوق أكتاف العسكر ، ولكنّ أحدهم أوقفنا وجعلنا ننتظر مع رجال آخرين قبل الدخول إلى مدينتنا . . لم يصرخ أحد منا ،

ولا صرخ بنا أحد ، وطالت وقفتنا ، وتزايد عددنا ، حتى تجمعنا مع الذل في قفص واحد ، ومهما كانت الأسباب ، فقد عاد لي طعم الهوان الذي كنت قد نسيته .

أول أن وصلنا البيت ودخلنا إليه ، تكلم أبيٍ وأخبرني بالحقيقة . كانت سواقي الحديقة قد جفت ، وبدلاً من الماء الجاري ، رأيت أقداحاً بلاستيكية تيبس الشاي في قيعانها ، وفردة نعال من النوع الذي يستخدم في الاستحمام ، وأكياس صيدليات ملوثة بالتراب ، ومكنسة يدوية محبوكة من الخوص . . مع بعض العروق والجذور الميتة الموجودة على الأكتاف الترابية للسواقي . ويبدو أن زوجة أبي قد تركتها مهملة ، فامتلأت بالأوساخ وأعقاب السكائر .

أشّر أبي إلى زاوية في الحديقة فرأيتها مرتفعة ، وعرفت السر . .

لماذا لم تخبرني الحقيقة يا أبي منذ البداية؟ لماذا لم تخبرني بأن أمي مدفونة في حديقة بيتنا؟ قال لي بأنه كان يريد لي العودة إلى مسقط رأسي أول أن عدنا من أمريكا ، ولكنه بعد أن رآني سعيداً في مكاني الجديد ، أصبح يخاف عليّ من الظروف السيئة التي تعاوَدَ ظهورها مرة بعد أخرى . والآن أيضاً سيتأجل الآوان لنقل رفات أمك من البيت الى المقبرة . .

- هل تفكر بنقلها إلى مقبرة الفلوجة؟

- أمك ستدفن ثلاث مرات يا هاني إذا فعلنا ذلك؟

قتلها الأمريكان ودفنها أبي في الحديقة ، ولم أعلم بهذا إلا الآن من أبي الذي كان ينتظر استقرار الوضع ،لكي ينقلها مرة واحدة إلى مثواها الأخير في مقبرة السلام ، وهي المقبرة التي دُفن فيها كل أهلها الذين لم يعارضوا في تلك الأيام زواجها من رجل سني . . بل أن أحد أخوتها ، وهو خالي عبد السلام ، التحق بها وفتح محلاً للنجارة في المدينة ، ولو كان يصلي ، كما تفعل أخته ، لما وجد أبي يعارض صلاته غير مكتّف اليدين ، أو سجوده أثناء الصلاة على التربة* . بعد لحظات من وقوفنا بالحديقة أطلّت أمي برأسها من السطح . . لا تنال الأرض ولا تطول السماء . . كجسم مفرد تلفظه الكواكب فيظل سابحاً في فضاء مظلم بارد . . كانت تضع عُدداً بدائية لسحب رحيق الورد هناك . . وكان جهاز التقطير يشتمل على جرة معدنية تضع فيها الورد ، ثم تقوم بختم حلق الجرة بعجين متيبس يمر خلاله أنبوبٌ طويل وظيفته تكثيف بخار الورد ثم تقطيره في دورق آخر محكم الغلق تنتهي اليه أنبوبة التقطير . بقيت عيوني مرفوعة إلى السطح حيث نظرتْ لي أمي ليلو من المكان نفسه الذي

كانت تقف فيه أختي الوحيدة . . . . وفي تلك اللحظة نفسها رن جرس الموبايل .

- هلو مسرة . .

ظلت مسرة تتحدث وأنا غير منتبه إليها . . مسرة تتصرف معي كأخت كبرى وتتابع أحوالي وأحوال المنطقة أولاً بأول ، إنها امتداد لريتا التي قالت في شريطها عني إنْ لم يكن شأنُ هاني شأني أنا فشأن مَن ، إذن؟ . . ها يا هاني لماذا لا ترد؟ آسف يا مسرة لم أسمعك؟ سألتك لماذا لم ترد على ريتا حول جائزة الشجاعة؟ . . اتصلتْ بي هذا الصباح لتسألني ماذا فعل هاني بشان الفيزا؟ ، وهل هو قادم لتسلم الجائزة؟

أنا مرشح لنيل جائزة الشجاعة عن أي شيء بالضبط؟ عن طمس ما كنت عليه ، أم لكي أخالف أبي على الدوام ، وأصبح مثلهم ، أو واحداً منهم؟ تلك الأفكار قاطعَتْها مسرة لتخبرني أنها موجودة في بيت ظافر زوج بيداء ، وأن عبير وعلاء أولاد بيداء قد تسلموا بعض الهدايا . . والأب ظافر ظهر أنه فعلًا متزوج من امرأة أخرى اسمها ضحى ، وهذه الزوجة الثانية ، التي تزوجها بعد أن ماتت بيداء بسبب الانفجار ، موجودة الآن في البيت ، وتحاول الاستفادة من المساعدات التي تقدمها لهم .

مسرة دبلوماسية جداً ، ومؤدبة إلى أبعد الحدود ، ولا تعتقد أن هناك صورة نمطية يجب الحط فيها من صورة زوجة الأب الشريرة ، ولكنها اضطرت إلى التصريح بأنها لا تحب هذه المرأة التي تحاول الاستحواذ على بضع ألعاب وأكواب وكرتونات معلبات وقرطاسية . . مما يعني لأية درجة مقيتة هي ضحى تلك ، مع ذلك ، وكما توقعتُ ، فقد اعتذرت مسرة لما تفوهت به من كلام ضدها . .

قلت لها لا داعي للاعتذار يا مسرة ، فهذه المرأة التي تشعرين بالذنب تجاهها كانت هي السبب في ضياع أولاد بيداء ، فموتها قد أدى بمفيدة أم زوجها إلى أن تمنع حفيدها علاء من الذهاب الى المدرسة لكي يقوم برعاية شؤون أخته عبير في غيابها . . فمفيدة تخدم في البيوت ، ولا تستطيع أن تترك حفيدتها الصغيرة مع زوجة ابنها الجديدة التي تسببت في الكثير من المشاكل . . مسرة لاذت بالصمت وكانت كما يبدو تفكر بطريقة أفضل تساعد بها هذه العائلة ، وأنا أفكر وأتساءل عن سبب بقائها هنا أكثر من سبب بقائي أنا . . هل هي موجودة رغماً عنها؟ . . وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا تدافع بكل حماسة عن النساء والاطفال ، وتساهم في تطبب المرضى ، ولا تحاول أن تفعل شيئاً لنفسها؟ . .

ولكن هل حاولتُ أنا؟ منذ شهور وأنا أعمل معها في ترجمة بيانات يدفعونها لي من المنظمة التي تعمل فيها ، وكأنني نزلت عليهم هبة من السماء . . قالت لي : إن لديهم بعض الأجانب من جنسيات مختلفة ليس بينهم بريطاني أو أمريكي واحد . . وذات يوم ترجم لهم ، من يُفترض أنه يعرف الإنكليزية بطلاقة ، جملة (گو أهيد) إلى اِذهب للرأس . . هذا هو أفضلهم بالإنكليزية ، فكيف تريدهم الاستغناء عنك وعن خدماتك؟

هه . . هل هو إنجاز آخر استحق عليه جائزة الشجاعة؟ .

فجأة وقبل أن تنهي مسرة مكالمتها سألتني ذلك السؤال الذي بقيت حائراً كيف أجيب عليه . . كنت قد جلست على بساط مفروش على أرض الحديقة قرب قبر أمي ، أُنقّل الهاتف من يد لأخرى ، حتى قالت مسرة :

- أتعرف جنان؟

لم تستطع كلمة واحدة أن تتكون على لساني . . ومسرة هي التي واصلت كلامها وقالت :

- علمت أن جنان قررت أن ترجع إلى بغداد من أجل بعض المصادر التي تحتاجها في دراسة الدكتوراه . . وأنها ستصل بغداد هذا اليوم . .

أصابني الذهول . . كيف عرفت مسرة ، أو عنّ لِبالها أن تتصل بي وتخمن أن هذا الخبر يهمني؟ . . كيف يكون وصول جانو في هذا اليوم بالذات وأنا بعيد في الفلوجة؟ . . فجأة وسط ذهولي وذلك التأثر الذي خنقني استطعت النطق ، ورجوتها أن تزور جنان فور وصولها . . يجب أن تتصل بها من أجل أن أطمئن عليها . . أغلقتْ مسرة الهاتف قبلي ، فسمعتُ ورأيت كل ذكرياتي مع جانو مثل صور تتلاحق ثم تتقطع . أخاف أن أمشي! أخاف أن أتحدث! أخاف أن أفرح . لا أريد أن أمشي ، ولا أن أجري . . لا أرقص ولا أطير ، لأن السكون التام كان هو حيلتي عندما أتوجس خيفة من الفرح .

هل هي الساعة العاشرة والثلث ،أم الرابعة إلا عشر دقائق؟ لم أعد أستطيع حتى التمييز بين العقرب الطويل والعقرب الصغير من ساعتي اليدوية . انتبه أبي إلى تغير أحوالي بعد أن أغلقت الهاتف ، فقال :

- شكو؟

- جانو ستأتي إلى بغداد . .

- منو جانو؟

كنت في حديقة بيتنا في الفلوجة عندما سمعت بهذا الخبر . . أكملت المكالمة وأنا أنظر إلى قبر أمي لا أعرف

ماذا أفعل . . أبي سألني من هي جانو؟ كذبت عليه ، وقلت له إنها مندوبة أجنبية تريد مني ترجمة بعض الأوراق إلى العربية . . إنه ينزعج من أعمالي هذه ، ولكنّ تفكيري لم يسعفني بغير ذلك .

- هل سترجع إلى بغداد بالفعل؟

- نعم .

- ألا تعلم أن الطريق قد حاصرته القوات العراقية؟ ولم يعد هناك منفذ للخروج .

ساعة الصفر قد حلّت ، وانتشرت الأخبار السيئة بسرعة بين الناس ، وفي كل يوم يمر أقاسي أشد الجزع ، ويتدهور الوضع على نحو خطير داخل الفلوجة . . سعر كيلو السكر وصل إلى خمسين الف دينار ، وكيس التمر أصبح بمئة دولار . . والقرار الوحيد الذي يجب أن أتخذه هو أن أنجو أنا وأبي من هذا الخراب . عودة جانو من لندن إلى بغداد أيقظت فيَ كل الحماس للخروج من هذا المكان ، بل جعلتني أشعر بالفزع لأني قد لا أكون هناك عندما تأتي .

أبي قال لي :

- ابقَ هنا .

- وماذا أفعل هنا؟

- هل نسيت ما فعلته أمريكا بالفلوجة؟

- لم أنس ما فعلته يا أبي ، وإذا كانت أمريكا تريد الانتقام من الفلوجة ، فأنا سأعود إلى بغداد ، وأتصل بمن أعرف من المنظمات للنجاة من هذا الوضع المزري .

- هل ستتصل بأولئك الجواسيس مرة أخرى؟

- كيف تضمن يا أبي رؤية الأشياء بوضوح من هذا المكان ، وأين هو موقعك كشاعر مرهف في صفحة غير محايدة اختلط فيها الإرهاب بمفهوم الدين ، وتجاوز على باقي مفاهيم الحياة؟

- وماذا هناك في الصفحة الأخرى غير أشياء أمرّ وادهى ، ألا ترى كيف انقلبت الدنيا وانمسحت هويتنا؟ فماذا يمكنك أن تعمل مع من يستهدفون هويتك .

- هذا هو بالضبط ما أقصده يا أبي . . يوم جاك الواوي ويوم جاك الذيب . . . وكل ما أراه في الصفحتين يجعلني أريد خروجنا من هذا الوضع المزري .

- ليست هناك ممرات آمنة ، وإن وُجدِتْ فهي فقط للنساء والأطفال وليست للشباب من أمثالك .

- من يخاف الخروج فهو إرهابي يا أبي ، وأنا لست ارهابياً ولا متعاطفاً معهم .

- هل أصبحتَ أمريكياً؟ . . كيف تُسمي من يقاومهم بالإرهابي؟ هل من يرمي برصاصة قناص مثل الذي يرمينا بصواريخ وقذائف الدنيا كلها .

- يا أبي كيف تميز المقاوم من الإرهابي وسط هذه الفوضى؟ وكيف تضمن أن لا يسيطر الإرهابيون ، وليس المقاومين الوطنيين لو دُحرت قوات الجيش ، ولهذا دعني خارج هذه الفوضى ، أريد أن أكون في حديقة روحي ، ولا أريد أن أكون جزءاً مما سيحصل وما سيكون أيّا كان . أبي يجب أن نخرج من هنا .

- هناك قنص وقصف عشوائي من المدفعية ، وقصف من طائرات التحالف الذي تدافع عنه .

- المعارك على أطراف الفلوجة فقط .

- من أين ستخرج ، إذن؟ . . وكيف تصل إلى منفذ للخروج .

- سأتدبر أمري للوصول إليه .

من أين أذهب ، وبأي اتجاه؟ . كل اتجاه مشتعل بالنار . .

الحدود الغربية للفلوجة لا زالت محاصرة دون اقتحام ، والقوات العراقية تقدمت من منطقة المزرعة شرق الفلوجة بغرض الوصول إلى الحي العسكري داخل المدينة . . أما اذا قررتُ الذهاب باتجاه الجنوب ، فالقتال مستعر في النعيمية قريباً من ناظم السدة . . وجسر التفاحة أيضاً سيطرت عليه القوات العراقية وتمددتْ إلى مركز شرطة النعيمية بهدف الوصول إلى حي الشهداء الذي تتمركز فيه قوات تنظيم داعش ، ويعتبر خط الصد القوي وترسانة أسلحة التنظيم . أما من الجهة الشمالية الشرقية فالقتال مشتعل أيضاً في عدة مناطق أهمها الصقلاوية التي يتشارك الحشد مع الجيش لاستعادتها مع الگرمة . .

ـ إذا اطبقوا على المحورين سيدخلون الفلوجة . . سيسقط العشرات وهم أبرياء ، وأستطيع أن أرى السياسيين يتقاسمون مآسينا منذ الآن؟

ـ أنا في هذا معك أبي . . ناس بالفنادق وناس بالخنادق . . موجة أخرى من الشهداء والجرحى والنازحين بلا ذنب سوى صراع شرس كصراع الديوك والهررة على مناطق السلطة والنفوذ . . كلهم يتاجرون بآلامنا . . وتعلمت أن لا أصدق أي طرف من الأطراف . . سأتصل بمسرة .

- ومن قال لك أن مسرة وغيرها ليست طرفاً آخر من هذه الأطراف .

قالت لي مسرة إن ألفاً ، من بين عشرة الاف فروا من الفلوجة ، قد تم احتجازهم في نهاية الممر الآمن باتجاه الصقلاوية ، وعلى الرغم من كونهم بدون لحى . . فقد أوقفوا للتحقيق معهم ، لأنه من الصعب على الجيش التفريق بين من هو داعشي ومَن هو ضدهم . . أسماء الدواعش معممة على جميع السيطرات ، واسمك سيذهب إلى الحاسبة ، وإذا لم تكن داعشياً سيطلق سراحك على الفور؟ يا لها من مفارقة . . قبل أيام حدث العكس ، واحتجزت داعش بعض الشباب من سكان الفلوجة بحجة عدم إطلاقهم لحاهم ، كما انهال مسلحو التنظيم بالشتائم على السكان خلال حملات الدهم ، واتهموهم بالجبن لعدم مساندتهم والوقوف معهم في مواجهة القوات العراقية .

فكرت باسم أبي عبد اللطيف . . أنا لا أعلم عنه شيئاً منذ أن عاد للفلوجة . . ولكن ما دمنا قد دخلنا بأمان ، فلن يكون اسمه سبباً في اعتقالي . . مسرة لديها معلومات مؤكدة تقول إن طريق غرب الفلوجة عبر الخالدية سالك إلى حد ما ، ولكن الطريق الجنوبي هو الأكثر أماناً ، وهذا الممر يسير بمحاذاة

نهر الفرات ، ومنها يسير الفارّون نحو خمسة كيلومترات حتى يصلوا زوبع ، ومن هناك يعبرون بالزوارق . . هذا هو طريقي الأسلم ، بعد أن وجدتُ تقاطع النصر والسلام باتجاه عامرية الفلوجة ملغّماً بالجيش والحشد . سيكون منفذي للخروج عبر طريقي الخاص المختلف عن هذه الفوضى بكثير ، وسيظل طريقي مختلفاً حتى وإنْ اعترضته مثل هذه المناظر العسكرية . . أنا لا أريد أن أراها تتقاطع مع طريقي ، فكيف يريدني أبي الحكم على شيء لا أريد أن أراه . . وكيف أراه وأنا لا أحكم إلا عدداً قليلاً من الرعايا ، وبعضهم موالون لي بتعصب ، لأنهم يجدونني شاعر الحمام والعصافير ، ولا أحد منها ينحني لي خوفاً من القتل ، أو طمعاً في الجنة .

بعد مسير طويل استطعت أن اخترق الأطواق الثلاثة للفلوجة عبر أرض محايدة وممر آمن هو حكاية وجهي التي جعلتني لا أخضع حتى لتحقيق عسير قبل الإفراج عني . . وصلت السيطرة نفسها التي استوقفَنا فيها الأمريكان . . واحترقنا فيها أنا وأمي . . فوقها يرفرف علم لم تكن ألوانه واضحة فيما مضى ، ولكنه الآن متسخ وممزق . ويقف فيها رجال عراقيون لم يسمحوا لي بالمرور في البداية . . ولكن أحدهم كان من سكان الفلوجة ، ويعرف أبي وقصتي . .

أي أنه يثق بروح شاعر مسالم طغت شاعريته على حكاية وجهه . . ولولاه لما استطعت المرور ، فليس هناك شباب أصحّاء أقوياء على الإطلاق يتوجهون للممرات الآمنة . . هم إما درع بشري ، أو مقاتل منضمّ لداعش سواء بإرادته أو هو مضطر . . وهؤلاء أيضاً لا يخرجون من الفلوجة ، خوفاً من عدم التمييز في المعابر بين مَن هو داعشي ، ومن هو مهدَّد ، أو مضطر . ولهذا السبب كانت العوائل تخرج بدون أربابها الذين لا يعرفون عن مصيرهم شيئاً داخل المدينة . . موجة النزوح كانت كبيرة . . وكما قال أبي : لا تدعْ رجل الأمن أو الشرطة يشاور عقله ، عندما يسمح لك بالمرور فأسرع بعيداً عنه بلا أي كلام ، ولا تفكر حتى بأن تفكر . أستطيع أن أرى أنه يراك منذ الآن؟ وقد يسمع حديثك أيضاً .

الطوق الأول كان لقوات الرد السريع وجهاز مكافحة الإرهاب المختص بحرب الشوارع ، والطوق الثاني كان لحشد العشائر وألوية الجيش ، والطوق الثالث والأخير كان لقوات الحشد الشعبي التي أحاطت بالفلوجة كالحزام . . طوال الطريق وأنا أفكر أن داعش إذا كانت قد انكمشت من نهر الفرات وخسرت أهم مواقعها ، وبدأت عناصرها تتهاوى أمام الجيش العراقي وجهاز مكافحة الإرهاب ، فهذا يعني أن

ما يحصل يعكس إرادة أهل المدينة أنفسهم . فالفلوجة ظلت عصية على الامريكان مدةً طويلة ، وعلى الحكومة العراقية مُدداً أطول ، ولن يكون الأمر مختلفاً إلا عندما تكون الإرادة الأهلية موجودة ، وبدون تدخل من دول الجوار .

(٣٣)

قبل الوصول

هل اتصل بجانو رأساً عندما أصل بغداد؟ . . هل أقول لها أنا هنا ولم أغادر بغداد ، بينما في الحقيقة أني عدت فقط من أجلها؟ إنْ اخبرتها بذلك ، سأبدو أمامها ملهوفاً ومتهوراً بشكل كبير . فهل ثمة بأس في ذلك؟ . . كل الكائنات تكون خفيفة الروح والأرجل مع الحبيب . . يعود بها الحب إلى مرحلة سابقة لسن الرشد . . فالكائنات متى ما صارت بالغة أحبت العزلة ، وثقلت أقدامها وحركتها وتحذرت من اتخاذ القرار قبل التأني والتفكير الطويل . . وأنا أيضاً كنت

أشعر بكل هذا الثقل في التصرفات والحركة ، إلى أن التقيت جانو فعرفت ، مع كل تهور ، أن هذه هي تجربتي الأولى مع الحب . . وعرفت أن كل النساء حكايات عابرة ، وأن جانو هي حكايتي . .

أنا أحب جانو ، جملة تشبه أنا جوعان ويجب أن آكل . فهل يمكن منع الجوعان عن الأكل؟ ، أو هل يمكن ، إذا قال أريد الطعام الشهي ، أن يقولوا له تعال أجلس هنا سنعطيك المقام بدلاً عن الطعام؟ .

لم أعد أشعر بالحب لهذا الطريق بين الفلوجة وبغداد ، ولم أزر الفلوجة قط إلا لأنه ارتبط بموت أمي ورسم خارطة كخارطة العراق على وجهي . . . ويا لها من مفارقة! ، فإن حكاية وجهي المرقّع كانت هي نفسها جواز مروري في هذا الطريق الذي يأخذني الآن إلى جانو ، ومشيت فيه للذهاب إلى القبة الفلكية في الزوراء عندما كنت صغيراً في المدرسة . . باعت أمي بطانية فاضت عن حاجتها من أجل شراء طعام لائق للرحلة . . . ولأن الأكياس كانت رديئة جداً ، فقد تمزق كيس اللالنكي* بالذات ، وتبعثرت ثماره على الأرض . وكادت أمي أن تموت عندما انحنت بين عجلات السيارات من أجل جمعها ، ثم ماتت بالفعل

بعد سنوات عندما انحنت فوقي لتحميني من الإطلاقات النارية .

لم أكمل دراستي الجامعية حتى بعد أن عدت من أمريكا إلى بغداد ، لأن الوضع كان يزداد سوءاً بين حرب وأخرى ، ووضع وجهي لم يشجعني على الدخول الى الجامعة ، ففضلت أن أُعلّم نفسي بنفسي ، فتحولتُ ، في تلك الأيام ، من غراب قبيح إلى ديك فصيح يترجم ،لمن يرغب بالهجرة ، كلَّ ما يُدلون به من معلومات وبيانات أغلبها كانت تتعلق بالهجرة إلى كندا وأستراليا ، وأحياناً يستجيرون من الرمضاء بالنار ويطلبون الوصول إلى أمريكا نفسها . . . سنوات طويلة ، والحرب لا تنتهي . . فلم يعد السيّئ يقارَن إلا بالأسوء . . بل لم تعد الأمور تسير إلا من سيّئ إلى أسوأ .

أصبحت على الأعراف . . لا أستطيع الدخول إلى جنة الأمريكان ، ولا أن أقاوم جحيمهم مثل أبي . . أنا أريد أن أعيش حياة سوية مثل كل الناس ، فكيف أفعل ذلك وأنا أرى هذه المأساة؟ أودعت أبي في بيت عمي الذي لامني على العودة . . لا يعلم أن أبي قد أعاده النسيان إلى فطرته ، فأصر على انقاذ ابنه الوحيد . . إنه جالس على الكرويت* تائه عن الحاضر إلى درجة عاد معها إلى نفسه ، وأصبح

يشعر بحاجتي للابتعاد عن هذا العالم . . ورغم أنه قد لا يستطيع تذكر أشياء حدثت منذ قليل ، أو كلمات قالها عن البقاء للقتال ، فإنه يمكن أن يتذكر بعض الأشخاص والأحداث البعيدة . . من بينها كلمة اعتاد أن يقولها كثيراً ، فأصبح قولها بالنسبة إليه عملاً تلقائياً . .

- طبي جوة* .

كان يقولها لأمي كلما رآها تقف في الباب ، ولأختي الصغيرة التي لم تتجاوز الأعوام السبعة ، وبعد الحادث الأليم الذي تعرضت له أمي ، أصبح نابذاً كل ما علمنا أياه سابقاً من قصص وقصائد ومأثورات ، شاغلاً تفكيره بالكيفية التي سيختفي فيها الأمريكان من العراق ، وأنا أيضاً نبذت أية محاولة للنقاش معه حول أشياء لم يعد قادراً على القيام بها ، كحمل السلاح . أبي كان يعتقد أن الجهاد هو الذي سيغير كل شيء . . كل شيء ناقص . . قد يكمله شيء آخر على الميزان . . وهذا الشيء الآخر هو السلاح مرة أخرى وأخرى وأخرى . هذه الفكرة تنتقل ، عندما يشيخ الكبار مع باقي أفكار الجهاد والتدين ، إلى من هم أصغر سناً ، ولم أكن أجد استعداداً للقيام بهذا الدور كما يجب ، بل لا أمل من تذكيره بشاعريته ، ومأثوراته ، وتراث عائلته الأمضى والأقوى من

السلاح . . فيرتجل كلامه شعراً ، وبجيبني بألم :

همي ما جرى لْأرمن ولا روس

بلا وجه ظلت بلادي ولا روس

ضاق بيه الخلق جابولي عروس

هلعروس وي الزمن صارت عليَّ

من المهم أيضاً أن لا يعامل الإنسان أباه كما لو كان طفلاً ، فهو شخص بالغ ، ويستحق الاحترام والتبجيل ، ومن الواجب أن أتقبل وضعه وتصرفاته ، وأن أتجنب القول له «أنت مخطئ» ، مغبة الوقوع في مهالك عقوق الوالدين ، أو قد أكون أنا المخطئ عندما أنبذ السلاح ، وأتشبث بحديقة جنان يا أبتي ، تلك الحديقة الصغيرة التي تحيط بها مصابيح كانت مشتعلة على الدوام ، وهي الآن مطفأة وعاطلة . . وحتى عندما طلبتْ جانو مني أن أسقي الحديقة في غيابها ، وجدت القواعد منخورة ، فأصبحت يدي تحطم جميع المصابيح أثناء تبديلها .

قبل الخروج وقتَ الغروب صعدتُ إلى سطح البيت ، ومن الجهة الشمالية للفلوجة ، كنت أرى العلم العراقي يرتفع مرة أخرى فوق المباني الحكومية بدلاً من أعلام داعش . كأنني صعدت السطح منذ ألف زمن ، أي قبل

حادثة الحريق ، عندما كانت البنات تمر من هنا في الطريق إلى المدرسة . والأعرابية تتمنطق بعباءتها السوداء ، وتهز ردفيها أثناء المشي بطريقة مثيرة للغاية . يرتفع الدخان يومياً من عدة مداخن تحرق حطب البساتين في تنانير البيوت ، فارتبط عندي كل دخان ببنت معينة . . دخان سجر التنور بحطب الطرفاء من بيت زينة ، ودخان شوي سمك الجِرّي من بيت ياسمين ، ودخان شوي الدجاج على الفحم من بيت أسماء ، أما بيت طارق الذي التهمتني فيه تلك المرأة الناصعة البياض فمختفٍ بين أزقة وبيوت وتراب ، لا نار ولا دخان ولا حطب أو رماد . . لا رائحة سوى الحطام . . وصورة الأمريكي التي تُذكّرني بحرارة الدم الذي كان يشخب من رأس أمي على صدري ، ثم يرشح من فمها ومن بين أسنانها عندما انحنت فوقي وحمتني من الإطلاقات النارية .

- فوتي جوة .

قتلها الأمريكان ودفنها أبي في الحديقة ، ولم أعلم بهذا إلا قبل أيام من أبي الذي لم يخبرني طيلة سنوات بهذا الأمر . . سافرتُ من سرير المستشفى هنا لسرير آخر في أمريكا ، ومن هناك عدتُ إلى مكتب وبيت مريح في بغداد . كان أبي يريد ، كما يبدو ، أن يُخرج موضوعي عن يده ،

فتركني سعيداً في حياتي الجديدة ، وأصبح يؤجل عودتي للفلوجة ، منتظراً هدوء الأوضاع لكي ينقلها من حديقتنا إلى مقبرة أهلها في وادي السلام في النجف .

- فوتي جوّه .

سطحنا كان يطل على باحة امتلأت بالقبور داخل أسوار مدرسة هجرها طلابها بعد سيطرة (داعش) على المدينة قبل عامين . . وتم ترتيب القبور بأرقام عددها بالعشرات . وكُتبتْ على شواهد القبور أسماء القتلى مع تواريخ وفياتهم باليوم والشهر والسنة . يبدو أنه قبورهم حفرت قبل أيام وأسابيع قليلة ، وأشكالها تشير بوضوح إليى أن حفرها تم دون إتقان ، حتى أن أسماء القتلى وتواريخ الوفيات التي تضمنتها الشواهد ، قد كُتبت بشكل مستعجل تضمن أخطاءً لغوية .

تساءلتُ عن المعنى . . معنى حياتي ومعنى موتهم . . معنى حب الموت أو حب الحياة . . لم يكن بيني وبينهم سوى غربال . . غربال يمرر تعاريفهم لأنها مختلفة عن تعاريفي . . سلفيين أو مغالين أو خوارج . . كل يلوح باختلافه مثل سكينة تغوص بالخاصرة . . فلماذا يواصل هذا النوع من المغالاة الظهور؟ هل هناك حاجة خفية له ، كحاجة السيارة المنفلتة إلى الكابح؟ ، وإذا كان الأمر كذلك ، فهل يتوازن

العالم بالفعل بعد كل قتال مع فكرة أو عقيدة متزمتة ، أم أن الأمر يزداد سوءاً لصالح الجهة المنفلتة أو المنتصرة؟

التفتُّ من تلك المقبرة المرتجلة إلى حديقتنا . . ومن مكاني في السطح سمعت قبل سنوات طويلة أختي الصغيرة تطلق صرخة مكتومة بعد لحظات من تشغيل محرك السيارة . . كانت سيارة نقل ضخمة لها حمولة كبيرة من البضائع اشتغل أبي عليها سائقاً أيام الحصار ، وكان يتنقل بها بين الفلوجة وعمّان والعقبة ، بعد أن لم يعد راتب تقاعده من الخدمة العسكرية ، وغلال المزرعة المجاورة لبيتنا ، كافية لإطعامنا . . نظري سار من الأرض إلى الأرض . . من تلك القبور الطينية التي لم يستطع القصف أن يحدلها مع الأرض ، وجاءني الصوت الذي لا هو لرجل ولا لامرأة . . إزعاج ليس إلا . . صوت متكرر يمشي إلى أمام . . ثم يتوقف حافياً ويحمل فردة نعاله البلاستك بوجه الجميع . . فردته الأخرى قد تكون مرمية في أي مكان آخر . إنه عبد العزيز المختل الذي يسير في الشوارع هائماً على وجهه . . رائحته هي رائحة سترة رجالية من الصوف مبللة ومعلقة في خزانة الملابس بعد خلعها في يوم ممطر . . هو الآخر لم ينجُ من الاعتقال . . ثم أُطلق سراحه بعد التأكد من غياب عقله . . كان الوحيد الذي يتجول بحرية في مدينة خلت من سكانها

تقريباً . . شاهدتُه يرفع نظره إليَّ . . ومن خلفه رأيت تلك المرأة المنقبة التي خرجت من المدرسة قبل قليل . . بدا شعرها من تحت الحجاب وكأنه مرفوع على شكل ذيل حصان . . وعندما اقتربتْ من عبد العزيز عاكسَها بنظرات وقحة ، وراح يضرب رأسه بالنعال . . عبد العزيز مجنون منذ وقت طويل ، وليس ممن أصابتهم الصدمات النفسية بعد دفن عوائل في منازلها بسب القصف . لأول مرة أرى الفلوجة بوضوح من فوق السطح . . وكنت أريد تغطية السطح بشرشف أبيض ، وفي الوقت نفسه أُلقي نظرة أخيرة على سطوح البيوت الفارغة التي توحي أن كل شيء في غياب تام . . في الفلوجة ، يحتضن الجامع الإنسان منذ الطفولة ، وفي كل مطعم هناك حجرة للصلاة . وجناح خاص للعوائل ، لأن النساء هنا محجبات ، أو منقبات . . وهكذا ، اتجه عبد العزيز للتدين باكراً . ولم تكن علاقاته جيدة مع البعثيين ، الكفرة بالنسبة له . وقد سمع الناس عنه لاول مرة حين اختلف مع شرطي ، فأطلق عليه النار ، وأصابه في ساقه . وقررت الدولة الا تتدخل ، وترك الأمر ليحل على طريقة الفصل بين العشائر . وتم دفع الفدية . ولكن عبد العزيز عاد وشتم رأس الدولة بعد أيام ، فدخل السجن ولم يخرج منه إلا وهو على هذه الحالة .

(٣٤)

أنا في الطريق يا مسرة

أسدلت السماء جفنها مع ارتفاع صوت المؤذن لأذان العشاء ، وانتهى الغروب بليل أخرس لم يعد يلعلع فيه الرصاص . . أو أصوات المارة . لا شيء سوى رائحة الدم الساخن . . دم أختي الصغيرة ، التي دهسها أبي وهي في السابعة من العمر ، ولا زال كف دميتها موجوداً في مهدها المتروك في السطح . . عاد بسيارته العملاقة إلى الوراء ، ولم ينتبه لأختي التي كانت واقفة في الباب . . . أنا الذي سمعت صرختها المكتومة قبل سقوطها تحت عجلة

الشاحنة ، ورأيتها تختفي مع رأسها ، وعندما صرختُ به لكي يتوقف ، نزل من الشاحنة وهرع إليها كالمجنون وقد سال دمها على الأرض ، راح يلطم كالنساء ، ولم يتردد من الصراخ ، حتى وهي تحتضر ، قائلاً : ألم أقل لها فوتي جوة طبي جوة . . فوتي جوة طبي جوة . . هذه هي النتيجة .

انسحق جسمها الهزيل تحت عجلة هائلة الحجم ، وسقط رأسها فوق حافة حديدية حادة نتئت من الحافة السفلية الباب ، فنفر الدم من جبينها ، وملأت رائحته الساخنة كفي لعشر سنوات ، ما انتهت إلا بدم أكثر سخونة يتدفق من فم أمي ومن بين أسنانها في سيارة أخرى . . ولا يزال الدم ، بعد عشر سنوات أخرى ، يتدفق من كل مكان ، ولا أحد يعرف ماذا يفعل الإنسان عندما يشعر بالذل ، ولا كيف ستكون نهايته عندما لا يفعل أي شيء . . مخيمات أو سجون أو حياة كحياتي التي غبت فيها عن نفسي ، وكأنني أدور بين رائحة الدم والدم . لعبة لعبناها في الطفولة وتنتهي بدوخة شديدة كانت تجعلني أسقط على الأرض . . .

ثمة أمر غامض يحدث ، أشعر بأن هناك خطأً ما . . ولكني لا أعرف ما هو ، وأن هذا الخطأ سيتصحح من تلقاء نفسه ذات يوم . . وإن كنت لا أعرف متى وكيف ، فقد أصبح

وجه أركان أمامي يطل بوجه حزين :

- ماذا تفعل هنا يا هاني؟

- وأنت ماذا تفعل في هذا المغرب المخيف؟

- أبحث عن أبي ، تأخر في العودة إلى البيت ، ولم أجده عندما ذهبت أبحث عنه في الجامع .

- هل تحتاج للمساعدة؟

- . . . .

- ما بك يا أركان؟ تبدو حزيناً . . أنا قادم إليك .

- لا لا تنزل يا هاني . دعك في مكانك الأمين . .

- أنا قادم إليك .

المدينة كلها تكاد أن تكون مهجورة ، كأنه الفراق قد هدم كل بيت ، ودخل إلى كل ركن من أركانها . . لأول مرة أرى صديقي أركان حزيناً بهذا الشكل . . الذهول قد ألمّ به مثلما كان يلم بي عندما كانت أمي تناديني باسم آخر هو آدم . . لم يعد أركان الذي أعرفه ، وهذه المدينة أيضاً ليست سوى مشهد مصغر لما تقود اليه دولة دينية تصر على التظاهر بأنها علمانية ، وتظن أن هذا التظاهر كافياً لاستقرار الامور . .

بيني وبين نفسي دافعت عن أبي مرة أخرى . . فهو إنسان

مسالم وجد نفسه يسير على خطى مدينة تنسج الأساطير حول أبطالها من المقاتلين أو العسكر . من الصعب تصور أي مدينة عراقية ، سواء كانت الفلوجة مدينة أعمامي أو النجف مدينة أخوالي ، لا تتبع تصرفاً مبنياً على تراث قديم موغل في القدم في هذه البلاد ، وفي زمن انعدام الاستقرار والأمان ، احتاج الناس أكثر للعودة الى الماضي البعيد ، أو القريب ، والتمسك بالبطل الثائر المنتقم في مواجهة المحتل الظالم ، وهذا النكوص للزمن الماضي كان يعني أيضاً الغربة عن مظاهر العصر الحديث الذي نعيشه كدور السينما ، ومحلات بيع الأشرطة الغنائية ، وصالونات التجميل ، وعندما اختلطت الأمور بهذا الشكل المربك ، تاه أبي المسكين ، وملأت أكياس الأدوية ومغلفات الأشعة بيته .

توسلت أبي العودة معي ، وبكيت عندما احتضنني بقوة حتى سمعت نبضات قلبه ، وشممت رائحة غترته الطيبة . كأن الجلطة قد أعادته إلى شاعريته وسجيته الأولى العاشقة للجمال ، فانتبه للدمار الذي أصبحت عليه المدينة ، وقال لي اذهب يا بني وابحث عن سعادتك بعيداً عن هذا الخراب . . سيطول الوقت كثيراً قبل أن يستقر الوضع ، وعندما يحدث ذلك تعال مرة اخرى لكي ننقل أمك إلى مثواها الأخير .

شعرت أن الشاعر فيه هو الذي يحدثني عندما قال لي أن الحرب عندما تنتهي ستكون هناك حاجة ماسة لحديقة جنان التي ترعاها . . قلت له لن أتخلى عنك ، وسأعود إليك في أقرب وقت .

قبل أنتصاف الظهر بقليل ، رن جرس الموبايل . . أول أن أجابتني مسرة قالت :

- هل وصلت بغداد؟

- أنا في الطريق يا مسرة؟

- هل من جديد؟

- قوات الاتحادية تمكنت من السيطرة على طريق الفلوجة السريع .

- لا تتأخر يا هاني .

(٣٥)

....

قف!

صاح العسكري ، فكان عليها أن تتوقف خلف شاحنة عملاقة ، وبعض الرجال يحاولون تحريك شيء ضخم تحت قماش من الكتان السميك في تلك الشاحنة . لكن انفجارا مهولا وقع على مبعدة أمتار . . تبعه صراخ وفوضى!! .

فجأة أخذتْ تسمع أصوات بكاء ، وترى السيارات وراءها تتراجع للخلف ، والهلع يحيط بها من جميع الجهات ومعه

هرولة الجنود . . هناك عدد قليل جداً من السيارات على هذا الطريق ، وأصبحت تدرك أن واحدة منها ، هي الشاحنة التي أمامها ، سوف تنفجر بعد الانفجار الأول . . جانو كانت في هذا الطريق ذلك الصباح للعودة من المطار . . سعيدة بأنها عادت للحياة التي تحبها ، ولكن ذلك الرجل الذي نزل من سيارته أمرها بالانطلاق ، وترْك المكان . . قالت لي تمام لاحقاً إن جانو فقدت القدرة على الحركة ، وكانت تسمع أصوات إطلاق نار دون أن تجد طريقة سريعة لترك هذا الطريق . . البلاد كلها كانت كذلك . عاجزة عن الحركة وتستعد للموت كل يوم . .

- لا تحدثيني عن البلاد يا تمام . . حدثيني عن جانو . ماذا حدث لها؟

- إنها جامدة في مكانها ، ولا يمكن لأحد إنقاذها سواك . . إنها يمكن أن تكون مصابة على الطريق لعدة ساعات قبل أن ينقذها أحد ، أو يمكن أن يحدث ما هو أسوأ ، فلا يجيء أحد ، ولا يتبقى منها أي شيء وتُترك وحدها في التراب ، أو تبقى تتلوى في العذاب . .

بقيت تمام تتصور الصور البشعة ، التي كان يمكن أن تصبح عليها جانو ، لولا أنْ قتلَ العسكري الرجل المفخخ

في الشاحنة الثانية قبل أن يفجرها . . بقيت جانو تتذكر ما حدث وتتلوى في العذاب . . . تمام كانت ميتة من خوفها على جانو ، وسمعت صرخاتها بعد أصوات الرصاص ، وبدت كأنها تحولت سريعاً إلى همهمات . كانت تحاول أن تبقيها واعية لكي تتذكر كل شيء . . تتحدث معها ، فترد عليها جانو بصعوبة شديدة ، ثم تنخرط في البكاء طلباً للراحة :

- لماذا أنت هنا؟

- أنت أعرف مني بالسبب يا تمام .

- وأين أنت الآن؟

- لا أدري .

أنا لم أر جانو في تلك الحالة ، فقط تمام هي التي رأتها ، وحملتْ سترتها إلي . كانت هي السترة نفسها التي رأيتُها تحملها في نهاية فلم ريتا . . ويبدو أنها في تلك المرة كانت تتوجه بها نحو جانو . . وهذه المرة خلعتها عن جانو ، وتوجهت بها نحوي . . قالت لي إنها وجدت فيها موبايل جنان ، وعلى شاشته رقم غير مكتمل يبدو أنها كانت تزوّله قبل إصابتها بالإطلاق الناري . . وعندما أعطتني تمام السترة وجدتها لا تزال دافئة ، ورقم الهاتف هو رقمي .

(٣٦)

تمام وهاني

تمام : أفكر بتغيير اسمك يا هاني؟

هاني : تغيرين اسمي؟ لماذا؟

تمام : أشعر بحاجة إلى اسم مختلف عن الاسم الحقيقي . اسم لا يحمله المئات من الناس . اسم لا يعترضه اعتراض .

هاني : اسمي موجود في بالك الآن ، فكيف الطريق إلى اسم آخر؟

تمام : من البداية واسمك موجود في بالي ،لم أشأ تغمية

عيون الصقر عند وصوله إلى مكانه الجديد ، وهو سلوك متبع لحجب الرؤية عنه تفادياً لاصطدامه بالبيئة الجديدة ، فيضطرب ، ويتجه إلى قيوده ، ويظل يعضها محاولاً التخلص منها .

هاني : البداية تركناها خلفنا منذ وقت طويل ، والصقر محتفظ باسمه الحقيقي ينظر إلى الأشياء المختلفة بدون قناع ، فلماذا تفكرين بتغيير اسمي الآن ، ولا تفكرين بتغيير ما حدث لوجهي؟ أردتك أن تجعلي الدنيا جميلة بلا حساب مثل يوم العيد .

تمام : كيف يكون هناك جمال بدون حساب . . كيف يكون هناك عيد وجانو غير موجودة؟ ما الجدوى من دنيا جميلة ، وأنتما ليسا معاً . العين ترى الجميع ، والقلب لا يرى إلا واحداً .

هاني : ماذا تقصدين؟

تمام : من عادتك أن تمشي غير مكترث بشيء . . لا بعطر الورد ولا بصفاء السماء ، كنت ترى بعينيك كل الناس ، ولا ترى أحداً ، ولولا ما حدث لك . . لولا الحزن والألم . . لولا الابتداء بعد الانتهاء . . لولا أن وصلت بغداد أيها الوراق والمشتاق ، لم يمتلئ قلبك الفارغ بحب جانو؟

هاني : ألا يمكن أن أشتاق إليها بوجه جميل؟ ألا يمكن للجرة الفارغة أن تمتلئ بالماء القراح بدلاً من هذا الحطام؟

تمام : أنت الفكرة يا هاني . . أنت الجرة والماء . . أنت الموجة التي حملها البحر وفوقها تل من الحقائب . . . . الحقائب امتلأت بالمتاع يا هاني ، ولا يمكن إفراغها قبل الوصول .

هاني : بل يمكن . . أريد أن أفتح عيني على الوجود لأرى كل شيء وقد أصبح على ما يرام . الفكرة في بالك أنتِ ، وتستطيعين أن تجعليها تسير في دروب أخرى . في حالة أفضل من هذا الحال .

تمام : كأنك تتحدث يا هاني عن أمر في طور الحدوث ، لا عن امر حدث وانتهى . . أنا لا أعلم إلا علمك أنت . . لا أضع للحكاية حدوداً بعد أن رسمت أنت حدودها . . أوَ تظن يا هاني أن هذه الحكاية مختلقة ، أو من وحي الخيال . . . أنا أروي حكايتك حسب ، إنها قصتك الحقيقية مع جنان التي كان الطريق بيني وبينها يمر من خلالك أنت .

هاني : هل انتقلت إليك جانو بهذه الطريقة؟

تمام : مشاعرنا تحتوينا مع من نحب في وعاء واحد ، فنستطيع أن نشعر بشخص ينظر إلينا حتى لو كان يقف

خلفنا . . بل نستطيع أن نشعر به يفكر فينا حتى بدون أن يكون واقفاً خلفنا أو بقربنا . . وأفكار جانو أيضاً وصلتني بهذه الطريقة . . حيث بدأت حكايتها ، منذ أن رأيتُها في محلك ، وحتى سافرت ثم عادت إلى بغداد أخيراً . . صحيح أنك ستجدها ملقاة مدماة على الطريق ، ولكنها ستشفى عندما تراك ، ورؤيتها أيضاً ستشفيك . . وستحتار هي أين تضع رأسها من فرط السعادة . وسيصبح العالم مليئاً برائحة حلوة شبيهة برائحة فاكهة محاطة بقشر رقيق .

هاني : إني خائف يا تمام . . قد لا يحدث ذلك . . قد لا نكون هنا حقاً .

تمام : كل ذلك لأني أردت أنا أن أُسميك باسم آخر . . أنظر كيف لا أعثر على اسم آخر . . أنظر كيف عثرتَ أنت وحدك على اسمها الجميل .

هاني : أشعر بأنكِ لا تريدين أن يمضي كل شيء على ما يرام . .

تمام : على العكس يا هاني ، أنت لا ترى أحداً غيرها ، فكيف أرى أنا أحداً غيرها؟ . . لا يوجد انفصال بين المحبوب ومحبه ، ولا بين طفل وخيط طائرته الورقية . . الحقيقة هي الحديقة التي يزرع فيها الخيال ما يشاء . . . وأحدنا يشعر

بالآخر عن طريقه . . الحقيقي هو أنت وجانو ولست أنا . أحاول فقط أن التقط الفرصة التي تبقيها حية ، حتى وإن شعرت بالألم .

هاني : لا تجعليها تشعر بالألم . إيّاك أن تفعلي ذلك .

تمام : أنت الذي سيجعلها لا تشعر بالألم ، وليس أنا يا هاني . ألا تذكر ما قالته لك ريتا؟ . . لستَ تعيساَ ولا متشائماً ، ولكنك سعيد بحزنك ، ونادراً ما تتكلم . . أعرف هذا ، ولكني سأجعلك تغني .

هاني : ريتا لم تعد معي ولا جانو . . وأنا وحدي في هذا الخراب . . أنا لا استطيع التفكير بشيء محدد عندما أكون بالانتظار . . ولا أن أتفحص التفاصيل وأنا متوتر . . وهذا ما حدث لي خلال مروري بالخرائب التي أحاطت بي . شعرت بالفزع من هذه الظروف التعيسة التي جعلتني هكذا . . لا أريد أن أتذكرها . ولا أن تذكريها عندما تضعيني في مكان جديد . . أشعر بأن هناك خطأ ما . . ولكني لا أعرف ما هو ، وأن هذا الخطأ سيتصحح من تلقاء نفسه ذات يوم . . وإن كنت لا أعرف متى وكيف ، أنتظر منك وضعاً أفضل من هذا؟

تمام : ما سيكون من أمرك قائم على ما صار . أنت الذي اندفعت يا هاني ، وباندفاعتك ملأت كل الفراغات حتى

أصبحت أنت صانع الحكاية ، وقد تكون الحكاية شاسعة بلا حدود مثل بخار ماء يتحول إلى قطرات مطر . . . . ماذا أفعل وقد انطلق السهم ، وقال الجيران بأن هاني شاب هاديء ومحبوب ومتفوق يحترمه الجميع ، وقد طغت آدميته على أي شيء آخر قد نراه في وجهه؟ .

هاني : هل تدركين حاجتك فيما تكتبين وليس حاجتي؟ هل ستُبقين على كل شيء كما لو لم تغطي عيون الصقر؟ هل ستلازمين هذا الواقع حتى في الخيال؟ كيف يكون لك هذا ، وقد زرتك من أجل مغادرة هذا الخراب؟ . . أردت مغادرة اسمي ووجهي ومحنتي . ولعلي ، في ركن قصي من اللاوعي ، جعلت هذا سبباً في فتح مكتب يساعد الناس على السفر .

تمام : ويا لها من حيرة حول ما حدث بعد ذلك ، فقد دعتك ريتا للعودة إلى أمريكا من أجل جائزة الشجاعة ، وأنت الذي اتخذت القرار بعدم الذهاب . أليس هذا ماحدث يا هاني؟ كنت قد أصبحت في حل من وصاية أبيك الذي كان يتهمها بالعمل في المخابرات ، وقال لك إن الأمريكيين لديهم برامج لدراسة معوقات سرعة انتشار القوات الأميركية ، والتي يمكن اختزالها في مستوى المشاعر المعادية لأمريكا

في العراق ، وقد تكون ريتا قد شاركت في برنامج لتحجيم هذه المعوقات ، واختيرت لهذه المهمة التي نجحت مع عودتك سالماً من كل مشاعر سلبية ضدهم ، وهكذا كان بإمكانك أن تواصل دفاعك عن ريتا ، وتذهب لاستلام جائزتها ، ولكنك اتخذت قرارك في النهاية . . قرار البقاء هنا .

هاني : تقصدين قرار البقاء في هذا الخراب؟

تمام : إنه قرارك يا هاني . . وكل ما في الأمر أنك وجدت الدليل إلى الطريق عبري أنا . . وليس من حقي تغيير المتاع في الحقائب .

هاني : لماذا أنا في خيالك إذن؟ أشرحي لي كيف تريدين أن تتخذي مني بطلاً في الخيال ، ثم تنسخين الواقع كما هو؟ . . وفي النهاية نكون أنا وجانو في تعاسة أمرّ من تعاسة الواقع ، وليس في جذل من اتساع الخيال . أردتك أن تحشريني في مكان أفضل من هذا المكان؟ في دار لا يدخلها شؤم ، ولا يلتفت إليها الحزن . جئتك من أجل ثياب جديدة وعيد جديد .

تمام : أليست جانو مجروحة الآن؟ فمن يداويها؟

لا أحد يجيب .

ما بال هذا الإنسان لا يتحرك؟ ألا يشعر بالوحشة من الظلام الذي بدأ يلف الغرفة؟ أليس هو من قال قبل قليل بأنني كنت السبب في ما حدث له ، كما كنت السبب فيما لم يحدث . سقطت آخر ورقة على أرض الغرفة ، جعلت هاني ينتبه ، ثم ينهض ليغلق النافذة ، كان قد شعر بالبرد من الريح القادمة من الخارج . نظر هاني من حوله . . وبدا أنه يريد الخروج من هذا المكان . هيا يا هاني افتح باب الخروج من هذا المكان . . أليس هذا ما أردته قبل قليل؟ . . أن تخرج من هذا الخراب . . . وتعيش في سراب شفاف يتلألأ ، كقطار بخاري يمشي بتؤدة . كطابعة يدوية تتكتك بصوت رتيب ، كدراجة هوائية يقودها ساعي بريد ، كباخرة تطلق صفير بوق بعيد . . كهاتف أرضي يشبه الهاتف الذي كنت تراه في بيت جانو ، كمذياع قديم لا يباع إلا في محال التحفيات . هاني أخبرني ماذا تريد؟ هل هذا ما تريد؟ أجاب هاني بالصمت .

هاني : . . . .

تمام : حسن يا هاني . إني أحررك وأخيرك . . أنت منذ الآن حر ، فماذا تختار؟

(٣٧)

ضوء في الحديقة

كنت أخرج من باب الزجاج الملون إلى ضوء الحديقة . . . . جميلة كبستان من الورد ، حيث ستجدني جانو أمشي ببطء خارجاً من الباب التي صنعتُها كما تحب . . تُرى كيف يكون المشهد الأخير من كل شيء ، بالنسبة للشاعر وقلبه الذهبي؟ المسألة ليستْ هينة ، لو كانت تمام أحد أطرافها ، ولكنّ الحكاية لم تعد لتمام ، ولا لأوفيليا التي صعدت على شجرة صفصاف لتعلّق على غصنها المتدلي باقتَها العشبية ، فانكسر الغصن تحت قدمها وسقطت في النهر ، وهي لا تزال تغني . .

سيكون المشهد بالنسبة لي غصنَ زيتونٍ ، أو أكليلَ غارٍ له رائحة طيبة ، ويمكن أن يأتي بكل الخير . . فجانو هي كل الخير في هذا الخراب ، هذا مما لا شك فيه ، والآن لا يمكنها أن تراني إلا عندما تكون أنيقة كاملة الهندام . وأنا أصر على أن انفرد بها خلف شجرة السدر في الحديقة . . وأن أمسك يدها ، وهي تمشي أمامي بتنورة تنزل تحت ركبتها بأربعة أصابع . . أصبحنا بين جذعَي نخلتين عاليتين جداً :

جانو : إلى أين تأخذني؟

هاني : لا تخافي يا حبيبتي .

أَوقفَها فجأة ، فمدت يدها لتجد نفسها أمام الأرجوحة التي لم تعد عاطلة عن العمل ، قام هاني بصبغها وإزالة الصدأ منها .

هاني : تفضلي بالجلوس هنا .

جانو : هل من الممكن أن تجعلني أجلس في الوسط؟

جلست جانو على الأرجوحة ، وهي سعيدة وممتنة له ، بدأ هاني في دفع الأرجوحة ، وهي تضحك بفرح لم تعرفه منذ أن استُشهد خطيبها علي . توقفت الأرجوحة ، وهي لا تزال تجلس عليها ، فجلس هاني على الأرض أمامها ، تحت قدميها ، واقترب منها ببطء وقبّلها على أصابع قدميها . . هذا

أمر جميل ومختلف جعل جانو تشعر بهزة لذيذة في قلبها . . أغمضت عينيها تماماً مع قبلته! وعاشت حياتها كلها بعد ذلك وهي مغمضة العينين .

ـ إنتهت ـ

الكلمات العامية

القداح : كلمة عامية عراقية تعني النوار أو الزهور الجديدة التي تقدح وقت الربيع .

هدّه : اتركْه .

الله ربك : أنت محظوظ ، ويقصد أن يغبطه على الرحلة .

لالنكي : ثمار اليوسف الأفندي .

أبو ناجي : هكذا يكنى الإنكليز في العراق .

يقشمر : يخدع .

خواردة : كريم اليد .

جفجير : مغرفة .

صمون : نوع من الخبز العراقي يشوى في أفران حجرية .

قدَغة : عناء .

صارت بلا ملح : بلغ السيل الزبى .

يواش : ببطء .

كولجي : حامي هدف .

تربة : طين مجفف بالشمس يؤخذ من أرض كربلاء .

يزّي : كافي .

طبّي جوة : ادخلي .

كرويت : أريكة

الفهرست

١ . المقعد الخلفي ٥

٢ . هاني ١٧

٣ . بقايا كلام ٢٥

٤ . أين ذهبتَ يا أبي؟ ٣٥

٥ . رامي وأوفيليا وبينولوب ٥١

٦ . التحفة والبستان ٥٩

٧ . ليس الحزن عذراً لأي شيء ٦٥

٨ . هاني يضحك ٨٥

٩ . جانو صرعتِ قلبي ١٠٩

١٠ . الروح والراعي ١٢٥

١١ . منتصف النهار في لندن ١٣٣

١٢ . الطريق إلى المدرسة ١٣٩
١٣ . قارب وهواء عذب ١٤٣
١٤ . درس السعادة ١٤٧
١٥ . اللقاء بعد الصعود إلى الطابق الثاني ١٥١
١٦ . ما الذي جاء بي إلى هنا؟ ١٥٩
١٧ . أبواب ومصابيح لندن ١٦٥
١٨ . يا حبيبي كان زمان ١٧١
١٩ . رائحة الخريف ١٧٧
٢٠ . فريدة وجنان وضربة حظ ١٩١
٢١ . في قصر الملكة ٢٠٣
٢٢ . قصائد هاني ٢١١
٢٣ . مكالمة هاتفية ٢٢١
٢٤ . حديقة بيت جانو ٢٣١
٢٥ . ربيع البيت ٢٣٧
٢٦ . على سُلّم واطئ ٢٤٣
٢٧ . آدم في الخيال ٢٤٩
٢٨ . جانو مرة أخرى ٢٦٥
٢٩ . أركان ٢٧٥
٣٠ . الساعة الثانية عشرة ٢٧٩
٣١ . شريط ريتا ٢٨٥

٣٢ . الذهاب إلى هناك ٢٩٥
٣٣ . قبل الوصول ٣١١
٣٤ . أنا في الطريق يا مسرة ٣٢١
٣٥ . ... ٣٢٧
٣٦ . تمام وهاني ٣٣١
٣٧ . ضوء في الحديقة ٣٣٩

حكايات الكاتبة

١ . جائزة التوأم ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠١٦ .

٢ . العرش والجدول ، رواية ، مؤسسة كاتارا ، الدوحة ، ٢٠١٦ ، بثلاث طبعات عربية وانكليزية وفرنسية .

٣ . شاهدتهم وحدي ، مجموعة روايات للفتيان ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠١٥ .

٤ . سعيدة هانم ويومَ غدٍ من السنة الماضية ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠١٥ .

٥ . أجمل حكاية في العالم ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠١٤ .

٦ . أقصى الحديقة ، مجموعة قصصية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠١٣ .

٧ . زينب وماري وياسمين ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠١٢ .

٨ . ماما تور بابا تور ، مجموعة قصصية من الخيال العلمي ، طبعة إلكترونية ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ، ٢٠١٢ ؛ وطبعة ورقية ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ٢٠١٥ .
٩ . الليالي الهادئة ، مجموعة قصصية ،الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ٢٠١١ .
١٠ .حفيد البي بي سي ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠١١ .
١١ .شاي العروس ، رواية ، دار الشروق ، عمّان ، ٢٠١٠ .
١٢ .حلم وردي فاتح اللون ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٩ .
١٣ .نبوءة فرعون ، رواية ، المؤسسة العربية للدرسات والنشر ، بيروت ، طبعة اولى ، ٢٠٠٧ ، وطبعة ثانية ، ٢٠١٦ ؛ وبالإنكليزية ، ترجمة أنغام التميمي ، دار أوثر للنشر ، لندن ، ٢٠١١ .
١٤ .الحدود البرية ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، طبعة أولى ، ٢٠٠٤ ، وطبعة ثانية ، ٢٠١٧ .
١٥ .العيون السود ، رواية ، دار الشروق ، عمّان ، ٢٠٠٢ ؛ وطبعة ثانية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،

بيروت ، ٢٠١٠ .
١٦ .يواقيت الأرض ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، عمّان ، ٢٠٠١ .
١٧ .رومانس ، مجموعة قصصية ، الاتحاد العام للكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠٠ .
١٨ .لا تنظر إلى الساعة ، مجموعة قصصية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩٩ .
١٩ .العالم ناقصاً واحد ، رواية قصيرة ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩٦ ؛ وطبعة ثانية دار أسامة للنشر ، عمّان ، ١٩٩٩ .
٢٠ .رجل خلف الباب ، مجموعة قصصية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩٤ .
٢١ .أشياء لم تحدث ، مجموعة قصصية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٢ .
٢٢ .الفراشة ، مجموعة قصصية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٦ .
٢٣ .الشخص الثالث ، مجموعة قصصية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٥ .